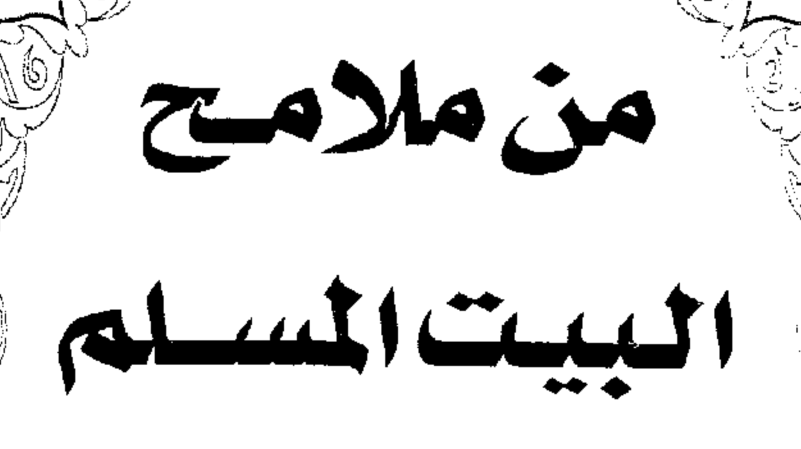


ملامح البيت المسلم

تأليف

د/ محمود محمد عماره

مكتبة الإيمان
بالمنصورة



من ملامح البيت المسلم

الدكتور

محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

الناشر

مكتبة الإيمان. بالمنصورة

الفهرس

مقــدمة	٣
تمهيد : أهمية الزواج	٧
الفصل الأول	١١
من مقاييس الاختيار	
- من مقاييس الاختيار	١٣
- من واقعية الإسلام	١٦
- الخاطب : حيث يضع نفسه	١٩
- على من تقع مسئولية الاختيار	٢٢
- الاختيار بين دفعة الانفعال وعزيمة الرجال	٢٥
- من الأثر إلى الإيثار	٢٨
-الاختيار بين العقل والعاطفة	٣١
- دور الولي في اختيار شريك العمر	٣٤
- من فقة ابن عمر	٣٧
- ضوابط الاختيار في عقول المفكرين	٤٠
-أسوة في اختيار الزوجة	٤٣
- هذا بر الأباء فأين بر الأبناء ؟	٤٦
- عندما يكون عقل المرأة فوق قلبها	٤٩
- عندما يكون الحياء هو الحياة	٥٢
- آباء على مستوى المسئولية	٥٥
- الأصدقاء الألداء	٥٩
- الزواج والعشرة الدائمة	٦٢
- العبد بين مايراده ومايرادمنه	٦٥
- اتجاهات الفتاة المسلمة	٦٨
- اتجاهات الفتاة هناك	٧١
- الطيبون والطيبات	٧٤
- عبيد الحياة وعباد الله	٧٧
- فارس الأحلام	٨٠
- خاطبون يقدمون أوراق اعتمادهم	٨٣
- المتعة بين التسليم بها والاستسلام لها	٨٦
- المبادئ فوق المنافع	٨٩
- خطر إيثار المنافع على المبادئ	٩٢
- مشكلة عائلية	٩٥
-الاختيار وسنة الله في الكون	٩٨
- دروس من بيت الفاروق	١٠١
- خلاف لا يفسد للود قضية	١٠٥
- حتى تظل العمامة بيضاء	١٠٨
- الامتحان الصعب	١١١
- الاختيار بين نظرتين	١١٤
الفصل الثاني	١١٧
الجمال في الميزان	
- قبل أن يذهب الجمال بأحلام الرجال	١١٩
- جمال الباطن هو الأبقى	١٢٢
- الجمال : عندنا وعندهم	١٢٥
- جمال بين الوسيلة والغاية	١٢٨
- زينة التقوى	١٣١
- جمال البساطة	١٣٤
- بل جمال الروح أبقى	١٣٨
- حب الظهور في غلاء المهور	١٤٢
- من المظاهر إلى الجواهر	١٤٥
-الإسراف في زمن الجفاف	١٤٩
- ليلة الزفاف على الطريق الإسلامية	١٥٢
- بيوتنا بين البساطة والتعقيد	١٥٥
- والفضل ماشهدت به الأعداء	١٥٩
- بيوت بلا كلفة وبلا تكلف	١٦٢
- حفلاتنا بين التدين والتداين	١٦٥
- ثروة المال وثروة الرجال	١٦٨
- أهمية التربية ومسئولية الوالد	١٧١
- ولاية الرجال لا ولاية الأطفال	١٧٤
- دروس في التربية من قصة لقمان	١٧٨
الفصل الثالث	١٨١
المودة طوق النجاة	
-من الحب إلى المودة	١٨٣
- قيادة التكليف	١٨٦
- الود	١٨٩
- المودة طريق النجاة	١٩٢
- القلق النبيل	١٩٥
- التوافق أساس البناء	١٩٨

- والوالدت يرضعن أولادهن ٢٠١
- التربية فى ضوء القرآن والسنة ٢٠٤
- يسوقون الزمن بعقارب ساعاتهم ٢٠٧
- وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ٢١٠
- احتملها فإن المدة يسيرة ٢١٤
- دعامة البيت ٢١٧
- التكامل وليس التفاضل ٢٢٠
- من حقوق الزوج ٢٢٣
- حق الزوجة في الشكوى ٢٢٦
- حقوق الزوجة عندنا وعندهم ٢٢٩
- الوفاء للزوج ميتا ٢٣٢
الفصل الرابع
حتى يظل الوفاق علي قيد الحياة ٢٣٥
- حتى يظل الوفاق علي قيد الحياة ٢٤٠
- من أى باب تهب رياح التغير؟ ٢٤٣
- بالحيلة وليس بالأسلحة الثقيلة ٢٤٦
- نصائح إلى الأطراف المعنية ٢٥٠
- من تجاربى ٢٥٣
- الزوجة عند حسن الظن بها ٢٥٦
- الأسرة المسلمة ... زمان ٢٥٩
- الوفاء وسعادة البيت ٢٦١
الفصل الخامس
قبل أن تتحول « القرنفلة » إلى قنبلة ٢٦٥
قبل أن تتحول « القرنفلة » إلى قنبلة ٢٦٥
- عندما تخطب الزوجة لزوجها ٢٦٧
- نحو أسرة مستقرة مستمرة ٢٧٠
- عندما يعبر الشعر عن عذاب الشعور ٢٧٣
- امتحان الرجولة ٢٧٦
- الحائرون بين « اللامع » و« الساطع » ٢٧٩
- تبديد ... لا تجديد. ٢٨٢
- عندما يكون الامتناع إباء ٢٨٥
- حول تعدد الزوجات ٢٩١
- من مآثر زوجات النبى ﷺ ٢٩٤
- من خصائص أمهات المؤمنين ٢٩٨
- ذلك الوفاء لاريب فيه ٣٠٢
- بالعمل نطرد الملل ٣٠٥
- نرضى بحكمة لثقتنا بحكمته ٣٠٨
- عندما تصنع المشكلات ثم نشكو منها ٣١١
- بين الحب والاحترام ٣١٤
- نحو « تطبيع » العلاقة بين الرجل والمرأة ٣١٧
- المرأة بين نظرتين ٣٢٠
- الطريق إلى قلب الزوجة (أ) ٣٢٣
بين حقها في الغضب وواجبها فى التسامح (ب) ٣٢٦
- الطيبات للطيبين (جـ) ٣٢٩
- داء العنف ودواء الابتسامة ٣٣٢
- ميثاق شرف ٣٣٥
- الغيرة ذلك الحارس المقيم ٣٣٩
- الغيرة المحروسة بالإيمان ٣٤٢
- الغيرة بين السلبية والإيجابية ٣٤٥
- الغيرة من الأمانى إلي كسر الأوانى ٣٤٩
- وفاء لا تعكره الدلاء ٣٥٢
- الزوجة المؤمنة والمعادلة الصعبة ٣٥٥
- معا ... ضد الشيطان ٣٥٨
- العصافير ... لا تعيش مع الأسماك ٣٦١
- وهل أبوك عمر ؟ ٣٦٤
- الذين يحبون بعقولهم ٣٦٨
- العتاب سنة الأحباب ٣٧١
- يرومون البئر وهم بداخله ٣٧٥
- الزواج العرفى ٣٧٨
- الفهرس ٣٨٣

لاخرج الداخلى السيد سيف ٢٥١١٢٠٣٢ -

كتـــاب قد حــــوى دررا ... بعـــين الـحسن مـــلحوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٢/٢١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلفنى صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى بأن أسهم فى تحرير جريدة «صوت الأزهر» الغراء . . فكانت هذه الصفحات . . الكاشفات عن ملامح البيت المسلم كماهو فى التصور الإسلامى «المثالى» وعلى أرض الواقع «الماثل».

وإذا كـان هناك «أكاديميـيون» قادرون على التبويب . والتـقسيم . . طبق منهج علمى مدروس . . فلست واحدا منهم . .

ولكن . . قصاراى أن أسجل انطباعاتى كسائح فى بلاد الله :

يرى . . ويسمع . . من خلال مجالس الصلح التى كنت عضوا فيها . .

يرى المواقف . . ويتسمع وجيب القلوب . . عبر مواقف لا يتحدث «عنها» . . وإنما يتحدث من خلالها . . من عمقها :

فبعد كل مجلس صلح . . وفيه . . وقبله . . تقال كلمات . . أو تكال !

وتمارس أفعال . . وتبدو أحوال . .

وكل كلمة . . وكل فعل . . يعطيك نموذجا يحتاج إلى تعليق . . يصير الموقف به درسا لكل من وجد نفسه على ذات الطريق . .

أرأيت إلى الطبيب المداوى ؟ :

إنه لا يخطط للحالات المرضية الآتية . بحيث يقول : لو جاءتنى حالة كذا . . لكان الدواء كذا.

ولكن . . تأتيه الحالة . . فيفحصها في سياقها . . في ظروفها الخاصة .

وكذلك أفعل في هذا الكتاب والذى أحاول فيه تسليط الأضواء على البيت المسلم . . في واقعه . . وصولا به إلي ما ينبغى له من كمال . . عن طريق هذه التأملات . . التى إن فاتها أن تكون بحثا علميا منهجيا . . فلم يفتها - إن شاء الله- أن تكون دليلا على الطريق . .

وقد تختلف وجهات النظر . . كما وأنها قد تأتلف . .

ولكن الأمر فى النهاية على ما يقول ابن القيم فى : طريق الهجرتين :

«ما كان فيه من حق وصواب . . فمن الله . . وهو المانّ به .

فإن التوفيق بيده .

وما كان فيه من زلل . فمنى . ومن الشيطان .

والله ورسوله منه براء .

يا أيها القارئ له . والناظر فيه :

هذه بضاعة صاحبها المزجاة .

مشوقة إليك .

هذا فهمه وعقله معروض عليك .

لك غنمه . وعلى مؤلفه غرمه .

ولك ثمرته . وعليه عائدته .

فإن عدم منك حمدا وشكرا . فلا يعدم منك عذرا .

وإن أبيت إلا الملام . . فبابه مفتوح . . وقد :

استأثر الله بالثناء وبالحمد

وولى الملامة الرجلا .

والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصا .

وينفع به مؤلفه . وقارئه . . وكاتبه

في الدينا والآخرة .

إنه سميع الدعاء .

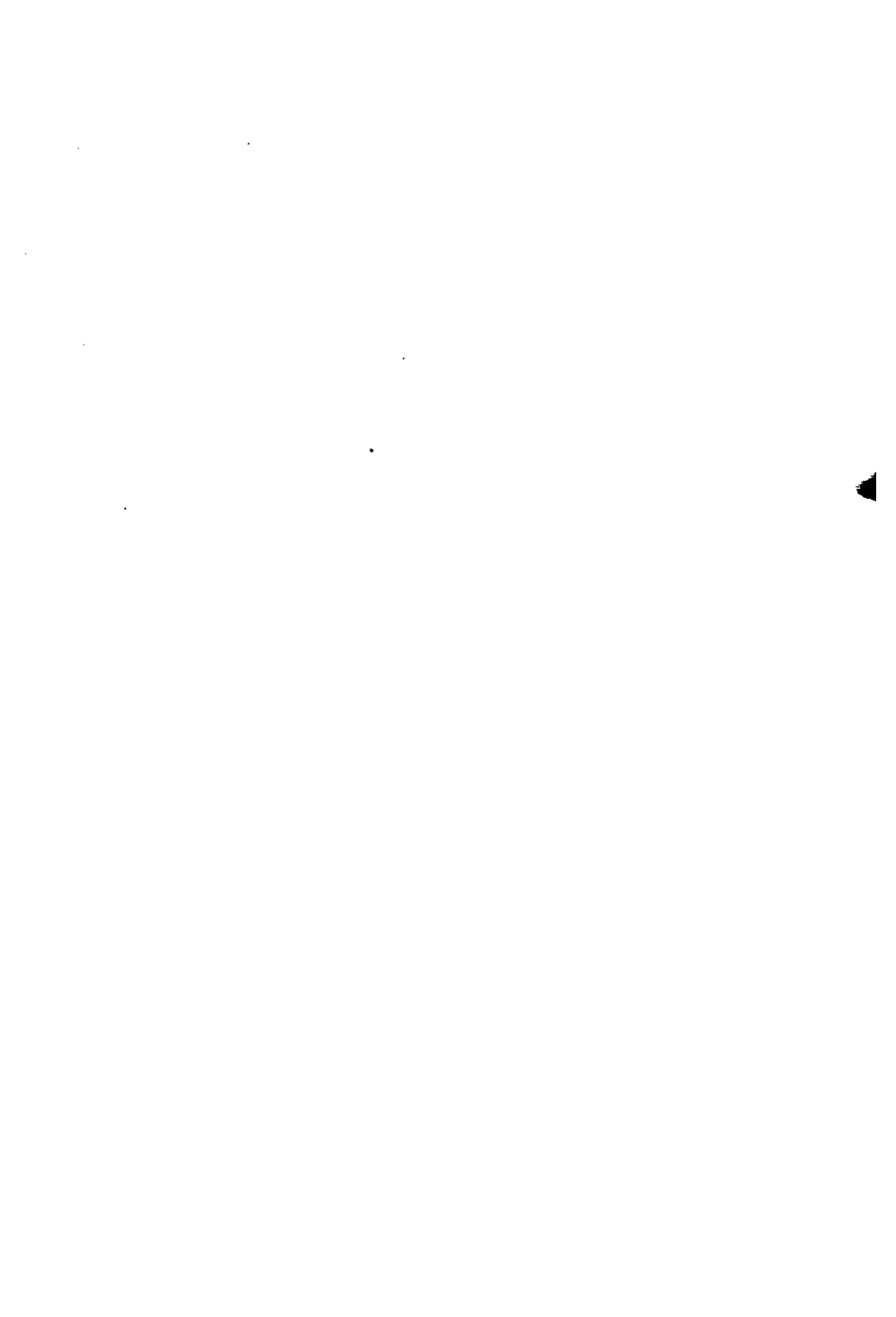
وأهل الرجاء

وهو حسبنا ونعم الوكيل»[١]

د. محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

(١) طريق الهجرتين ، لابن القيم : ٦ : ٧ .



تمهيد

▫ • ▫ أهمية الزواج ▫ • ▫

عن أبى هريرة رضى الله عنه :

لعن رسول ﷺ مخنثى الرجال : الذين يتشبهون بالنساء. والمترجلات المتشبهات بالرجال .. والمتبتلين من الرجال الذين يقولون : لا نتزوج .. والمتبتلات من النساء اللاتى يقلن ذلك »[1].

الحديث الشريف تهديد عالى النبرة لكل من تنكَّر لطبيعته التى برأه الله تعالى عليها . . . رجلا كان أم امرأة .

رجلا يؤثر رخاوة الأنوثة وطراوتها على قوة الرجولة وصرامتها وامرأة .. تتنكر لطبيعة الأنثى حاشرة نفسها فى زمرة الرجال لتكون ذلك الغراب الذى حاول أن يغير ريشه ليكون طاووسا . . . فما بقى غرابا . . ولا صار طاووسا . .

والتهديد هنا باللعن المخرج للإنسان من زمرة المجتمع الذى يسهم بالتخنث فى هدمه . . . عن طريق طرح فكرة الزواج جانبا . . . وما يترتب على ذلك من انحلاله وخذلانه . وإن الأمر على ماقيل :

«ليست العزوبية من أمر الإسلام فى شيء :

النبى ﷺ تزوج .

ولوكان بشر الحافى قد تزوج . . كان قد تم أمره كله .

ولو ترك الناس النكاح لم يغزوا . ولم يحجوا . .

لقد نهى رسول الله ﷺ عن التبتل :

فمن رغب عن فعل النبى ﷺ . . فهو على غير الحق .

---

(١) رواه الحافظ فى « تلبيس إبليس »

وإن يعقوب فى حزنه قد تزوج وولد له.

وعن إبراهيم بن أدهم قال :

«انظر عافاك الله ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه .

ولبكاء الصبى بين يدى أبيه متسخطا يطلب منه خبزا أفضل من كذا وكذا.

ابن يلحق المتعبد العزب» [١]

• مغزى الزواج :

فإن الزواج فى منطق الشريعة يعنى تكوين أسرة . .

ومغزى ذلك : إتاحة الفرصة لمواهب الإنسان أن تتفتح أزهارها فى تربة خصبة لتؤتى من بعد أكلها .

«فهى أولا : تكسر من حدة الشهوة المجنونة . لأن الإنسان بفطرته يزهد فى كل شيء يملكه:

فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كلا منها يملك الآخر فى كل لحظة يريدها . . لم يعد هناك دافع إلى التشهى العنيف . والسعار الملهوف.

والأسرة كذلك بمشاغلها الخاصة . ومطالبها الدائمة - وعلى الأخص حين يكثر الأولاد ويحتاجون لمزيد من الرعاية - تصرف النفس عن الشهوة الملحة . وتقف بها عند الحد المعقول . الذى لا يرهق الجسم . ولا يكلفة شططا.

فمن ناحية الغريزة الجنسية ذاتها . . نجد الأسرة هى المنظم الطبيعى لانطلاق الشهوة . بالصورة التى تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة» [٢]

• قضية شبابية :

نحن إذن أمام قضية من قضايا الشباب . . بل أهم قضاياهم جميعا . .

---

(١) تلبيس إبليس . لابن الجوزى

(٢) محمد قطب « الإنسان بين المادية والإسلام»

وقد قال الإسلام فيها كلمته .. ورأينا من سنته ﷺ إنذاره القادر على الزواج .. العازف عنه .. فقد قال لعكاف التميمى :

ألك زوجة ؟ قال : لا

ولا جارية ؟ فقال : ولا جارية

وأنت موسر؟ وأنا موسر .. بخير .

فقال ﷺ : أنت إذن من إخوان الشياطين :

لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم .

إن من سننا : الزواج :

شراركم عزابكم . وأراذل موتاكم : عزابكم .

ياعكاف : تزوج ... و إلا فإنك من المدبرين [1]

يعنى : المتولين عن الزحف .. وكفى به إثما مبينا .

على أن للقضية وجها آخر وهو :

أنه بالإعراض عن الزواج تبور فتيات مؤمنات .. قانتات صالحات واللاتى تعبر عن أشواقهن المستكنة فتاة منهن .. فاتها القطار:

تقول العانس :

«زرعت روض شفتى بالقبل .. فأزهر وأينع .. ولكن لم يقطفه أحد .. فذوى وجف.

وأعددت سرير الحب فى قلبى .. وضمخته بالعطر .. ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار.

كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافا .. ثم نثروا فى الحياة :

فمن وجد نصفة .صار إنسانا .. ومن وجد غيره .. كان مسخا .. ومن لم يجد بقى نصف إنسان ! .. فأين أنت يا نصفى الآخر ؟!!

(١) رواه أحمد في مسنده ج ١٦٣/٥ ورجاله ثقات .

لقد ضاع النصف الذى فى قلبى .. فمن هو الذى يخفق قلبى فى صدره ؟
من هو الذى ينظر بعينى ،ويسمع بأذنى ؟
من هو الذى لم أره أبدا ..
ولا أرى غيره .. أبدا ؟!!»

❑ ● ❑



الفصل الأول

من مقاييس الاختيار

من مقاييس الاختبار

يقول ابن الجوزى [(١)]

جاء فى الأثر . اللهم أرنا الأشياء كما هى ... وهذا كلام غاية فى الحسن :

وأكثر الناس لا يرون الأشياء بعينها :

فإنهم يرون الفانى . . كأنه باق . . ولا يكادون يتخايلون زوال ماهم فيه وإن علموا ذلك .

إلا أن عين الحس مشغولة بالنظر إلى الحاضر:

ترى زوال اللذه وبقاء إثمها . ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق .

وهذا هو خداع الحواس الذى نجانا الله تعالى منه بما أرشدنا إليه رسوله ﷺ فى قوله:

«فاظفر بذات الدين تربت يداك»

ومن معانى ذلك :

أن تنظر إلى المخطوبة بعينى رأسك . . ولا بقلبك فقط وإنما انظر إليها بعقلك .

وإلا فما أحر الأشواق المكتوبة بكلمات من لهب الحب . . ثم تتبخر فى نهاية المطاف عن ندم عميق . . على قرار اتخذته في غياب عقلك .

وهذا هو مفرق الطريق بين البشر فى عملية اختيار الزوجة :

لقد قال تعالى فى ختام آية الروم :

﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾

وقد تفكر الناس فى أمر الزواج فكان منهم :

ظالم لنفسه . . ومنهم مقتصد . . ومنهم سابق بالخيرات .

---

(١) صيد الخاطر / ٥١٦ .

منهم ظالم :

يتقدم لخطبة ابنته شاب ناجح .. طامح ..

لكن كيسه خال من المال .. إلا من راتب شهرى يكفى زوجتين .

لو تجاوزنا تكاليف الخطبة .. والعقد .. والعرس ؟!

ولكن الوالد يرفض رزقا ساقه الله إليه حلالا .

ومنهم سابق بالخيرات . كسعيد بن المسيب والذى اختار لابنته الجميلة الأصيلة أحد تلاميذه الفقراء .. ثم ذهب بها .. وبنفسه إلى بيت زوجها .

لقد كانت ابنته كمثله .. ذات دين .

وكان تليمذه أيضا صاحب دين .

وإذن فلقاؤهما خير وبركة من حيث كان الدين موحدا للهدف فلا خلاف .. ومزهدا فى الترف .. فلا شكوى ..

ولقد تقدم ليتيمة فى حجر وليها .. تقدم إليها شاب موسر .. وآخر معسر .. فاختارت المعسر مكتفية بما يملك فى رأسه من علم ..

وما فى يده من تجربة .. وما فى قلبه من إيمان ..

وتلك هى ضمانات النجاح فى حياة الزوجين .. أو كما قالوا :

«إن الحياة الرتيبة بعد الزواج تحتاج إلى ماهو أعمق من الحب :

تحتاج إلى الصداقة بين الطرفين .. وذلك لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أحيط الحب بسياج من الصداقة»

ونقول نحن : بسياج من التدين الخالص الذى يصير هو القاسم المشترك الأعظم بين الزوجين .. لأنه .. كما قيل أيضا :

«لكى يتحقق النجاح للعلاقة الزوجية . يجب أن تتشابه الطبائع إلى حد ما. فمادام الزواج يعنى المشاركة المستمرة . فإن تشابه الطباع يجعل احتمال السعادة أكبر»

ونقول نحن : فإذا كان ذلك التشابه فى درجة التدين كان احتمال السعادة مؤكدا .

وفى غياب التدين .. فلا لقاء على هدف .. ولا اتحاد على كلمة ..

وإنما هى النزوة الطارئة الذاهبه حتما . وفى يوم قريب .

يوم تسقط قشرة الجمال وينطفئ بريق المال . .

ومن دروس الطبيعة نرى :

أن الحياة بلا ود نابع من القلب صحراء جرداء . . لاظل فيها ولا ماء .

وقد ذكروا أن أهل قرية فى أحضان جبل رأو ا ذكور الغزال تعيش وفى قمة الجبال . . بينما الإناث يسرحن فى السفح . . وفى متسع الوادى... وكانت الغزالة تبعث من المسك . . مايغرى الذكور بالسقوط من فوق قمة الجبل . . شوقا إلى الأنثى . .

وأراد أهل القرية حماية الغزلان من هذا العذاب . . فقبضوا على الذكور وأنزلوها بالقوة من شاهق لتكون إلى جانب الإناث . . (فى السفح)

لكن التجربة فشلت . . حين أمسكت الإناث عن توجيه سائل الود . . عن بث المسك إلى أعلى . . لأن المعايشة . . بالقوة وبعيدا عن الرغبة . . والمعاناة . . لا تدوم . بل لا تكون !

أما بعد :

فلاحظ أن الحديث الشريف لم يقل : ذات دين . . أى دين . .

ولكن : ذات الدين . . إنه الدين القيم . .

ثم إنها ذاته . . نفسه . . إنه وهى . . وجهان لعملة واحدة . . لا يفترقان !

ولمثل هذه الفتاة فليسع الخاطبون .

من واقعية الإسلام

تقول التجربة الإنسانية :

قد يسمع الفتى وصف الشعراء للمرأة : فيتخيلها جنية .. أسطورة .. ثم ترتسم في ذهنه زوجة المستقبل . والتي رآها على مرآة شعر كأنه المرآة الصقيلة .. تجليها له .. بكل ملامحها ..

وقد يلاقي من الفتيات أشتاتا . فيقول :

هذه لي .. لا .. إنها لا تصلح .

وهذه أيضا لا تصلح ..

فإذا كان الفتى صاحب دين تساءل :

إنها جميلة .. نعم .. وإنها كذلك غنية ..

وأخرى : ذات حسب ونسب ..

ثم يقول :

ولكني أبحث عن ذات الدين ..

وتلك هي صاحبة الدين .. إذن فلأتقدم لخطبتها ..

ثم يتقدم متحررا من فتنة الجمال .. والمال .. والحسب ..

إنه حتى في أموره الحساسة مرتبط بأهداف الإسلام ..

التي لا تزايله حتى في أحرج لحظات حياته ..

فمن أراد أن ينضوي تحت لوائه ﷺ يوم القيامة .. فلينضو اليوم تحت لواء سنته ..

وها هو ذا منضو تحت سنته ﷺ

إن الغريزة تبحث هنا وهناك .. في الدائرة الواسعة ..

ولكن رحمة الله تعالى تنشر على الراغب ظلها .. فإذا هو أمام فتاة لم تكن له

فى حساب :

لقد رأى ملايين الوجوه . .

ومر أيضا على ملايين البيوت .

لكنه من بين هذه الملايين : يختار دارا . . وجوارا . .

ومن تمام رحمته تعالى أن خلق الزوجة من نفس الإنسان . . من جنسه . .

لكنها خلقت من ضلع أعوج :

إذا ذهبت تقومها . . كسرتها . . وكسرها طلاقها . .

وإذن . . فسلاحك الصبر الذى تتعامل به مع هذه الطبيعة . .

ومن فقه السنة المطهرة هنا : أن الرسول ﷺ لم يقل : أنها عصا معوجة . . مثلا . .

وإنما هى : ضلع . .

وفى الضلع حياة . . فهى جديرة بالتقدير . .

ثم عبر ﷺ «بالكسر»

لأن الكسر - كما يقول المربون: يجبر . . فالأمل فى الإصلاح قائم . .

ويفرض على المؤمن عقد الإيمان الجامع أن تكون :

«كثير السكون . دائم التفكير . غير مقهور - كغيره - تحت سلطان العادة تحتله :

لا يستفزه المعارضات . . ولا تشغله الخواطر العابرة .

شعاره : الصبر .

وراحته : التعب .

محب لمكارم الأخلاق . حافظ لوقته .

لا نخالط الناس إلا على حذر كالطائر :

يلتقط الحب بينهم»

ويعني ذلك كله : أن المؤمن بحكم إيمانه هو الزوج المثالي المرشح للصحبة على تقوى من الله ورضوان.

إن الزوج المسلم إنسان . .

وإنسانيته مهمة في إدارة البيت . .

ربما تصوره البعض ملاكا . .

وقد يتخيله آخرون . . شخصية ساحقة . .

لكن واقعية الإسلام لم تشأ أن يكون ملكا . . ولا أن يكون طاغية . .

ذلك بأن النفس البشرية لا تحسن . . بل لا تقدر أن تتعامل مع الملك . . لا تنسجم معه . . بل لا تطيق ذلك . .

والشخصية الساحقة تصلح للزعامة الموقوتة العابرة . .

● أما الشخصية المناسبة :

فهي وحدها القادرة على قيادة السفينة . . وإدارة الأزمات . . ومواجهة المشكلات . . بهذا الحد المشترك . . وبتلك الطبيعة الواحدة . .

وذلك شاهد صدق على واقعية الإسلام . . وعلى تفرده - دون سواه - بقابلية الإصلاح . .

فعلى قدر واقعية المبادئ . . يكون نصيبها من الفلاح . . وحظها من النجاح .



الخاطب: حيث يضع نفسه

روى الإمام أحمد رضى الله عنه :

«تنكح المرأة على إحدى خصال :

لجمالها . ومالها . وخلقها . ودينها . . فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك]

مدخل :

عاد رسول الله ﷺ أعرابيا مريضا . فقال مواسيا له :

« طهور»

فقال الأعرابى : بل هى حمى تفور . على شيخ كبير . لتورده القبور !

فقال ﷺ

« فهى إذن» ! !

ومعنى ذلك :

أن الأعرابى المريض كان يائسا . . إلى الحد الـذى لم يتذوق فيه منطق الرسول الذى جاء يبشره بالعافية . .

ولو أنه أصاخ السمع إليه لهبت عليه بشائر التوفيق من كل طريق . .

ولكنه حبس نفسه فى سجن اليأس . . فكان له ما أراد لنفسه . .

وهذا معنى قوله ﷺ :

«فهى إذن»

أى : أنك حيث وضعت نفسك !

وفى مشروع الزواج نقول أيضا فى ضوء هذا البيان النبوى :

أنت أيها الخاطب حيث وضعت نفسك :

فإن ذهبت إلى ذات المال والجمال والعصبة أولى القوة من الرجال . .

فأنت وذاك . . وعليك من الآن أن تتحمل نتيجة اختيارك . .

وإن ذهبت إلى ذات الخلق والدين . . فأنت من الفائزين .

يقول باحث غربى :

«إن أفكارنا هى التى تصنعنا . واتجاهنا الذهنى هو العامل الأول فى تقرير مصائرنا».

وهو نفسه المأنى الذى تقرره الآية الكريمة

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (١)

(إن السعادة هى ذلك الدواء الذى يطلبه كل الناس . . .

ولكن الكثير منهم ينال التعب فى البحث عنها عن أشياء يعتقد أنه بمجرد الحصول عليها تتحقق له السعادة .

ولكن السعادة الحقيقية هى فى الإيمان الحقيقى الصادق .

أما ما عدا ذلك فهى أمور لا تجلب لنا الإحساس بالراحة والرضا .

بسبب أننا عندما نحصل على هذه الأشياء التى كنا نحلم بها .

سرعان ما نفكر فى أشياء أخر . . ثم نستأنف السعى لتحقيقها . . وهكذا نظل ندور حول أنفسنا . .

وصدق القائل :

ليس السعيد الذى دنياه تسعده

إن السعيد الذى ينجو من النار

الذى ينجو من نار القلق والتمزق فى الدنيا بسبب من سوء اختياره .

هذا الاختيار الذى ينتهى به إما إلى جنة وإما إلى نار !!

وإذ يتحمل الفتى الخاطب مسئولية اختياره . . فإن ولى الفتاة يأخذ نصيبه الأوفى من هذه المسئولية نيابة عن ابنته :

(١) الرعد : ١١

إن ولى الفتاة أدرى بشئون الحياة .. بما له من تجاريب .. يقف بها إلى جانب فتاة قد يهزها الانفعال .. فلا تتماسك صورة فارس الأحلام فى ذهنها تماما ..

وربما تسرعت فى القبول .. قبول من لا يرعى ذمة . ولايصون عهدا .

على أن ذلك لا يلغى حق المخطوبة فى الاختيار .. وهى أيضا حيث تضع نفسها .

إن الدين الذى حرم وأدها .. فمن حقها أن تعيش ..

هو هو الدين الذى احترم رضاها .. لتعيش حرة كريمة ..

إن كانت بكرا .. فإذنها صماتها .. رعاية لحيائها .

وإن كانت ثيبا .. فإذنها لابد أن يكون صريحا .. لأن لها من تجربتها ما يعينها على حسن الاختيار .

ونلفت النظر إلى أن سكوت البكر ليس موقفا سلبيا ..

فإن مع السكوت شواهد يعرفها الراسخون فى العلم

بخفايا النفوس :

فعلى مرآة وجهها .. تلوح أمارات القبول .. وشواهد الرفض .. والصب تفضحه عيونه !!

إن العيون إذا تكلم صمتها ... خرست لديها ألسن البلغاء !

● ● ●

على من تقع مسئولية الاختيار

كان قدوم المولود فى حس الآباء الصالحين مسئولية ضخمة يقدرونها قدرها .

ومنهم الحسن البصرى الذى قال لما بشر بمولودله:

لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلنى . . وإن كنت فقيرا أتعبنى !

لكن ذلك لا ينفى كونه حبة القلب . وقرة العين :

ضرب رجل يوما . وطولب بمال . فلم يسمح به . .

فأخذ ابنه وضرب . فجزع . . فقيل له فى ذلك فقال :

ضرب جلدى . . فصبرت . . وضرب كبدى فلم أصبر !!

وإذ يحظى الولد بهذه العناية . . فقد كان للبنت وضعها الحساس . .

والذى يتقاضى الوالد أن يقف إلى جانبها : يختار لها شريك حياتها . . وذلك هو الهم الأكبر فى حياته . .

وقد حفل تاريخنا الإسلامى بآباء صدق . . فكانوا نعم الغيارى . . وبالذات على مستقبل بناتهم . .

وكان للدقة فى اختيار شريك الحياة ما يسوغها :

أولا : أن مقصود الزواج هو طلب الولد الذى يمتد به العمر .

وذلك قوله تعالى :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [1]

إذن فليس هو مجرد الإرواء الجنسى . . وإنما القضية متشعبة .

والمسئولية ضخمة فلابد من الدقة فى الاختيار:

فالفتاة تنتقل من بيت الدلال . وتستدبر معاملة كانت الرحمة فيها فوق العدل

(١) البقرة : ٢٢٣

.. إلى بيت لم تألفه .. وشريك لم تخبره ..

وحساب على العمل .. قد يكون عسيرا .. وسط غابة متشابكة من :

الأب .. والأم .. وإخوة الزوج .. وأخواته ..ثم أعمامه وأخواله ..

إذن فلابد أن تكون مؤهلة لمواجهة ذلك كله بحسن التصرف ..

ولكي يكون التصرف حسنا لا بد من حسن اختيار الدار والجار!

ثانيا : أبدية العلاقة الزوجية التي لا تكون لقاء عابرا .. ينتهي عند مرحلة من مراحل الطريق ..

وإنما هي الرباط الباقي .. والذي يتجاوز هذه الدنيا .. إلى الآخرة . وذلك قوله تعالى :

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1]

وثالثا : طبيعة العلاقة الزوجية التي تجعل من الزوجين كيانا واحدا : كل منهما لباس للآخر : يستره .. ويقيه من تقلبات الأيام .

ويقول تعالى :

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[2]

وأنت واجد في هذا التعبير القرآني ما استلفت نظر البلغاء فأدركوا عبره وأسراره:

لقد بدأ بقوله تعالى :

﴿ هن لباس لكم ﴾

أي بدأ بأهمية دور الزوجة كساترللزوج .. مانع له من الانحراف :

ذلك بأن الرجل بحكم وضعه الاجتماعي الذي يمكنه من التقلب في البلاد .. وتحت ضغوط الشهوة قد يميل ميزانه .. فتعرضه الشهوة الغلابة للسقوط .

---

(١) غافر :٨ (٢) البقرة : ١٨٧

وإذن .. فهو أحوج ما يكون إلى : «ذات الخلق والدين»
والتى جعلها الله تعالى واقية له من الانحراف .
والتعبير - إلى جانب ذلك - يعنى :
أن الزوجة لباس .. والزوج كذلك لباس
وينبغى أن يكون اللباسان - كما قيل بحق - :
من نفس القيمة .. وتلك هى الكفاءة .
ومن نفس النوع .. وذلك هو الانسجام والتكيف .
ويجب أن يكون ساترا حقا ..
وإلا : فإن لباس الحرير لا يستر .. بل يشف عما تحته ..
وقد تكون جميلة .. وقد يكون هو وسيما .. ولكن .. ليس هناك رصيد ساتر .. من الأخلاق .
وأخيرا : فليكن اللباس مفصلا على قدك ..

ومن معانى ذلك :

ألا يكون سنك داخلا بك فى معترك الموت .. بعد السنين ..
ثم تقدم على زواج من هى فى عمر أحفادك .. تحت العشرين ..
ثم يكون من الفساد ما الله به عليم ..
والمسئول هنا هو : الوالد .. الذى يفرض عليه الإسلام أن يبر ابنته أولا . وأعلى صور البر أن لا يدفعها إلى سوق النخاسة سلعة رخيصة فيدنس بالطمع كرامة الإنسان !

الاختيار

بين دفعة الانفعال .. وعزيمة الرجال

في تعبير كاشف لأحد المربين وقد سئل : قلت إن الزواج أصعب علاقة إنسانية .. لماذا ؟ قال المربى :

«أصعب علاقة بين رجل وامرأة هى : الزواج .

لأنها علاقة تبدأ في ظروف غير عادية . وفى درجة حرارة مرتفعة :

يحاول فيه الرجل أن يبهرها بذوقه . وأدبه وكرمه .

ثم يحكى عن بطولاته .

وفى هذا الجو العاصف يقرر الاثنان الزواج .

وبعد الزواج تنخفض الحرارة .. وتنتهى الحكايات :

فلا عاد الرجل بطلا مغوارا كريما ممتعا ..!

ولا عادت هى ست الحسن والجمال !

انتهت الرواية المحبوكة .. بألوانها وظلالها .

ثم يخرج الزوجان إلى الشارع .. حيث لا أضواء .. ولا رواية .

ثم يفاجآن بأنهما غريبان ..

«غموصان فى «طنها»

إن كل ما حدث أنهما التقيا بسرعة .. وبسرعة أيضا قررا الزواج»

وهكذا أيضـا : تكون نهـاية عـلاقة لم تبـدأ خطوتهـا الأولى من حـيث أراد الإسلام .

إن آية الزواج مختومة بقوله تعالى :

﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ . الرعد ـ ٣ .

والمتسـرعون لا يفكرون .. إنهم شطار فى التـذويق والتنميق .. والتـجمل

الخادع . . أما الدين . . والخلق . . فلم يجعلوه قاعدة الاختيار . .

فسقطوا فى الاختبار!

وحق لهم أن يسقطوا لأنهم كما يقول الرافعى : [illegible]

وهو «أن تحاول تنميق الحياة من حولك و تنقصيها [illegible] فى قلبك»

إن ترتيب الأفكار . . ووزن العواطف [illegible] بالعلاقة الزوجية إلى حيث يريد لها الإسلام .

ولقد كان للغيارى من حكامنا موقفهم الحكيم فى هذه القضية [illegible] يتركوها برمتها لتكون ألعوبة فى يد الذواقين [illegible]

بعث عمر - رضى الله عنه - إلى حذيفة بن [illegible] - رضى الله عنه - [illegible] المدائن - بعث إليه رسالة جاء فيها :

«. . بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل الكتاب [illegible] فطلقها»

فكتب إليه حذيفة :

لا أفعل . . حتى تخبرنى أحلال أم حرام ؟!

وماأردت بذلك ؟!

فكتب إليه عمر :

«لا . . بل حلال .

ولكن فى نساء الأعاجم خلابة .

وإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم»

ولاحظ من فقه الموقف مايلى :

١- مسئولية الخليفة حتى فيما يظن أنه أمور شخصية .

٢- وأنه لم يكن يجهل الحكم الشرعى . . وإنما كان من وراء اقتراحه : الخوف من سرعة الانقياد لجاذبية الأعجميات .

إن ولى الفتاة أدرى بشئون الحياة . . بما له من تجاريب . . يقف بها إلى جانب فتاة قد يهزها الانفعال . . فلا تتماسك صورة فارس الأحلام فى ذهنها تماما . .

وربما تسرعت فى القبول . . قبول من لا يرعى ذمة . ولايصون عهدا .

على أن ذلك لا يلغى حق المخطوبة فى الاختيار . . وهى أيضا حيث تضع نفسها .

إن الدين الذى حرم وأدها . . فمن حقها أن تعيش . .

هو هو الدين الذى احترم رضاها . . لتعيش حرة كريمة . .

إن كانت بكرا . . فإذنها صماتها . . رعاية لحيائها . .

وإن كانت ثيبا . . فإذنها لابد أن يكون صريحا . . لأن لها من تجربتها ما يعينها على حسن الاختيار .

ونلفت النظر إلى أن سكوت البكر ليس موقفا سلبيا . .

فإن مع السكوت شواهد يعرفها الراسخون فى العلم

بخفايا النفوس :

فعلى مرآة وجهها . . تلوح أمارات القبول . . وشواهد الرفض . . والصب تفضحه عيونه !!

إن العيون إذا تكلم صمتها . . . خرست لديها ألسن البلغاء !

❑ ● ❑

على من تقع مسئولية الاختيار

كان قدوم المولود فى حس الآباء الصالحين مسئولية ضخمة يقدرونها قدرها .

ومنهم الحسن البصرى الذى قال لما بشر بمولودله:

لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلنى . . وإن كنت فقيرا أتعبنى !

لكن ذلك لا ينفى كونه حبة القلب . وقرة العين :

ضرب رجل يوما . وطولب بمال . فلم يسمح به . .

فأخذ ابنه وضرب . فجزع . . فقيل له فى ذلك فقال :

ضرب جلدى . . فصبرت . . وضرب كبدى فلم أصبر !!

وإذ يحظى الولد بهذه العناية . . فقد كان للبنت وضعها الحساس . .

والذى يتقاضى الوالد أن يقف إلى جانبها : يختار لها شريك حياتها . . وذلك هو الهم الأكبر فى حياته . .

وقد حفل تاريخنا الإسلامى بآباء صدق . . فكانوا نعم الغيارى . . وبالذات على مستقبل بناتهم . .

وكان للدقة فى اختيار شريك الحياة ما يسوغها :

أولا : أن مقصود الزواج هو طلب الولد الذى يمتد به العمر .

وذلك قوله تعالى :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [1]

إذن فليس هو مجرد الإرواء الجنسى . . وإنما القضية متشعبة .

والمسئولية ضخمة فلابد من الدقة فى الاختيار:

فالفتاة تنتقل من بيت الدلال . وتستدبر معاملة كانت الرحمة فيها فوق العدل

---

(١) البقرة : ٢٢٣

.. إلى بيت لم تألفه .. وشريك لم تخبره ..

وحساب على العمل .. قد يكون عسيرا .. وسط غابة متشابكة من :

الأب .. والأم .. وإخوة الزوج .. وأخواته .. ثم أعمامه وأخواله ..

إذن فلابد أن تكون مؤهلة لمواجهة ذلك كله بحسن التصرف ..

ولكي يكون التصرف حسنا لا بد من حسن اختيار الدار والجار!

ثانيا : أبدية العلاقة الزوجية التي لا تكون لقاء عابرا .. ينتهي عند مرحلة من مراحل الطريق ..

وإنما هي الرباط الباقي .. والذي يتجاوز هذه الدنيا .. إلى الآخرة . وذلك قوله تعالى :

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1]

وثالثا : طبيعة العلاقة الزوجية التي تجعل من الزوجين كيانا واحدا : كل منهما لباس للآخر : يستره .. ويقيه من تقلبات الأيام .

ويقول تعالى :

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[2]

وأنت واجد في هذا التعبير القرآني ما استلفت نظر البلغاء فأدركوا عبره وأسراره:

لقد بدأ بقوله تعالى :

﴿ هن لباس لكم ﴾

أي بدأ بأهمية دور الزوجة كساترللزوج .. مانع له من الانحراف :

ذلك بأن الرجل بحكم وضعه الاجتماعي الذي يمكنه من التقلب في البلاد .. وتحت ضغوط الشهوة قد يميل ميزانه .. فتعرضه الشهوة الغلابة للسقوط .

(١) غافر :٨ (٢) البقرة : ١٨٧

وإذن .. فهو أحوج ما يكون إلى : «ذات الخلق والدين»

والتى جعلها الله تعالى واقية له من الانحراف .

والتعبير - إلى جانب ذلك - يعنى :

أن الزوجة لباس .. والزوج كذلك لباس

وينبغى أن يكون اللباسان - كما قيل بحق - :

من نفس القيمة .. وتلك هى الكفاءة .

ومن نفس النوع .. وذلك هو الانسجام والتكيف .

ويجب أن يكون ساترا حقا ..

وإلا : فإن لباس الحرير لا يستر .. بل يشف عما تحته ..

وقد تكون جميلة .. وقد يكون هو وسيما .. ولكن .. ليس هناك رصيد ساتر .. من الأخلاق .

وأخيرا : فليكن اللباس مفصلا على قدك ..

ومن معانى ذلك :

ألا يكون سنك داخلا بك فى معترك الموت .. بعد السنين ..

ثم تقدم على زواج من هى فى عمر أحفادك .. تحت العشرين ..

ثم يكون من الفساد ما الله به عليم ..

والمسئول هنا هو : الوالد .. الذى يفرض عليه الإسلام أن يبر ابنته أولا . وأعلى صور البر أن لا يدفعها إلى سوق النخاسة سلعة رخيصة فيدنس بالطمع كرامة الإنسان !

□ ● □ الاختيار □ ● □

بين دفعة الانفعال .. وعزيمة الرجال

في تعبير كاشف لأحد المربين وقد سئل : قلت إن الزواج أصعب علاقة إنسانية .. لماذا ؟ قال المربي :

«أصعب علاقة بين رجل وامرأة هي : الزواج .

لأنها علاقة تبدأ في ظروف غير عادية . وفي درجة حرارة مرتفعة :

يحاول فيه الرجل أن يبهرها بذوقه . وأدبه وكرمه .

ثم يحكي عن بطولاته .

وفي هذا الجو العاصف يقرر الاثنان الزواج .

وبعد الزواج تنخفض الحرارة . . وتنتهي الحكايات :

فلا عاد الرجل بطلا مغوارا كريما ممتعا . . !

ولا عادت هي ست الحسن والجمال !

انتهت الرواية المحبوكة . . بألوانها وظلالها .

ثم يخرج الزوجان إلى الشارع . . حيث لا أضواء . . ولا رواية .

ثم يفاجآن بأنهما غريبان . .

«غموصان في «طنها»

إن كل ما حدث أنهما التقيا بسرعة . . وبسرعة أيضا قررا الزواج»

وهكذا أيضا : تكون نهاية علاقة لم تبدأ خطوتها الأولى من حيث أراد الإسلام .

إن آية الزواج مختومة بقوله تعالى :

﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ الرعد ـ ٣ .

والمتسرعون لا يفكرون . . إنهم شطار في التذويق والتنميق . . والتجمل

الخادع . . أما الدين . . والخلق . . فلم يجعلوه قاعدة الاختيار . .

فسقطوا فى الاختبار!

وحق لهم أن يسقطوا لأنهم كما يقول الرافعى : [illegible]

وهو «أن تحاول تنميق الحياة من حولك و تنقضها [illegible] فى قلبك»

إن ترتيب الأفكار . . ووزن العواطف [illegible] بالعلاقة الزوجية إلى حيث يريد لها الإسلام .

ولقد كان للغيارى من حكامنا موقفهم الحكيم فى هذه [illegible] يتركوها برمتها لتكون ألعوبة فى يد الذواقين [illegible]

بعث عمر – رضى الله عنه – إلى حذيفة بن [illegible] – رضى الله عنه – [illegible] المدائن – بعث إليه رسالة جاء فيها :

«. . بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل الكتاب [illegible]»

فكتب إليه حذيفة :

لا أفعل . . حتى تخبرنى أحلال أم حرام ؟!

ومأأردت بذلك ؟!

فكتب إليه عمر :

«لا . . بل حلال .

ولكن فى نساء الأ عاجم خلابة .

وإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم»

ولاحظ من فقه الموقف مايلى :

١– مسئولية الخليفة حتى فيما يظن أنه أمور شخصية .

٢– وأنه لم يكن يجهل الحكم الشرعى . . وإنما كان من وراء اقتراحه : الخوف من سرعة الانقياد لجاذبية الأعجميات .

وما يترتب على ذلك من فرض العنوسة على الصالحات من بناتنا .

وما يتوقع من وراء هذا الزواج المتسرع من تبخر العواطف .. وتبقى عواصف المشكلات تأخذ بخناق أبنائنا ..

فإذا كان المتزوج على هذا النحو واليا مسئولية .. فإن نبرة التحذير تعلو.. لما يترتب على ذلك من خلل فى جهاز الحكم ينبغى تلافيه .

٣- ولا تنس شجاعة حذيفة - رضى الله عنه - فى معارضة خليفة صارم كعمر- رضى الله عنه - .

ولكنه الاختلاف .. للحق .. وبالحق .. والذى يتوج فى نهايته بالائتلاف .

أما بعد :

فهذه توجيهات الإسلام وتلك ثمراته الطيبة .

فإذا تحدث ناس عن فشل تجربة الزواج .. عندهم ..

فإنهم يتحدثون عن تجاريبهم الشخصية معزولة عن الإسلام العظيم .

ألا إن السعادة لفى أعماقنا . فى داخلنا .. وليس هناك

فى الثوب القشيب .. والقصر المشيد.

من الأثرة إلى الإيثار

كان المتوقع من الفتى «جابر بن عبد الله» رضى الله عنه . أن يطير به قلبه ليحط هناك . . وفى دار من دور المدينة . . راغبا من «فتاة» بكر يكتمل بها دينه.

وعلى كثرة ماتحفل به الدور من ربات الخدور . .

إلا أنه اختار بالذات «سهلة بنت مسعود» الأنصارية . . وكانت ثيبا . . اختارها لتكون زوجا له . . دون الأبكار وهن مطمع الشباب من أمثاله .

وكان اختياره قطعة من عقله . . بقدر ماكان درسا فى نكران الذات . . والخروج بها من ضيق «الأنا» إلى رحابة «نحن» من الأثرة إلى الإيثار؟

ولكن ما سر هذا الاختيار ؟

يجيب عن هذا السؤال ذلك الحوار الهادف بين جابر . . وبين رسول الله ﷺ

تزوجت . . فقال لى رسول الله ﷺ :

«ما تزوجت ؟» . . فقلت :

تزوجت ثيبا . . فقال :

مالك وللعذارى ولعابها؟

وفى رواية : «هلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟».

وفى رواية «وتعضها وتعضك» .

وما كان جواب جابر إلا أن قال :

«هلك أبى وترك سبع بنات . أو تسع بنات . .

فتزوجت ثيبا . كرهت أن أجيئهن بمثلهن . .

.. ولكن امرأة تقوم عليهن وتمشطهن»[(١)]

---

(١) راجع فتح البارى ج ٩/ ١٢٢ .

وهكذا : يوسع الإسلام دائرة السرور . . ليكون البيت واحة ظليلة . .

وكما أن الإسلام يوسع دائرة الثواب . . حتى كان المنتظر للصلاة . . في صلاة . . .

فإن المتعة النفسية لا تقل أهمية عن هذه المتعة الروحية . . حين لا تنحصر في لحظة حاسمة . . قصيرة . . ثم تتلاشى . . فلابد من الملاعبة . . والتضاحك . . وما يترتب على ذلك من أنس تدوم به العشرة، وتنبسط النفس . . فإذا تصرفاتها تحت سقف البيت على غاية ما يكون السداد، إن المتعة الجسدية المحضة كتلك العاصفة الهاجمة . . والتي سوف يتلاشى ضجيجها لتسقط في لجة الدهر . .

وتبقى السعادة الهادئة . . الهانئة . . تبقى أبدا . . ذلك بأن الأمر على ماقيل:

إن المتعة المادية تميت الإنسان . . بلا ألم . . بينما المحبة تحييه بالأوجاع !!

ولكن .. لماذا البكر بالذات ؟

يجيب الخبراء بطبيعة النفوس :

١- إن في المداعبة تبسطا تسقط به الكلفة . . ومع سقوط الكلفة يكون الأنس.

٢- ليس للبكر تجربة سابقة تحملها على المقارنة بين سابق ولاحق، وما قد يترتب على ذلك من متاعب ومصاعب .

٣- ثم هي بحكم صغر سنها تكون عجينة رخوة قابلة للتشكيل والانسجام على عادات جديدة يتم بها التكيف مع الصاحب الجديد .

ومع هذا . . فقد ارتفع جابر - رضي الله عنه - . فوق هواتف نفسه ليحلق في الأفق الوضيء . . وكان في اختياره واقعيا وذكيا فلو فرض أنه تزوج بكرا . .

فهل يبقى له زواج البكر وقتا يلاعب فيه أو يضاحك ؟

إن الشجار الدائم بين الأتراب وبخاصة البنات . . سوف يعكر صفو البيت .

ومن أجل ذلك اختار السلام والانسجام بين زوجته التي صارت بحكم سنها أما لإخواته . . اللاتي سوف يتقبلن توجيهاتها بصدور رحبة . . راضية لأنها أم فلها كل الاحترام .

هـ الاحترام الذى وضعه جابر - رضى الله عنه - بحسن اختيارە فكان كما يقول الأديب:

أنا أحصد السنابل .. وأجمعها .. ثم أعطيها أغمارا للجائعين .. وإذا كانت السماء تملأ هذا السراج زيتا .. فأنا أنيره .. وأضعه فى نافذة بيتى من أجل العابرين فى ظلمة الليل .. أنا فاعل هذه الأشياء لأننى أحيا بها .. وإذا منعتنى الأيام وغلت يدى طلبت الموت .

إن فى ذلك لعبرة لشيخ ينطح الستين .. ثم يسيل لعابه راغبا فى زواج من هى فى سن حفيدته..

كيف يتحقق الانسجام بينه .. وبينها .. ثم بينها وبين أهله الذين يتميزون من الغيظ حيال متصاب مهما حاول التكلف فسوف تفضحه عينه؟

ألا إن أعظم هدية لأم أولادك أن تكرم أمهم :

تكرمها حية .. ثم تكرمها ميتة بالصبر.. أو بحسن الاختيار .. فرارا من زواج من أول نظرة .. يتبعه فرار .. أيضا.. من أول هفوة !!

□ ● □ الاختيار □ ● □
بين العقل .. والعاطفة

هذا الفتى القادم راغبا فى فتاة أحلامه .. كيف نحسن تصوره لنصدق من بعد فى الحكم له أو عليه ؟

قال المجربون :

«إذا أراد الرجل أن يزوج رجلا .. فأراد أن تجتمع له الدنيا والدين .. فليبدأ فيسأل عن الدنيا :

فإن حمدت .. سأل عن الدين .

فإن حمد .. فقد اجتمعا .

وإن لم يحمد كان فيه رد الدنيا من أجل الدين .

ولا يبدأ فيسأل عن الدين .. فإن حمد .. ثم سأل عن الدينا فلم تحمد ..

كان فيه رد الدين لأجل الدنيا» (١)

ولعل حديث " تنكح المرأة لأربع "يشير إلى هذا المعنى حيث قدم فى الذكر ما يرغب فى النكاح من أعراض الدنيا ..

والتى لا يرفضها الإسلام .. لكن عامل الدين هو الأسمى والأبقى .. وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

ولكن .. من الذي يتأمل .. ثم يوازن .. ثم يختار ؟

إن فى هذا الفتى القادم ناحية دينية .. وما ينبثق عنها من أفعال وأقوال ..

وهناك ناحية الانسجام والتوافق والتكيف . وهى الناحية العاطفية .

وهنا يبرز دور الولى ودور ابنته معا :

---

(١) الآداب الشرعية ، لابن مفلح الحنبلى .

والرجل هو الذي يتقدم بعقله ليبحث .. تساعده رجولته .. وخبرته وقدرته على أن يعي الفتى خضب ..

ولكن الفتاة وحدها هي التي تتقدم بقلبها .. ومن ورائه عقلها .. لتكون صاحبة الكلمة الأخيرة في هذا المجال ..

وبعد .. فإن دور الوالد لا يلغي دور البنت في الاختيار .. والتي يكون في حقيقة ثمرة جهود الوالد .. وإحساس البنت ..

أهمية دور البنت :

إن في البنت من هذا النيل : رقته .. ولينه .. لو مضى على سجيته ..

ولكنها لو مكنت – تحت إشراف الأسرة – من أن تبدي رأيها ربما نشأت أسرة كنهر النيل تؤدي الأخضر سماحة وعطاء ..

أما إذا وضعت أمامها السدود .. كانت ذلك الجبل الصامد العنيد !.

وإذا كنا نقول للفتاة : تمهلي .. ولا تتسرعي ..

لا تتركي نهر الحياة فيك يمضي مندفعا بلا ضوابط .. حتى لا يصب في النهاية .. في بحر أجاج .. فيصير ملحا بعدما كان عذبا فراتا ..

إذا كنا نناشد البنت كذلك .. فإننا نقول للآباء المتزمتين وبنفس القوة :

تأملوا مشاهد الطبيعة من حولكم :

سوف تجدون الفتاة تجرى بين الحقول .. فإذا اصطدمت بالسد المانع ..
ماذا يحدث ؟

سوف يتحول الماء بالضغط إلى الجانبين ..

ثم .. يأسن .. يتغير .. ليكون في النهاية بركة منتنة ..

وهذه الفتاة .. كتلك الفتاة : تتحول بالضغط إلى مآل لا تحمد عقباه .

صور .. من الاختيار :

ومن صور الاختيار العاقل : ما روى من أن أحمد بن حنبل ذهب ليخطب

إحدى أختين :

أما إحداهما فجميلة . . وأما الثانية فعوراء . . لكنها عاقلة . .

وإذ يناوشه الجمال الأخاذ من قريب . . فإن صوت العقل يناديه ليتقدم فيخطب العوراء العاقلة :

أ- جبرا لخاطرها .

ب - وسوف تظل أختها محط الأنظار بجمالها .

جـ - ثم ليتفرغ لكتبه وأبحاثه . .

وقبل هذا . . فإن سحر الجمال سوف يخبو يوما . . ثم تنجلى المعركة عن لا شيء . .

بينما يبقى عقل الزوجة . . يعقلها . . يضبط خطوها . . وبينما تساقط الجميلات على جانبى الطريق . تظل هى مع رفيقها على العهد الذى يظل وثيقا .

نذكر هذا . . ثم نذكر بالعاطفة الغلابة عندما يترك لها اتخاذ القرار فى مسألة حياة أو موت . .

أما بعد

فقد قالوا :

«إن المرأة فى عاطفتها القوية كالحامض المركز : فيه خطر كبير .

والولى : كالماء الذى يخفف من تركيزه فيجعله صالحا لتوليد الكهرباء»

ألا وإن كل واحد من عنصرى الماء . . لو انفرد . . ربما كان مضرا . .

لكنهما بالامتزاج صارا عماد الحياة .

❑ ● ❑

دور الولي .. في اختيار شريك العمر

يقول الحق سبحانه :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١)

سئل واحد من الحكماء : كيف تبنون بلادكم ؟ فقال

نبنى . . من يبنيها !

إنها خطوة إلى الوراء . . تجيء القفزة بعدها محكمة :

وتعنى : بناء الفرد أولا . . لنضمن سلامة البناء ثانيا .

وقل مثل ذلك . . ونحن نحاول بناء الأسرة المسلمة :

فالخطوة الأولى هى : حسن الاختيار:

وإن شئت قلت : الدقة فى الاختيار . .

هذا الاختيار الدقيق . . وصولا إلى اختيار الرفيق !

وتعرض هذه الدقة طبيعة الأسرة فى الإسلام :

١- فهى علاقة أبدية تتخطى حدود الحياة الدنيا إلى دار هى الحيوان :

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢)

٢- ثم [illegible] الأسرة من الأسر . وهو القوة .

٣- وكل [illegible] من كل علاقة يمكن أن تنتهى . وبلا صوت مسموع . . أما العلاقة الأسرية [illegible] سقوطها يحدث دويا . . يردع كل من يتصل بها : من الوالدين [illegible] والأعمام [illegible] والأخوال [illegible] وتأخذ [illegible] نصيبه الأوفى من هذا الدمار!

(١) الروم ٢١. (٢) غافر ٨.

من بلاغة الآية الكريمة :

تشير الآية الكريمة إلى أن فى الزواج أسرارا . . وآيات لا يعقلها إلا الذين يتفكرون . .

ولا ينتفع بهذه الآيات إلا الذين اختاروا . . فأحسنوا الاختيار :

ولا تقول الآية الكريمة : للمفكرين . .

وإنما تقول : يتفكرون . .

فلسنا - بشأن الزواج - فى حاجة إلى «مفكرين» فلن تحل المشكلة فى أروقة الفلاسفة . . وإنما هو :

العقل . . الذى يمضى . . على هدى الفطرة الصافية . . الطاهرة .

فإذا عرفنا أن «القوم» هم الرجال كما قالت العرب :

«أقوم آل حصن أم نساء؟»

إذا عرفنا ذلك . . تصورنا دور الولى . . ولى الفتاة بارزا ومؤثرا . . فى عملية الاختيار . .

لقد وضعت السنة المطهرة بين يديه مجموعة من البدائل . . حتى يختار فارس الأحلام :

هذه البدائل المنتهية باختيار ذات الدين وصولا إلى أسرة مستقرة .

ويعنى ذلك : أن الولى . . يمضى بخبرته . . بتجربته . . يبحث عن فص الماس فى تل من الحصى . .

ولا يعنى ذلك إلغاء شخصية البنت . . ووأد آمالها البازغة . .

فلها دورها الفاعل . . ولها رأيها المرموق . .

بيد أن الولى : الوالد . . العم . . الخال . . الأخ الأكبر . . يمضى أمامها . . وخبرته لحسابها :

إن اللحظة فى عمره تساوى أعواما . .

فأيام عمره حفل بالخيرات والخبرات

موفور النضج . . غزير العصير . .

ومع هذا . . وفوق هذا . . فإخلاصه للقضية فوق الشك والتهم . . ومن ورائه . . وفي ظله . . ابنته التي تحمل في صدرها شجرة أمانيها مخضلة الغصون . . فإذا بمرمى آمالها قريب . . داني القطوف . . .

قلوب .. عاقلة:

إن فتاة تمضي وراء أبيها . . لهي فتاة لها قلب . . ولكنه قلب يعقل . . يفكر . . ولا ينطلق على غير هدى . . حتى يصطدم بالجدار في شارع مسدود . .

بل إن كل أفراد الأسرة يفكرون لها . .

يفكرون . أعني مستمرون في البحث . . يجددون المحاولة حتى يصلوا إلى قرار يتم به القرار . .

وإنهم لواصلون إلى ما يؤملون . . ماداموا سائرين على نهج الإسلام . .

راغبين فيما يحقق مقصود الزواج :

سكنا . . تسكن به الجوارح

ومودة . . تجمع القلوب . .

ورحمة . . تنشر ظلها . . فإذا الحياة أجمل ما تكون . .

بل أكمل ما تكون .

إن الفتى قد يرى المال والجمال والحب . . لكن هناك في الأعماق مايراه . . وقد ترى الفتاة : العَرض . . لا الجوهر . لا العِرض . .

ترى الطول والعُرض . . وليس العمق . .

وقد يستهويها الوجه . . والعينان . . لكنك تريد أن تتزوج «كل» شريكك . . بما فيه . . عقله . . وقلبه الذى لم تسبرغورهما . .

لكن الولى بحنكته . . وغيرته . . وخبرته . . يرى ما لا نرى . . فلنسلم له قيادنا . . لنصل معه . . وبه إلى المنهل المورود .

من فقة ابن عمر

من طريف مايروى :[١]

أن عروة بن الزبير خطب من ابن عمر- رضى الله عنهما - . . خطب ابنته «سودة»

وهما يطوفان حول البيت . .

فسكت ابن عمر .

فلما عادا إلى المدينة ذهب عروة إلى ابن عمر . . فقال له عبد الله :

كنت قد ذكرت «سودة» ألك بها حاجة ؟

قال عروة : ماكنت أحوج إلى ذلك من الآن . .

قال ابن عمر معتذرا عن سكوته عند الطواف : .

كنا نتراءى الله عز وجل بين أعيننا . . فذلك هو الذى منعنى . . وكنت قادرا على ذلك فى مكان آخر . . ثم دعا ولده سالما فزوجاه

ولقد كان من الممكن أن يثور جدل بين الاثنين لأن التوقيت لم يكن مناسبا . .

من حيث كانا فى ضيافة الله تعالى وفى بيته الحرام . . ولم يكن من المناسب إثارة موضوع الخطبة عندئذ .

لكن الوالد الحريص علي سعادة ابنته يمسك بالخاطب المناسب قبل أن يذهب ولا يعود . . غافرا له تسرعه . . بل لهفته التى لم يمنعه من إبدائها أن كان يطوف بالبيت .

وأين هذا مما يتورط فيه المهرولون المتسرعون :

هؤلاء الذين يحرمون أولادهم من القرار . . حين يتسرعون فى الاختيار . .

وما أقرب استجابتهم لأول طارق باب القلب . .

(١) القصة فى الحلية . . لأبى نعيم، وفى الطبقات لابن سعد .

القلب الذى يفتح بابه منتشيا [illegible] ..

إنهم لا يعرفون الانتظار ..

وإن انتظروا فعلى أحر من الجمر ..

فإذا تم الزواج .. بدأت فى نفس اللحظة رياح الخماسين تهب على العش الهش .. والذى يطير عندئذ هباء .

رأى البنت :

ولم تكن البنت بمعزل عن قضية هى الطرف المهم فيها :

فكان لها رأيها .. واحترامها :

روى أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - :

«أن رجلا أتى بابنته النبى ﷺ فقال :

إن ابنتى هذه أبت أن تتزوج . فقال لها رسول ﷺ « **أطيعى أباك** » .

فقالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرنى :

ما حق الزوج على زوجته ؟

فحدثها النبى ﷺ :

« **أنه لو كانت به قرحة . فعالجتها بفمها . ما زادت عن واجبها** » .

قالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبدا !!

فقال النبى لأبيها : « **لا تنكحوهن إلا بإذنهن** »[1]

ونلاحظ فى هذا الموقف :

نلاحظ والدا حريصا على مستقبل ابنته ..

ولو كان الأمر متعلقا بابنه لما طال الجدل حول رغبته التى يمكن بحكم رجولته أن يتحمل وحده مسئولياتها ..

---

(١) كنز العمال ، رقم ٤٤٧٨٨ .

ولكن الاختيار للأنثى مسئولية التجربة أولا . . تجربة الوالد .

ويبدو أن جدلا عاصفا تم تحت سقف البيت . . وأن كل الأطراف أدلت بدلوها . .

فلما عجزت الأسرة عن إقناع البنت بالزواج . . كان لابد من رفع القضية إلى الرائد الذى لا يكذب أهله .

لقد كانت فى قلب الفتاة رغبة في الزواج . . فطرة . . لا تكلفا .

وهذا حقها . .

ولكن واجبها يفرض عليها أن تتريث فى أمر يتعلق بمستقبلها كله . . وعلى امتداده . .

إنها تعيش فى وادٍ . . والأسرة كلها فى وادٍ :

هى مسلمة ابتداء بضرورة الزواج . .

وقبل هذا . . كيف ينجح هذا الزواج؟ . . وهذا هو الأهم . .

إن الدخول فى تجربة لم تنضج . . والتسرع فى القبول قبل أن تتكشف الجواهر المخبوءة . . عدوان على هذه العلاقة الدائمة . .

وتقصير فى حق ذرية قد تستقبل حياتها فى جو غائم عكر . .

ومن ثم سألت عن واجبات الزوجة تجاه زوجها أولا . . حتى إذا تحسست قدراتها فاقتنعت بقدرتها على الوفاء بحق الزوج . . قبلت الفكرة . .

وإلا فلا !

فلما تبين لها عجزها عن الوفاء بحق الزوج والذى يصل إلى حد أنها لو لعقة جراحه ما وفته حقه . . لما علمت ذلك رفضت فكرة الزواج . . أبدا . . مقسمة على ذلك بأغلظ الإيمان .

وكان من حكمة الرسول ﷺ أن يعلن ضرورة النظر بالاعتبار إلى رأى الفتاة قبل الدخول فى مشروع غير مضمون النجاح .

ضوابط الاختيار في عقول المفكرين

احتل اختيار الزوجة مساحات كبيرة من عقول المفكرين المسلمين . .

ذلك بأن عهد الزواج عهد أبدى . . والإخفاق فى الحياة الزوجية خسارة فادحة ينبغى تلافيها بحسن الاختيار ابتداء . .

وهذا هو ابن الجوزى رحمه الله . . يدلنا على طريق الوصول : إلى ما نريد من وراء الزواج وهو : الولد الصالح : قال [1]:

من أراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح، إن كان زوجة فلينظر إليها، فإذا وقعت فى نفسه فليتزوجها، ولينظر فى كيفية وقوعها فى نفسه، فإن علامة تعلق حبها بالقلب ألا يصرف الطرف عنه، فإذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضى النظرة، فهذا الغاية .

ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ الأغراض

وإن كان جارية تشترى فلينظر إليها أبلغ من ذلك النظر، ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه، ثم ليرى ذلك منها، فإن الحسن فى الفم والعينين .

وقد نص أحمد : على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التى يريد نكاحها ما هو عورة، يشير إلى ما يزيد على الوجه .

ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو شراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه، فإنه لا يخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد، وتوقانها لأجل الحب، فإذا رأى قلق الحب أقدم، فإنه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقى قال : مكتوب فى التوراة : كل تزويج على غير هوى حسرة وندامة إلى يوم القيامة .

ثم ينبغى للمتخير أن يتفرس الأخلاق فإنها من الخفى. وإن الصورة إذا خلت

(١) صيد الخاطر ص ٤٣-٤٤-٤٥ .

من المعنى كانت كخضراء الدمن .

ونجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام بما حصلت من الرغبات أصل عظيم ، يوجب إقبال القلب على المهمات .

ومن فرغ من المهمات العارضة أقبل على المهمات الأصلية .

ولهذا جاء في الحديث : لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان .

وإذا وضع العشاء وحضرت العشاء فابدءوا بالعشاء .

فمن قدر على امرأة صالحة فى الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتها ، ولتجتهد هى فى مراضيه من غير قرب يمل ، ولا بعد ينسى .

ولتقدم على التصنع ، له يحصل الغرضان منها ، الولد وقضاء الوطر .

ومع الاحتراز الذى أوصيت به ، تدوم الصحبة ، ويحصل الغناء بها عن غيرها .

فإن قدر على الاستكثار فأضاف إليها سواها عالما أنه بذلك يبلغ الغرض الذى يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله .

فإن خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذى قد اهتممنا بجمع همته ، أو خاف وجود مستحسنة تشغل قلبه عن ذكر الآخرة [1] ، أو تطلب منه ما يوجب خروجه عن الورع ، فحسبه واحدة .

ويدخل فيما أوصيت به أنه يبعد في المستحسنات العفاف . فليبالغ الواجد لهن في حفظهن وسترهن .

فإن وجد مالا يرضيه عجل الاستبدال ، فإنه سبب السلو ، وإن قدر على الاقتصار فإن الاقتصار على الواحدة أولى ، فإن كانت على الغرض قنع ، وإن لم تكن استبدال ، ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجابة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكماله .

ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسرارى ، فإنهن أقل غيرة ، والاستظراف لهن

(١) أين الآخرة ؟ !! لقد شغلت الناس بانتقاء المرأة .

أمكن من استظراف الزوجات .

وقد كان جماعة يمكنهم الجمع، وكان النساء يصبرن، فكان لداود - ﷺ - مائة امرأة، ولسليمان - ﷺ - ألف امرأة، وقد علم حال نبينا - ﷺ - وأصحابه، وكان لأمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - أربع حرائر، وسبع عشرة سرية، وزوج ابنه الحسن - رضي الله عنه - بنحو من أربعمائة إلى غير هذا مما يطول ذكره [١] .

فافهم ما أشرت إليه، تفز به إن شاء الله تعالى .

❑ ● ❑

(١) صيد الخاطر ص ٤٣- ٤٤- ٤٥ .

أسوة في اختيار الزوجة

كانت لابن الجوزى تجربته التى خاضها بنجاح . . .

تلك التجربة التى ترويها على لسان صاحبها . الذى هو أقدر علي التعبير عنها . . نقدمها إلى شباب اليوم كصفحة من تراث عظيم ينبغى أن نستصحبه اليوم:

يقول : [كنت أسمع على بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : والله لقد بكيت البارحة من يد نفسى .

فبقيت أنا أتفكر وأقول : أى شيء قد فعلت نفس هذا حتى يبكى ؟

هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات . وقد بلغنى أنه تزوج فى السر بجملة من النساء، ولا يطعم إلا الغاية من الدجاج والحلوى .

وله الدخل الكثير، والمال الوافر، والجاه العريض والأفضال على الناس .

وقد حصل طرقًا من العلم، واستعبد كثيرًا من العلماء بمعروفه، وراحته دائمة الندى . فما الذى يبكيه ؟

فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف عند حد بل تروم من اللذات مالا منتهى له، وكلما حصل له غرض برد عندها وطلبت سواه، فيفنى العمر، ويضعف البدن، ويقع النقص، ويرق الجاه، ولا يحصل المراد .

وليس فى الدنيا أبله ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا، وليس فى الدنيا على الحقيقة لذة، إنما هى راحة من مؤلم .

فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية فمال إليها ومالت إليه، وعلم سترها ودينها، أن يعقد الخنصر علي صحبتها .

وأكثر أسباب دوام محبتها ألا يطلق بصره، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه فى غيرها، فإن الطمع فى الجديد ينغص الخلق وينقص المخالطة، ويستر عيوب الخارج، فتميل النفس إلى المشاهد الغريبة، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب، كما قال الشاعر:

والمرء ما دام ذا عين يقلبها

في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته

لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

ثم تصير الثانية كالأولى، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر، بل الغض عن المشتهيات، ييأس النفوس من طلب المستحسنات. يطيب العيش مع المعاشر.

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر في طرق الهوى وهلك على البارد. وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل، أو في العار الحاضر، فإن كثيرًا من المستحسنات لسن بصينات ولا يفي التمتع بهن بالعار الحاصل .

ومنهن المبذرات في المال، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كعابد صنم .

وأبله البله الشيخ الذى يطلب صبية . . . ولعمرى إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا، كما قال القائل :

فقلت بنفسي: النساء الصغار

ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع، فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع، والشيخ لا يقدر .

ولا ينبغى أن يغير بشهوته الجماع، فإن شهوته كالفجر الكاذب .

وقد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتًا .

وكان في المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام، فدخلت عليه زوجته فوطأها فانقلب عنها ميتًا .

فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم، والمنى. فإذا فرغا ولم تجد ما تعتمد عليه ذهبت .

وإن قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهى لا تقنع فتصير كالعدو له .

فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت علي قتله، خصوصا الجوارى اللواتى أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك، ففيهن قسوة القلب .

وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء، فإن اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها، وليتمم نقصه عندها تارة بالإنفاق، وتارة بحسن الخلق .

وليزد في تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات، وليكثر من ذكر القيامة وذم الدنيا، وليعرض بذكر محبة العرب، فإنهم كانوا يعشقون ولا يرون وطء المعشوق، كما قال قائلهم :

إنما الحب قبلة
وغمز كف وعضد
إنما العشق هكذا
إن نكح الحب فسد

فإن قدر أن يشغلها بحمل، أو ولد عرقلها به، فاستبقى قوته في مدة اشتغالها بذلك .

فإن وطئ فليصبر عن الإنزال حفظًا لقوته وقضاء لحقها .

وقد قيل لبشر : لم لم تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغر مسلمة، وقد قال الله عزوجل : ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف** ﴾ ؟[1]

والمسكين من دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول، ورأى حبة الفخ فبادر طالبًا لها ناسيًا تعرقل الجناح والذبح .

ومجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق، ويأس النفس عن التحصيل، قنوعا بالحاصل، خصوصًا من قد علت سنه، وعلم أن الصبية عدو له متمنية هلاكه، وهو يربيها لغيره .

وفي بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات» .

---

(١) جزء من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

هذا بر الآباء فأين بر الأبناء ؟

كتب .. زياد بن أبيه .. إلى سعيد بن العاص يخطب ابنته : وكان زيد .. واليا .

وقد ساق إلى سعيد الهدايا الكثيرة .

فماذا فعل سعيد ؟

أولا : بادر بتوزيع الهدايا على الناس .

وثانيًا : وقع أسفل الكتاب .. أجمل وأكمل تأشيرة .. وهى :

﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى** ﴾[1] .

ربما انقسم الناس فريقين إزاء موقف سعيد : فقال بعضهم :

لقد رفض السلطان .. والغنى .. وقد أتياه راغمين !

ثم حرم نفسه .. وابنته من دنيا عريضة طالما اشتهاها الطامعون ..

ولكن يبقى موقف الوالد هنا قيمة جديرة بالتأمل :

إنه يحب ابنته بطبيعة الحال ..

ومن حبه لها أن يحسن اختيار شريكها ..

وربما أغر البنت بريق الذهب .. وكثرة النشب .. على الأقل لتباهى غيرها من الزميلات ..

ولكنها النظرة المبتسرة .. القريبة .. والتى لا يمكنها الاستغراق فى المشهد من تصوره ثم الحكم عليه :

ولابد لكى ترى .. من البعد البؤرى !

---

[1] سورة العلق : (٦ ، ٧).

ومن ثم قالوا : شدة القرب .. مفسدة للصداقة !

إن الهدايا الوافدة يعشو إلى بريقها المتسرعون ..

ويترتب على ذلك :

أ - عدم التمكن من استبطانها وملاحظتها .

ب- ثم نفقد الشعور بما تئول إليه فى آتى الزمان .

من أجل ذلك قالوا : كن كالشمس : تغرب .. ثم تشرق من جديد ..

وكذلك كان الوالد الذى قلب الأمور .. على وجوهها : نائيًا عن جاذبيتها ..

ذلك بأن الانبهار بمتاع الدنيا مانع من رؤية الأبعاد المترامية ..

وهذا ما يتكفل به الوالد .. أو الولى .. والذى يرسل بصيرته إلى بعيد .. ليرى ما يجره الغنى من ويلات ..

وكيف يتحول الغنى من " مقتض" للزواج إلى هادم له .. بعدما يقضى الرجل وطره !

إن الوالد يرمق : الأعمام .. والأخوال .. والماضى القريب والبعيد .. وجذور الأسرة التى ينطلق منها الخاطب ..

ومن عجب أن تسألك طالبة جامعية : عن مشروعية رغبتها فى زواج يتم على سنة الله ورسوله .. ولكن فى غياب والدها .

وقلت على الفور :

إذا كان آدم يحرث .. وحواء تغزل .. فمن الذى يربى البنت إذن ؟

وهذه واحدة منهن ينفلت عيارها فى غيبة الأم المشغولة .. والوالد الذى تخلى! .. فكان هذا السؤال !

وقلت للفتاة :

تريدين أن تختارى من السنة ما وافق هواك .

ولو دمر أباك ؟!!

تيب من سنة بر الوالد بما يحفظ كرامته .. ويصون سمعته .. بالتخلى عن هذه النزوة العاطفية التى تجعل سمعتك .. وسمعته مضغة فى الأفواه ؟

ألا ما أكثر الذين تلهيهم الرغائب عن العواقب .. وسوف يستيقظون يوما على دقت حقيقة المرة .. حين يلاقون جزاء ما قدمت أيديهم .. من جنس ما قدمت أيديهم .. جزاء وفاقا ..

أين قضية بر الوالدين فى خضم هذه الأهواء الجامحة ؟

وماذا لو مضت .. البنت .. على حل شعرها ؟..

فلنستمع إلى هذه الواقعة .. تبصرة وذكرى..

بنت .. أعلنت احتقارها لأبيها .. متبرئة من الانتساب إليه .. ماذا حدث لها؟

يتورط زوجها فى جريمة أخلاقية إلى الحد الذى يخجل أولادها من الانتساب إليه.

والبنت التى اغترت بمن اختارته زوجا لها معلنة أنها ليست فى حاجة إلى أبيها: يطلقها زوجها .. ثم يعود إليها معاش أبيها - الذى مات بسببها - فينشر عليها مظلته ميتا .. كما نشرها حيا!

إنها نفس الكأس المرة .. لابد أن تتجرعها ..

وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ (1).

نفس ماكنتم تعملون ..

﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (2).

❑ ● ❑

---

(١) سورة العنكبوت : (٥٥).

(٢) سورة النحل : (٣٣).

عندما يكون عقل المرأة فوق قلبها

روى مسلم [١] عن فاطمة بنت قيس :

أنها عندما خلت من عدتها بعد طلاقها .. ذكرت للنبي - ﷺ - أن معاوية ابن أبي سفيان . وأبا جهم بن هشام . خطباها .

فقال ﷺ :

«أما أبو جهم : فلا يضع عصاه عن عاتقه - ضراب للنساء - وأما معاوية: فصعلوك . لا مال له

انكحي أسامة بن زيد

فنكحته . فجعل الله في ذلك خيرا . واغتبطت به».

يقولون : إنك لو أعطيت الأحمق خنجرا .. صرت قاتلا .

ذلك بأنك وضعت السيف في غير موضعه .. تحت رحمة الطيش .. ومع الطيش لا يصفو العيش !

أما إذا كان السيف في يد العاقل فإنه سوف يفكر ويدبر : فلن يستعمل السيف .. متى أغنى السوط ..

بل لن يستعمل السوط .. متى أغنت العصا ..

ثم لن يستعمل حتى العصا .. ما دام يملك الكلمة الهادية التي تنقذ الموقف .. بلا دماء ولا ضحايا !

ومن العاقلات الحكيمات : فاطمة بنت قيس :

إننا ندرك حساسية امرأة مطلقة .. فارقها عائلها .. والذي ربما تزوج وفي نفس اليوم بأخرى ..

---

(١) ج١٠/ ٩٧ .

وقد صار طلاقها حديث القرية التي قد لاتدقق مع تهوى الجامح .. والذى يتهم بلا ضابط ولا مقياس ..

ثم إن لها زميلات ناجحات .. موفقات في حياتهن

ولها كذلك حاسدات كان طلاقها أمنية لهن تحققت ..

وكان المتوقع أن تـغيظ مطلقها .. وأن تسكت هذه الألسنة التى تـفسر المواقف وتحلل الأحداث على مزاجها..

على الأقل .. لتسكت هتاف الغـريزة في كيانها .. فقد جربت وعرفت .. ولابد من ملء هذا الفراغ!؟

ومع أن الخاطبين كثير .. ثم هم من علية القوم .. لكنها لاتنفرد بالقرار..

وكان ذهابها إلى النبى ﷺ .. وهو الرائد الذى لايكذب أهله .. تذهب إليه لينقذها بحكمتـه من هذا التمزق الذى تعيشـه .. فى الوقت الذى كانت كل العوامل الآنفة كافية لحملها على التسرع في اتخاذ القرار..

وإذا كان المستشار مؤتمنا .. فقد كان ﷺ قدوة المستشارين الأمناء .. عندما حلل لها شخصية كل من الخاطبين .. لتختـار لنفسها مايحلو .. فهى طرف القضية المعروضة . والتى لاتتم إلا برضاها ..

ولما اعتذرت عن كلا الخاطبين .. زوجها ﷺ من يملأ الفراغ الناشئ بالطلاق .. وكان اختيـارا موفقا شهدت هي به فى قـولها : « فجعل الله فى ذلك خـيـرا. واغتبطت به ».

ولم تكن المرأة المطلقة وحدها عند حسن الظن بها .. فقد كانت « البنت » كذلك حكيمة بل وعظيمة فى اختيارها :

تقدم عثمان - رضى الله عنه - لخطبة «نائلة» وكانت صغيرة .. وهو كبير .. ولنتأمل مـراسم خطبة غاب فـيها الولى .. وتحمـلت الصغيرة مـسئوليـتها بشجـاعة وحكمة :

قال لها عثمان - رضى الله عنه - :

لاتكرهي ما ترين من الشيب .. فإن وراءه ما تحبين !

فقالت : إني من نسوة خير أزواجهن الكهول !

فقال لها : إني قد جاوزت حد الكهول .. إلى الشيخوخة !

فقالت : أفنيت عمرك في خير مايفنى فيه العمر .[1]

ولاحظ كيف لم يقف فارق السن مانعا من الزواج..

لقد خاضت البنت العاقلة معركتها بعقلها .. ومن ورائه قلبها .. فحققت بالحكمة أعز أمانيها ..

وليت شعري :

لقد جاء الخطيب .. في وضح النهار .. في نقطة الضوء ..

وليس هناك في السراديب ولا في الشوارع الخلفية ..

ثم كان صريحا وهو يتحدث عن نفسه بصدق وأمانة ..

فتم الزواج على سنة الله تعالى .. وسنة رسوله .

أجل .. تم الزواج دون أن نرى الولي هنا ..

لقد ربى الولي ابنته على العفاف .. والشرف .. والحكمة..

فجنى ثمار تربيته على هذا النحو الذي يسعده بل ويسعد المجتمع معه بفتاة أثبتت شخصيتها بحسن اختيارها ..

فاتسعت رقعة السرور .. حين حكمت عقلها .. فعقل فيها نوازع الشهوة .. فاتخذت قرارها .. الذي قرت به بلابل أفكارها .. والتي استقر بها في النهاية على ربوة ذات قرار ومعين.

❑ ● ❑

(١) محاضرات الأدباء للأصفهاني ج ١/ ١٠ .

عندما يكون الحياء هو الحياة

عن ابن عمر - رضى الله عنه - : أن النبي ﷺ قال :

« إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء ..

فإذا نزع منه الحياء .. لم تلقه إلا مقيتا ممقتا [مبغوضا أشد البغض]

فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا .. نزعت منه الأمانة .

فإذا نزعت منه الأمانة .. لم تلقه إلا خائنا مخونا [مشهورا بالخيانة]

فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونا .. نزعت منه الرحمة ..

فإذا نزعت منه الرحمة .. لم تلقه إلا رجيما ملعنا [مطرودا ملعونا]

فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا .. نزعت منه ربقة الإسلام [قيد الإسلام]» .[1]

وهكذا : يظل الحياء إكسير هذه الحياة .. ذلك بأنه القيمة التي لابد منها .. في زمن غاض فيه معين الحياء !

زمنا .. وفي صبانا .. كان البيت يضج بالصياح .. واللعب المباح ..

وفجأة يخيم السكون .. ويتوقف اللعب .. لأن رب البيت قد حضر ..

إنه الحياء الذي كان سمة البيت .. فكان الحياء له سياج حارس .

ثم ظل له الأثر حتى إذا شب يحفظ عقبيه عند سنين الخضر .

وعلى قارعة الطريق .. فإذا رحت تراجعهم .. سخروا منك !!

ولكن .. كيف هوى الإنسان من قمته إلى هذا المنحدر السحيق؟ ...

ذلك ما يصوره الحديث الشريف ..

يقول الشيخ الغزالي [2]: [وهو ترتيب دقيق .. في وصفه لأمراض النفوس وتتبعه لأطوارها. وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة .. إلى أخرى أشد نكرا :

---

(١) سنن ابن ماجه ج٢/١٣٤٧ - باب الفتن.   (٢) خلق المسلم

فإن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه . ولم يتهيب على عمله حسابا . ولم يخش في سلوكه لومة لائم .. مد يد الأذى للناس .

وطغى على كل مايقع في سلطانه.

ومثل هذا الشخص الشرس .. لن يجد قلبا يعطف عليه . بل إنه يغرس الضغائن في النفوس وينميها.

وأي حب لامرئ جريء على الله وعلى الناس ؟ لايرده عن الآثام حياء؟

فإذا صار الشخص بهذه المثابة .. لم يؤتمن على شيء قط .

إذ كيف يؤتمن على أموال لايخجل من أكلها، أو على أعراض لايستحى من فضحها، أو على موعد لايهمه أن يخلفه ؟

أو على واجب لايهمه أن يفرط فيه .. أو على بضاعة لايتنزه عن الغش فيها؟

فإذا فقد الشخص حياءه .. وفقد أمانته .. أصبح وحشاً كاسرا.

ينطلق معربدا وراء شهواته . ثم يدوس في سبيلها أزكى العواطف:

فهو يغتال أموال الفقراء غير شاعر نحوهم برقة.

وينظر إلى آلام المنكوبين . فلايهتز فؤاده بشفقة :

إن أثرته الجامحة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة .. فهو لايعرف إلا مايغويه .. وما يغريه.

ويوم يبلغ امرؤ هذا الحضيض فقد أفلت من قيد الدين . وانخلع من ربقة الإسلام !

إن الحياء .. هو جوهر الحياة ..

وإذا لم يأمر به الدين .. فإنه فطرة الراشدين :

يقول ابن القيم :

هب البعث لم تأتنا رسله

وجاحمة النار لم تضرم

ألــيس من الــواجب المســـــــــتحق

حـــــيـــــاء العـــــبـــــد من نعمه ؟!!

إن الحديث الشـريف نذير مدمـدم .. يكد يسمع حـركة سـقوط النفس في أسفل .. من قمة الحياء ..

إلى خلع ربقة الإسـلام .. وسحب الجنسية الإسلامية ليصيـر المرؤ في غياب الحياء .. بلا هوية !

ألا إن الحياء ركيزة البناء الأخلاقي للأمة .. وهو نسيجها في رأى الفاقهين:

فإذا ذهب الحياء .. قال له الصلاح : خذني معك !

فمن لم يستح مما يقبح شرعا .. فهو فاسق.

ومن لم يستح مما يقبح عقلا .. فهو مجنون.

ومن لم يستح مما يقبح عرفا .. فهو أبله.

ولك أن تتصور مجتمعا هذه لبناته :

إنه مجتمع : فاسق .. أبله .. مجنون !

وإذا لم تستح فاصنع ماشئت .. وافعل ماشئت [1] ..

قال ابن حبان :

[إن المرأ إذا اشتد حياؤه صان عرضه . ودفن مساويه . ونشر محاسنه.

ومن ذهب حـيـاؤه : ذهب سـروره . ومن ذهب سـروره . هان على الناس ومقت.

ومن مقت أوذى . ومن أوذى حزن . ومن حزن فقد عقله]

أما بعد : فقد قالوا :

[إذا رأيت الرجل قليل الحياء .. فاعلم أنه مدخول في نسبه]

❑ ● ❑

(١) محاضرات الأدباء للأصفهاني ج١/١.

آباء على مستوى المسئولية

قد يكون الخاطب فتى قوى الأسر . . جميل السمت . . موفور الشباب . .

وقد تكون المخطوبة عجوزا شمطاء . . يسعدها أن يكون لها صاحبا ومع هذا ترفضه . .

ترفضه . . مدفوعة بإباء يستعلى على بوارق الدنيا . .

لماذا؟

لأن الخاطب لم تحركه إليها رغبة أصيلة . . وإنما هى الأنانية الراغبة فى حب الظهور :

تقدم المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - لخطبة هند بنت النعمان . . وعلى الرغم من نفاسة الصيد . . وإلحاح الحاجة لكنها رفضته قائلة له : لو علمت أن فى خصلة من جمال أو شباب رغبتك فى . . **لأجبتك !**

ولكنك رغبت فى أن تقول فى المواسم . . وعلى الملأ :

ملكت مملكة النعمان بن المنذر . . ونكحت ابنته!!

فبحق معبودك . . هذا أردت؟!!

قال : إى والله!!

فقالت: إذن . . لاسبيل إلى هذا الزواج!!

لقد تجاوزت المرأة العرض . . حماية للعِرض!

ورفضت العرض المغرى . . لأنه لم يؤسس على معنى كريم . .

وأبت أن يقوم عش هزيل على شفا جرف هار . .

لقد وازنت بين متعة وقتية . . تشتعل ساعة من نهار . . ثم تنطفئ مخلفة من ورائها رائحة الرماد . . وبين سمعة العائلة . . وشرف الوالد . . فلم تتردد فى اختيار الهدى . . رافضة الهوى.

وسقى [illegible] كانت [illegible] فيه [illegible] .. كأنهن بيض مكنون :

وكن كما قيل

حماهن آباء خير [illegible] [illegible] .. فداء لهن..

فداء لبنت:

بيضاء كالثلج نقية [illegible] [illegible] ..

لا تراها عريتة [illegible] فقط"

ولقد أفرزت هذه البيئة [illegible] مرآة [illegible] تحدثها.

وحتى لو غلبتها [illegible] فإن [illegible] من ورائها يشكل «مانعة صواعق» يسدد خطاها . [illegible] على سواء الصراط:

ونذكر هنا ميمون بن مهران التابعي الجليل : لقد كانت له فلسفته التى ينطلق منها فى تزويج بناته:

جاء رجل يخطب ابنته . فقال له الوالد:

لا أرضاها لك؟!

فلما تعجب الفتى متسائلا : ولماذا ؟ قال له ميمون:

لأنها تحب الحلى والحلل!

ورد الفتى مبتهجا:

فعندى من الحلى والحلل ما يكفيها ويرضيها.

وكانت المفاجأة أن قال له ميمون :

ولهذا لا أزوجها لك..

وهكذا صار المقتضى للزواج فى ذهن الفتى .. هو نفسه المانع من الزواج فى تقدير الوالد الغيور!

الغيور على مستقبل بنت مشغولة بالدنيا .. والتى سوف ترهق زوجها بحاجاتها..

وقد لاتغطى إمكاناته حاجاتها . . فيعتل مزاج البيت.

وأذكر أن صديقا عرض على صديقه أن يزوجه أخته . .

وكان من مسوغات العرض أنها تملك من أجهزة إعداد الطعام ما يناهز العشرين ألفا.

ولكن الصديق يرفض العرض بأدب . . مقدرا فى نفسه مايمكن أن يسفر عنه الغد من مشكلات مع فتاة نشأت فى بحبوحة النعيم . . قد تفقد فى مرحلة من مراحل الطريق جهاز المناعة ضد تقلبات الأيام .

من فصوص الحكم:

ولقد كانت وصايا الحكماء تواكب الراغبين فى الزواج تبصرة لهم وذكرى: ومن أقوالهم:

عليكم بمن تربت فى النعيم . . ثم أصابتها فاقة.

فأثر فيها الغنى . . وأدبها الفقر.

فتوازنت نفسها . واعتدل سلوكها.

لقد رباها الغنى السابق على خلال العزة . .

والاعتداد بالكرامة . .

فلما طرأ عليها الفقر . . قلم أظفارها . . وسكن من إحساسها بذاتها . .

فطامنت من هذا الإحساس . . فكانت بهذا التوازن مهيأة :

لتكون زوجة مثالية.

ومن حديث الزبير أنه قيل له :

مر بنيك حتى يتزوجوا فى الغرائب:

فقد غلب عليهم سبر أبى بكر ونحوله [أى : الشبه]

وكان أبو بكر دقيق المحاسن . نحيف البدن.

فأمره الرجل الحكيم أن يزوجهم الغرائب:

يجمع بهم حسن أبى بكر . وقوة غيره[1]

على أن يكون معلوما أن الاختيار هنا . . كان داخل دائرة الإسلام . .

بمعنى أنه لم يكن مفاضلة بين خير وشرير . .

ولكنه الاختيار الذى يوازن داخل دائرة الخير . . بين الفاضل والأفضل . . بصفة ذات الدين . . وصاحب الدين ليلتقى الاثنان على مبدأ جامع مانع . . تدوم به العشرة . . ويسعد فى ظله المجتمع .



(١) [لسان العرب] .

❑ ● ❑ الأصدقاء الألداء ❑ ● ❑

لأن الفتى يريد أن يتم له دينه .. فقد قرر أن يتزوج ..

ولأنه يريد للزواج أن يدوم .. فقد انطلق مع أمه وأبيه .. إلى بيت هذه الفتاة التي يكتمل بها دينه . هكذا في نقطة الضوء .. وعلى مرأى ومسمع من أهل القرية جميعاً .

وبينما الفتاة المسكينة معزولة هناك في زاوية من زوايا البيت .. تكاد أن تسمع وجيب قلبها .. بل أن تسمع في واحة الصمت تدفق الدماء في عروقها !

بينما هي كذلك واجفة .. تتوقع موافقة الأسرة لتعيش من اليوم أحلامها .. إذا بالأسرة ترفض .. وترفض بإباء وشمم ..

إذ كيف يفكر هذا الفتى المغمور في زواج بنت الأكابر؟ .. بينما الوتد ما يزال في الحائط المشروخ .. والذي كان يعلق عليه أبوه ثوبه الكتاني .. المهلهل ؟!

إنها التقاليد التي كان لها من القداسة ما لا يتوفر للشريعة ذاتها.

وقد أخطأت الأسرة :

في حق نفسها .. ثم في حق المجتمع .. وحق الفتاة ذاتها ..

لقد ظلمت نفسها حين حرمت البيت مِنَ القادم يحمل خميرة صلاحه ونجاحه ليحمي عرضهم .

بهذا الصلاح وهذا النجاح من القيل والقال وكثرة السؤال ..

ويوفر أعصابا سوف يحرقها الهم غدا .. على بنت فاتها القطار .. وبأيدينا .. وليس بيد عمرو .

ثم بما يحدث في المجتمع من خلخلة .. حين لا يلتقي الطيب بالطيبة .. بهذه الحركة الانفصالية التي لا يلتقي فيها السالب بالموجب .. ومن ثم .. فسوف يعم الظلام .

فلنفرض أن الفتى كان أسمر الجبهة .. خشن اليدين .. لكن شكل الجلد لم

يكن من صنع الخاطب . . حتى يحاسب عليه وخشونة [illegible] . .
حب الله ورسوله ليد تحمل ما هو أعلى من كل جائزة و[illegible]

لكن القوم يرفضون . . وإذا رفضوا لا يتعذرون [illegible]
بالظلم :

فإذا كان هذا صنيعهم مع من يحبهم . . وعلى أجنحة من الود جاءهم . .
فكيف يكون موقفهم مع من يكرههم ؟

إنه يناديكم :

أيها النبلاء . . أيها السائرون فى ضوء النهار . . إننا نناديكم فهل تسمعون؟

ونحمل الهواء من أنفسنا حملا . . فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة ؟ وألقى بين أيديكم رغبتنا فى مصاهرتكم . .

هل عرفتم ما بنا . . فقمتم لإنقاذنا . .

أم وجدتم أنفسكم فى سلامة وطمأنينة؟ فقلتم :

ماذا عسى يستطيع الجالسون فى الضياء أن يفعلوا لأبناء الظلام ؟

لقد غامت عن البصيرة . . فلم تحسن الاختيار . . فهل نامت عين البصر . . لنفهم درس الطبيعة من حولها؟ :

ينبت الفن من البؤس كما
تنبت الوردة من ماء وطين
عبقرى الناس من الشوك نما
ونما الخامل بين الياسمين

يا أيها الأصدقاء . . الألداء . . الأعداء لفلذات أكبادكم :

لقد أضفتم إلى « العداء » . . أضفتم . . . الغباء :

فقد زوج الرسول الكريم « زينب» القرشية من مولاه زيد بن حارثة . .

وزوج « فاطمة» الفهرية القرشية من « أسامة بن زيد»

وتزوج بلال الحبشى من أخت عبد الرحمن بن عوف . .

إنه الدين إذن . . جوهر الكفاءة . . دون سواه . . ضمانا لسلامة الأسرة ونجابة الذرية :

يقول ابن القيم :

[فالذى تقتضيه حكمته ﷺ : اعتبار الدين فى الكفاءة أصلا وكمالا :

فلا تزوج مسلمة بكافر . . ولا عفيفة بفاجر . . ولا يعتبر القرآن والسنة فى الكفاءة أمرا وراء ذلك .

فإنه حرم على المسلمة نكاح الزانى الخبيث . . ولم يعتبر نسبا .

ولا صناعة . . ولا غنى . . ولا حرية .

فجوز للعبد القن نكاح الحرة النسيبة الغنية . . إذا كان عفيفا مسلما .

وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات . ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات . . وللفقراء نكاح الموسرات]

أما خطأ الأسرة الأكبر هنا . . فهو :

أن الأنثى تبلغ قبل الفتى . . ثم تشيخ قبله أيضا فيتوقف إنجابها .

بينما الرجل صالح للإنجاب مدى حياته .

وإذن فالتعجيل بزواجها من كفئها يستجيب لرغبتها المبكرة للزوج . .

فإذا أخرناها . . كانت نسبة تضررها أكبر من فتى بين يديه فسحة من العمر يحقق فيها وجوده .

إن إشباع غريزة الأمومة وغريزة الجنس بالزواج أولى من إشباع غريزة حب الاستطلاع بالشهادة العالية . .

ألا وإن عواطف الأب . . وحنان الأم . . لن يغنيا مشاعر تربط الفتاة بزوج تلتقى به على لون من المودة لا تغنى عنه شلال من عواطف الأقربين . . لأنها مودة من صنع بارئها سبحانه . . فهى أبقى . . وهى أتقى .

الزواج .. والعشرة الدائمة

يقولون :

إذا تزوجت من تستطيع أن تعيش معها .. فذلك هو الزواج العرفى ..

لكن الزواج حقا هو :

أن تتزوج من لا تستطيع أن تعيش إلا معها !

إن الزواج المتعجل :

يدفع إليه العشق :

والعشق سهل ميسور .. لأنه يطلب منك فقط أن تكون رقيقا .. ودودا .. بعض الوقت ..

ولكن الود الحلال عن طريق الزواج الحلال .. أصعب .. لأنه مكلف :

إنه يطالبك أن تكون رقيقا ودودا .. كل الوقت ..

وتحت كل الظروف .

وما أكثر الذين ندموا أنهم لم يتزوجوا من يشتهون ..

وما أشد ندم ناس .. بعدما تزوجوا بالفعل ..

وتلك عقبى الذين يتسرعون .. فيفشلون ..

أما الذين يستشعر جلال الغاية من الزواج .. فإنه أبدا سعيد بما اختار :

فالإملاق .. لا يقتل الحب ..

ورحيل الجمال .. لا يذهب به ..

إن قلوب الناس جميعاً لا تهمها .. مادام هناك قلب واحد يخفق

بمودتى .. قلب الصاحب الجنب !!

وقد يموت الصاحب .. لكن الود الجامع لا يموت ..

ويبقى على لسان الزوجة الوفية حديثا يروى .. والتى قالت تصف زوجها

بعدما رحل :

والله . . لقد كان ضحوكا . . إذا دخل .

سكينا . . إذا خرج . .

آكلا ما وجد . .

غير سائل عما فقد .

ضحايا الأشواق :

تقرأ من الحوادث ما يجعل الولدان شيبا :

العشيق . . يقتل الطفل . .

والعشيقة . . تقتل الزوج . .

وهكذا . . عندما تسوقنا الأشواق العمياء إلى إشباع رغباتنا . .

تفقد الزوجة التى تسرعت . . فعشقت . . فخانت . . تفقد فى لحظة واحدة : زوجها . . وولدها . . لماذا؟

ليخلو لها الجو بمن تهوى . . والذى سوف يهوى معها فى بئر من الشقاء سحيق !

فاظفر بذات الدين :

ذات الدين التى تتعامل مع زوجها وهو حاضر . . فهى جليسته . . ومؤنسته . . وخادمته . .

وحتى لحظة الخصام . . فإنهما : عينان . .

وقد لا تتزاور العينان . . لكنهما أبدا متجاوران . . لا يفترقان :

مرة أخرى :

فاظفر بذات الدين :

إنها الصالحة .

صالحة فى الدين . .

وما يثمره الدين .. من تدين .. من خلق كريم

ولن يكون خلق إلا بتوفر الصحة الجسدية .. والصحة النفسية .. معا وبهما تسعد الدار .. لا .. بل تسعد الديار .

إنك سوف تسأل عن صحبة ساعة تجتمع فيها مع من تصاحبه ..

فكيف بضخامة المسئولية عن صحبة الأبد .. والتي تواكب الحياة .. ولا تنفصم عراها ؟

ويا للميثاق الغليظ يجمع بين قلبين .. وعلى أثره يتغير كل شيء :

تدخل البنت الدار .. قبل الزواج .. فيقال لها :

لم دخلت ؟

ثم .. وبعد الزواج .. بكلمة الله تعالى .. بعد ذلك إذا خرجت من نفس الدار يقال لها :

لم خرجت ؟!!

إذا لم يكن في منزل المرئ حرة
تدبره .. ضاعت مصالح داره
فإن شئت أن تختر لنفسك حرة
عليك ببيت الجود : خذ من خياره
وإياك والبيت الدنيء .. فربما
تعار بطول في الزمان بعاره
ففيهن من تأتى الفتى وهو معسر
فيصبح كل الخير في وسط داره
وفيهن من تأتيه وهو موسر
فيصبح لا يملك غير حصيره

● العبد بين ما يراد له ● وما يراد منه

يجب أن يكون معلوما أن هناك أشياء : يريدها الله تعالى لنا .. وأخرى يريدها سبحانه منا ..

فما أراده تعالى لنا .. لا حيلة لنا فيه .. ومنه الجمال .. والغنى : فالذى يفتخر بداره نقول له :

الجمال فى دارك .. لا فيك

والذى يفتخر بجماله نقول له :

أنت لم تصنعه

والذى يغالى بأجداده .. نقوله له : الفضل لهم .. لا لك

وقديما اعترض طريق الجاحظ رجل فظ غليظ .. فعيره بقبح صورته ..

فأفحمه الجاحظ بهذا الجواب :

أنا لم أصنع قبحى ..

وأنت لم تصنع جمالك ..

والأمر كله .. لله الخالق المصور

ثم إن الجمال .. والغنى .. والحب .. كلها أشياء لم تتفردوا بها فهى كائنة فى غيركم.

وفوق ذلك كله .. فالفخر هنا .. لا بالخلق .. ولا بالتدين بأمر ذاتى .. وإنما بشيء خارج عن الذات .

والعلم يقول :

ما بالذات لا يتخلف ..

وما كان خارجا عنها .. فسوف يزول .

ولا بأس بالجمال مع الدين

وإذا ركز الحديث الشريف على ذات الدين .. فهل في هذا عزوف عن الجمال؟ .. وحب الجميل من مخلوقات الله ..

أبدا ..

فلتكن الزوجة أولا متدينة .. فإذا انضم إلى ذلك جمالها ومالها وحسبها فذلك فضل الله يؤتيه من من يشاء :

قال الزمخشري آخذا بيد الخاطب إلى التي هي أقوم :

« لا يخطب المرأة لحسنها .. بل لحصنها :

فإذا اجتمع الحصن . والحسن . فهذا هو الكمال »

فالتدين الصحيح حصن يأرز إليه كل من في البيت [illegible] الأمان ..

فإذا لم يكن هناك جمال .. فقد بقى الأصل .. [illegible]

لقد رأى «أنس» والد الإمام مالك - رحمهما الله تعالى - [illegible] زفافه أمام زوجة ليس لها من الجمال نصيب .. كما كان [illegible]

ولم يشكل غياب الجمال خطرا يتهدد مستقبل الأسرة [illegible] مالك .. الذي ملأ الأرض علما ..

وربما كان له زملاء تزوجوا في نفس الليلة بأزهات [illegible] الفقاعة على سطح الماء .. مسها طائف من الريح .. [illegible]

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... [illegible]

إن مالكا - رضى الله عنه - .. رتب نفسه [illegible] يتجاوز جمال القشرة إلى الأعماق الحافلة باللؤلؤ [illegible]

وقد كان له ما أراد ..

وهكذا عقلاء المحبين الذين لا تحبسهم العيون عند [illegible]

إلى مكنون الضمائر . . ليروا ما لا تراه عيون العشاق الوالهين . . أو الواهمين . .

قال الخليفة يوما لبثينة متحديا :

لم أجد فيك ما يقوله جميل فقالت له يا أمير المؤمنين :

إنه يراني بغير عينك التى تراني بها !!

حب الجمال:

إن حب الجمال فطرة فى الإنسان :

مر رجل عجوز . بامرأة بارعة الجمال فقال لها :

إذا كان لك زوج فبارك الله لك فيه . . وإلا فأعلمينا .

فقالت : كأنك تخطبها ؟ قال : نعم . قالت :

إن فى عيبا . . قال : وماهو ؟ قالت :

شيب فى رأسى !!

فثنى عنان دابته . . وأدار عنقه مبتعدا . فقالت :

على رسلك . . فلا والله ما بلغت عشرين سنة . ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء . ولكننى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل الذى تكره منى .

وهكذا ولدت الخطبة . . لتموت !!

فلم يكن هناك تكافؤ . . ولا اعتراف بطبيعة الإنسان . .

وإلا . . فكما يحب الرجل الجمال . . فإن المرأة بنفس القوة تحب الجمال أيضا!!

□ ● □

اتجاهات الفتاة المسلمة

لما مات يزيد بن سفيــان عن زوجته «أم أبان بنت عتبة بن ربيــعة » أراد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن يخطبها لنفسه.

لكنها اعتذرت . . ورغم أن ابن الخطاب هو من :

هو : طهارة ومــروءة . . وقوة شخصــية إلا أنه كان لهــذا الاعتذار مســوغاته ومنها: أنه لا يدخل بيته إلا عابسا.

يغلق بابه دون الزوار . . لما يشغله من هموم أمته.

نزر الإنفاق فى بيته لما يبذله فى سبيل الله تعالى .

ثم ولدقته فى الحصول على الدرهم الحلال.

فعمر - رضى الله عنه - : من الناحية الإيمانية . . فى القمة . .

ولكن الناحية الاجتماعية . . تهم المرأة . . ومن ثم اعتذرت . . لأنها لا تطيق العيش فى بيت لا يعرف الابتــسام . . يعيش أهله على الطوى . . وهى من بيت من بيوتات العرب . . فأبوها «عتبة بن ربيعة» وإذن . . فالنقلة بعيدة . .

بعد ذلك خطبها الزبير بن العوام - رضى الله عنه - فقالت :

« يد له على قرنى . ويد له فى السوط :

فإن أخطأت يوما فى شيء : جذب شعــر رأسى . ووضع السوط على جسدى . فأنى لى بالحياة معه ؟

فلما خطبها طلحة بن عبيد الله . . أجابت . . فهنأها على - رضى الله عنه - قائلا :

« رددت من رددت منا . . وتزوجت ابن بنت الحضرمى فقالت القضاء والقدر . فقال على :

أما إنك تزوجت رجلا أجملنا مرآة . وأجودنا كفا . وأكثرنا خيرا على أهله».

وقد لخصت بهذا الاختيار شروطها فى :

جمال الشكل . .

وسخاء اليد . .

وكثرة المعروف . .

ولا بأس أن يدخل المظهر العام عنصراً في القضية . . فحب الجمال طبيعة الإنسان . .

لكن الجمال وحده لا يكفى . .

أما غياب الجمال . . مع بقاء المروءة فيكفى :

وهذه فاطمة بنت قيس - رضى الله عنها - :

لم يرض الرسول ﷺ لها معاوية : لأنه فقير . . كما لم يرض لها ابن الجهم لأنه فظ غليظ . .

ولكنه رضى لها أسامة بن زيد على ما كان عليه من هيئة قد لا تستلفت الأنظار.

وقد عبرت فاطمة أولا عن رغبة الفتاة فى وسامة الخاطب وقالت مستهينة به:

أسامة ؟؟!

ولكن إيمانها يسعفها على الفور بتصحيح الخطأ فقالت :

سمعاً وطاعة لله ولرسوله . قائلة :

فزوجنيه . . فكرمنى الله . . وشرفنى الله . . ورفعنى به [1]

وهذه «هند بنت الحسن» تحدد ملامح شريك حياتها فى قولها :

لا أريد الظريف . . المستظرف.

ولا السمين الألحم «البالغ السمن».

---

(١) رواه مسلم .

ولكن أريده : كسوبا إذا غدا .. وضحوكا إذا أتى.

ومن المفارقات العجيبة هنا :

أنها غضبت من زوجها . فذهبت تشكوه إلى .. «مسلم بن قتيبة» فلما سألها عن سبب بغضها له قالت :

«قليل الغيرة .. سريع الطيرة .. شديد العقاب .. وكثير الحساب».

أهمية الابتسامة :

وإذا قرر الإسلام : أن تبسمك في وجه أخيك صدقة .. فكيف بهذه الابتسامة إذا كانت في وجه زوجتك ؟

ويهمنا أن نقول : أن الفتاة المسلمة عرفت كيف ترسم ملامح الزوج المثالي على هذا النحو الفريد؟

إنها تحب الرجل المتفائل .. المستبشر ..

السمح : الذي يأخذ العفو .. ويأمر بالمعروف ..

يعفو عن الزلات .. وإذا حاسب .. فحسابه يسير ..

وقد فتحت الفتاة المسلمة أمام الفكر الإنساني .. والذي تحرك فأيقن أخيرا ما للابتسامة من آثار في عالم النفس وعالم الواقع وهذا ما قرره علم النفس والاجتماع أخيرا متباهيا .. بما سبق الإسلام إلى تقريره منذ أكثر من أربعمائة وألف عام.

❑ ❁ ❑

اتجاهات الفتاة هناك

فى أمريكا . وفى الستينات . أجرى بحث ميدانى بين مجموعة كبيرة من الفتيات الأمريكيات المسيحيات . . وكان موضوع الاستفتاء : «صفات الزوج المثالى».

وكانت النتيجة كالآتى :

الرجل المثالى هو الذى يتصف بالصفات الآتية :

العقل الناضج . والميل إلى النظافة . والعناية بالمظهر . . والصحة الجيدة . وقوة الشخصية التى تسمح بالثقة به .

والميل إلى السرور والبهجة . . والطهارة الجنسية . والسمعة الطيبة التى تدل على تقدير الناس له . وأن يكون محبوبا من أهله وذويه . وأن يكون عاملا مجدا. ومتحدثا لبقا.

ويعلق أحد الباحثين على ذلك بقوله :

« نلحظ أن الفتيات الأمريكيات لم يذكرن الجانب الإيمانى على الإطلاق. كما أن الطهارة الجنسية جاءت فى ترتيب متأخر.

وقد انصب اهتمامهن على الجانب العقلى والاجتماعى والجسدى فحسب وأهملن تماما الجانب الروحى الإيمانى».

ولكن الفتاة المسلمة . . والفتى المسلم . . كلاهما يراعى فى سلم الأولويات الناحية الإيمانية . . وما يترتب عليها من طهارة جنسية . . فإذا توفر هذا العنصر الإيجابى فما فاتنا شيء نبكى عليه !

ومع ما تشى به بهرجة الحياة هناك . . مما يخدع به السطحيون الظانون أن السعادة حكر على هؤلاء الماديين الغارقين فى بحبوحة النعيم . . مع هذا . . فإن *التقى أبدا هو السعيد :*

يقول العقاد :

إذا أردت السعادة لحظات .. أو أردتها سعادة لذات معهودات فأنت واجدها لا محالة فى وقت من الأوقات ..

أما إن أردتها سعادة العمر .. أو سعادة فى كل أمر .. وبلا انقطاع .. فذلك هو المنال البعيد . لكن التقى هو السعيد .

وذلك شأن كل مطلوب فى الحياة .. على تلك الشريطة.

والسعادة طبقات وأصناف :

الرخيص منها موجود .. بل موفور .. ومبذول ..

والقريبون من هذا المستوى كثيرون : على متناول الباع الطويل .. والباع القصير.

فإذا قيل إن أصنافاً منها لا تبذل ولا تتوافر .. فكذلك الصنف الغالى .. من كل شيء ..

وإذا قيل: إن الصنف الأغلى من هذه لا ينال .. أو لا ينال فى كل حين .. ولا يناله كل إنسان فكذلك : كل طبقة رفيعة فى كل سلعة .. وكل ثمرة .. وكل موجود.

هناك لحظات سعيدة فى حياتنا التى نحياها ..

فهناك إذن سعادة لا مراء !

ولكن ليس فى هذه الدنيا سعداء ..

لأن السعادة الملازمة للإنسان .. فى كل حالة .. وكل مطلب هى المثل الأعلى .. هى الحلم .. هى الغاية التى لا تدرك .. والبغية التى لا تنال !!

وتسألنى : هل السعادة فى السكينة .. أم فى الحركة ؟ : وأقول : هى هذا وذاك : سعادة السكينة رضا وارتياح خاليان من الشوق .. ومن الطموح .. وسعادة الحركة : تقدم .. ونجاح خاليا من القناعة والاكتفاء .

ومن يبغ هذه .. لا يبغى تلك .. ومن طلبهما .. طلبهما متفرقين .. فى

زمانين . . لأنهما لا تجتمعان.

اختلاف الناس فى تقدير السعادة :

إنه اختلاف شعور . . لا اختلاف نظر ورأى.

إن السعادة مشهودة : لا بمقلتين . . وقلب . .

بل بأربع أعين وعاطفة لا يحسها قلب واحد . . بل قلبان متفقان .

فمن رامها بعينين وقلب : فكأنما يرومها شطرا مسلوخا من جسد ميت . . لأن الأجسام لا تعيش شطرين.

أنا أقارب السعادة وأنا مشفق من حسابها الذى يعقب كل نشوة من نشواتها.

وعلى قدر السعادة يكون الثمن . .

وعلى قدر النشوة يكون الحذر والألم والتنغيص

ألا إن السعادة لا تكمن فى الحياة السهلة الراكدة التى ترنو إلى المال من أى طريق وهى مرتاحة ولكنها فى الحياة المتحركة الناهضة . . وإن الإجهاد النفسى والعضلى أحلى من الدعة والترنح.

□ ● □

الطيبون .. والطيبات

لأن الخاطب القادم هو قضية البنت المخطوبة .. ومستقبلها .. فلابد من أخذ رأيها .. لتتحمل من بعد مسئولية اختيارها ..

ولأن حياءها غلاب قد يمنعها من الطلب .. وانفعالها قد يحجب الحقيقة .. لأن الأمر كذلك فكان لابد من رأى الولى .. الذى يرصد خبرته .. لتكون عونا لابنته على بناء عش جديد .. بلا مشكلات ..

ولقد كان الأولياء من الآباء عند حسن الظن بهم .. أوفياء لبناتهم فى هذا المنعطف الحرج ..

ولقد كان التوفيق حليفهم حين صدروا فى الاختيار عن ذات الدين .. وصاحب الدين . فوصلوا بهم وبهن إلى الشاطئ سالمين غانمين.

ودائما لا تخطئ السنة القرآنية هدفها : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات »[1].

شاهد من التاريخ :

نزل إياس بن معاوية مع وفد فى بلد فقال لواحد من أهل هذا البلد :

عرفنا خياركم وشراركم فى يومين اثنين ؟!

فقال له الرجل :

وكيف ؟ قال :

قدمنا : خيارنا وشرارنا ..

فقصد خيارنا خياركم .. وقصد شرارنا شراركم

وتعلق كل شيء بشكله.

---

(١) النور (٢٦) .

وصدق الله: ﴿ قل كلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ [١]

ومن الوفاء بالعهد .. عهد الأبوة .. أن يتجاوز الولى عن بعض الأمور الجانبية .. رجاء مصلحة دينية ..

ولا يكون عندئذ مقصد .. وإنما هى النظرة المستقبلية التى تدفع أحيانا من عرقها وراحتها ما تشترى به نسبة من السعادة أعلى وأشمل .. وأبقى .

وفى حياة أبى بكر - رضى الله عنه - شاهد على ما نقول :

لم يكن أبو بكر - رضى الله عنه - كولى .. يستهدف مصلحة المخطوبة الخاصة .. وليكن ما يكون .. فربما تجاوز عن بعض الهيئات رجاء أن يكون من وراء الزواج مصلحة للمسلمين :

طلب منه .. الأشعث بن قيس أن يعفو عنه بعد أن تاب من ردته ويزوجه أخته!

ففعل أبو بكر رجاء أن يدوخ الله به وبقبيلته كندة فارس والروم.

وقد تحققت نبوءة أبى بكر . ووفى الأشعث بعهده .. وكان المحارب المناضل فى كل عهود الخلفاء من بعده.

إن مظاهر الحياة الخلابة .. وفى مقدمتها جمال الفتاة .. ووسامة الفتى .. لا تتحكم بمفردها فى حسم القضية ..

فقد يغيب الجمال .. ولا تكون وسامة .. ومع ذلك .. تكون البركة التى هى أعظم من كل جميل .. ووسيم :

وفى ليلة زفافه فوجئ أنس - والد الإمام مالك - رضى الله عنهما - فوجئ أن عروسه ليست على مستوى هذا الجمال الذى تخيله !!

ولم يكن رآها من قبل ..

وفطنت العروس اللبيبة إلى ما يدور فى قلبه فقالت له :

---

(١) الإسراء (٨٤) .

﴿ وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم ﴾[1]

وفعلا كانت خيرا له فجاءت بالإمام مالك .. والذى ملأ الدنيا علما وفضلا..

وأولئكم الراغبون فى جمال الحق .. فازينت بهم الحياة ..

ولقد تعامل العروس مع عروسه من خلال إنسانيتها .. لا من خلال أنوثتها.

ولكن الغافلين من سحار الليالى يتعاملون معها من خلال أنوثتها .. إلى الحد الذى حدا بشاعر منهم أن يقول :

إن أفشل أمسية شعرية كانت أمسية خليجية لأنها كانت للرجال فقط !؟ ثم يقول :

لن ندخل إلى نادى المتحضرين .. مالم تتحول المرأة لدينا : من شريحة لحم .. إلى معرض أزاهير ..

ولو اتبع الحق أهواءهم لكانت : شمة .. فضمة ..

وسلام عندئذ على الحياء .. والإباء .. والوفاء !!

هذه القيم التى يجب أن تبقى ولو خسرنا فى سبيلها كل ما فى الحياة.

❑ ● ❑

(١) البقرة (٢١٦) .

عبيد الحياة وعباد الله

روى البخارى بسنده عن رسول الله ﷺ . قال :

«تعس عبد الدينار. وعبد الدرهم . وعبد الخميصة :

إن أعطى رضى . وإن لم يعط سخط .

تعس وانتكس . وإذا شيك فلا انتقش [١] .

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله : أشعث رأسه مغبرة قدماه :

إن كان في الحراسة .. كان في الحراسة . وإن كان في الساقة . كان في الساقة.

إن استأذن لم يؤذن له . وإن شفع لم يشفع» .

تمهيد :

إذا كان هناك فى دنيا الناس زهاد مملوكون . . فإنهم عبيد . ولكن الملوك عبيدهم !

ومن هؤلاء العبيد ذلك النموذج الذى يتحدث عنه الحديث الشريف . . فما هى مواصفاته التى استحق بها ذلك الدعاء ؟

إنه ليس عبدا واحدا . . ولكنه مجموعة من العبيد : تقيده من الأعراف أغلال وسلاسل .

فهو عبد لكل صور المال حتى فى أدنى مستوياته وهو : الدرهم . .ثم هو أسير « الموضة » تابع لبيوت الأزياء . . ومن أجل ذلك فهو يختار ماله « أهداب» وله من حوله أعلام : قطيفة أو خميصة من ألوان الزينة التى لا تدخل فى نسيج الثوب . .

---

(١) تعس : أكب على وجهه . وانتكس مع المنتكسين

والنكس سقوطه ثانيا بعد سقوطه أولا ، وتكون الثانية أشد من الأولى .] والقطيفة كساء له خمل . والخميصة : ثوب معلم .

وإنما هو التباهى المكلف بلا فائدة عملية إلا حب الظهور .

ثم لا يهمه « الفتى » الصالح : بقدر ما يهمه أن يكون الجهاز غير مسبوق ولا ملحوق !!

إنه ذلك الذى عناه القرآن الكريم : ﴿ الذي جمع مالاً وعدده (٢) يحسب أن ماله أخلده ﴾ [1].

يرائى الناس . . ولا يذكر مصلحة « الفتى » إلا قليلاً !

ولأنه يعيش لنفسه . . لا لغيره . . فما عاش !

وها هو ذا ﷺ يدعو عليه بعكس مقصوره :

تعس مع التاعسين . . وانتكس مع المتنكسين . .

وإذا صحا من غفلته يوما . . على موجات الهموم تقض مضجعه . . وتدمى قلبه مع ابنته التى أصابها كفل من سوء تصرفه . . فلا وجد من يقف إلى جانبه . .

لا وجد حتى عابر سبيل يقتلع من رجله شوكة !

ثم وجد الله عنده فوفاه حسابه !! وإنه لجدير بهذا المصير الرهيب :

فلقد دحرجته الأهواء من قمته . . قمة العبودية لله تعالى . .

إلى عبودية ذليله مستسلمة . . لتقاليد المجتمع . . فليكن جزاؤه من جنس عمله : إحساسا بالهوان . . بهذا السقوط من شرف العبودية لله تعالى . . ليتراءى للذين قالوا : ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ [2] . . يتراءى لهم . . فيتألم . . ولا متوجع . . ويستنجد ولا منجد . .

إنه لا عزاء . . ولا سلوى . . بعد ما فقد النصير بسوء اختياره . . فجعل من الزواج تجارة أو شطارة حين جعل ابنته سلعة فى الأسواق . . يفوز بها من يدفع أكثر !!!

---

(١) الهمزة (٢ ، ٣).

(٢) القصص (٧٩).

ولا يعنى ذلك أن الإسلام يضيق بمباهج الحياة .. وكيف يكون ذلك والله تعالى يقول : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣١) قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾[1] .

إن من حق المسلم أن يعب من نعيم الحياة عبا .. شريطة أن يكون محكوما بقيم الإسلام .. فلا يفرط .. ولا يفرّط ..

والمدعو عليه فى الحديث الشريف هو :

[طالب الذى ذُكر . الحريص على جمعه . القائم على حفظه . فكأنه لذلك خادمه وعبده .

ولم يقل مالك الدنيا ولا جامع الدنيا . لأن المذموم من الملك والجمع هو : الزيادة على الحاجة .

.. وقد خص « العبد » بالذكر ليؤذن بانغماسه فى محبة الدنيا . كالأسير الذى لا يجد مخلصا .] أ . هـ

وهكذا من لم يرض باليسير .. فهو أسير !

وقد فلسف العلماء هذا المصير فقالوا :

[جعله عبدا لهذه الأمور : لشغفه وحرصه :

فمن كان عبدا لهواه لم يصدق فى حقه : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فلا يكون لمن اتصف بذلك صديق يقف إلى جانبه ..

ذلك بأنه عاش لنفسه .. ولم يعش لغيره .. ورضى بالمال معبودا .. وأين هو من ذلك الحر الذى كان المال فى جيبه .. ولم يكن فى قلبه قائلا :

لا أجعل المال لى ربا يصرفنى   لا . بل أكون له ربا أصرفه
مالى من المال إلا ما أجود به   فذاك لى .. ولغيرى ما أخلفه

---

(١) الأعراف : (٣١ ، ٣٢).

فـارس الأحـلام

«طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه :

إن كان في الحراسة . كان في الحراسة . وإن كان في الساقة كان في الساقة..»[1]

تحدثنا عن عبد المال . ومصيره . . ونستكمل التعليق على بقية الحديث بهذا النموذج العالى :

والرسول الحكيم بهذا الدعاء : دعائه على عبد الحياة . . ودعائه لعبد الله . . كأنما يطلق رياح التغيير التى تقتلع قيما عفنه آسنة . . ثم يدفع بقيم نبيلة تأخذ مكانها فى صدر قيم الخير . . لتكون لنا زادا ليوم المعاد . . هذه القيم التى يمثلها ذلك العبد المجاهد فى سبيل الله :

طوبى له :

إن له «طوبى» . وبكل اشتقاتها :

له فى الجنة طوبى .

لأن سيرته فى الدنيا كانت طيبة

وحديث الناس عنه كان طيبا . .

وألسنة الخلق . . لسان الحق :

ولماذا استحق هذا الأجر الجزيل ؟

ذلك بأنه عبد لله . ومن تكاليف العبودية أن يرضى بما قضى به سيده سبحانه . .

على عكس هذا الذى أسلم زمامه للهوى المتقلب . . فدار به ومعه مذبذبا ممزقا :

(١) رواه البخارى .

إن أعطى من الدنيا رضى . وإن لم يعط منها سخط

وأين هو من هذا العبد الآخذ بعنان فرسه . وعلى لسانه دعاؤه ﷺ :

«**اللهم رضنى بقضائك . وبارك لى فيما قدر لى . حتى لا أحب تعجيل ما أخرت .. ولا تأخير ما عجلت**»؟

ثم إنه ترجم العبودية إلى أعلى مستوياتها تضحية وفداء :

إنه قوى .. ترك ما يهوى .. لما يخشى . لقد آثر ما يبقى .. على ما يفنى .

لقد استدبر هذا الفارس المسلم الدنيا فلم يعد يهتم بمظهره :

وإنما هو : أشعث رأسه . مغبرة قدماه ..

ثم وهب حياته لله تعالى .. وصارت الجندية لحمته وسداه :

لا يجرى وراء المطامع .. ولا يرغب فى المناصب .. وإنما هو حيث أمر : إن كان فى المقدمة .. فهو الفتى الجسور . وإن كان فى المؤخرة فهو الحافظ لحدود الله .

لقد كان من قبل فتى .. ككل الفتيان به ميل إلى الدنيا .. لكنها من بعد صارت فى حسه كما قال ابن حنبل :

ما شبهت سن الشباب إلا بشيء كان فى كمى .. فسقط !!

وإذن فهو النموذج الأحق بالتكريم .. عكس غريمه الأجدر بالتحريم .. ذلك بأنه صار بالفدائية فى سبيل الله مظهرا للحق .. وإذا ظهر الحق .. فلا شيء معه !

أجل .. لا شيء معه :

لقد تجاوز هذا البطل حاجز الحزن .. وحاجز الخوف معا ..

لأنه باع نفسه ابتداء .. بل وكبر عليها أربعا .. فلم يعد هناك فى الدنيا ما يحزنه فوته .. ولا ما يخاف ضياعه ..

وأين منه عبد الدينار وعبد القطيفة الذى يتدحرج فى سفح جبل .. متمرغا فى التراب هناك ؟

فلندعه لمصيره الذى خطط هو له ..

ولنحيى هذا الفـارس الطيب . . المغمور . . الذى لا يعرفه أحد بل لا يلتفت إليه أحد . .

ولنقل دائما طوبى له :

طوبى للحارس اليـقظ . . والذى لولا يقظته ما دار مـصنع بخميـصة . . ولا طبعت آلة دينارا

وسلام على بـطل . . عاش . . واستـشهـد . . ولم يعرفـه أحد . . ولكن الله تعالى يعرفه . . وسوف يكافئه . . بجنة عرضها السموات والأرض بعد ما قدم الثمن من نفسه . . وماله . . فى وقت يتنافس فيه طلاب الدنيا على حطامها . .

ويبقى الدرس البليغ :

أن تعى أمتنا ما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون . .

إن ثروة الإنسان الحقيقية إنما تكمن فيمـا يملك من قيم تعمر قلبه . . وبها يعمر الحياة من حوله . . بغض النظر عن الأثاث والرياش .

قال رجل لسقراط : إننى لأتوجع لما أنت فيه من الفقر ؟

فقال له سقراط :

لو علمت مـا أنت فيه من الفـقر - أى الفقـر الأخلاقى - إذن . . لتـوجعت لنفسك . . لا لسقراط !

إن عبد الدنـيا هنا له علانية . . أفـضل من سره . . وهذا هو الظلـم . . ولكن المجاهد ليملك سريرة هى أفضل من علانيته . . وذلك هو الفضل . .

❊ ❊ ❊

خاطبون يقدمون أوراق اعتمادهم !

ذهب « قيس» مع أبيه وعشيرته يطلبون ليلى زوجا لقيس .

ولكن الوالد رفض قائلا : لا حدثت العرب أننى قد زوجت عاشقا !

ليس هناك سرور يعدل سرور والد إذا حالف ابنته التوفيق مع رفيق .. مع زوج .

زوج .. يبنى معها عش الزوجية .. عودا .. عودا .. فإذا هو محضن دافئ يفقس .. فيه البيض .. لتخرج الفراخ ناشرة أجنحتها .. فى بيت هو بها أسعد البيوت .

ولكن هذا الوالد نفسه .. ومن واقع حرصه على ابنته يختار لها ما يجلب السرور .

وقد يحمله ذلك على أن يرفض الكفء .. لأنه أخل بواجبات « عروبته» أو «مروءته» .. وتمرد على تقاليد بيئة كان العرض فيها أعز ما يملك إنسان ..

لقد شبب قيس بليلى .. وشاع تشبيبه وذاع .. فكثف بذلك نسبة المرارة فى قلب والد شعاره :

يهون علينا أن تصاب جسومنا ∴ وتسلم أعراض لنا وعقول

إننا قد نضعف أمام سلطان العواطف الغالية .. لكن ذلك ينسينا واجبنا الذى يفرض علينا الحفاظ على حرمة البيوت .

ولله در هذا الوالد الأبى .. والذى صان ابنته .. قبل أن تكون ضحية قول معسول .. يمكن الذئب من الانفراد بالضحية .

الضحية التى تفقد أمام بريق البيان مقاومتها .. فتسقط فيما يسمونه الزواج العرفى !

وبعد قليل .. يتغير كل شيء.

لقد كان العاشق الولهان من قبل يقول لها : صعب على تصوري أن الحياة تمضي بدونك .. أن تدور الكواكب دون إشارتك .

أن يكون هناك فصول أربعة .. لم تلقى عليها التحية .. إن تاريخا لا يؤرخك .. وكتابا لا يذكرك .. ليس بالتاريخ .. ولا بالكتاب !! وكيف تغنى الحمائم على نوافذنا ولا تكونين معى ؟!

هذا الثناء الكاذب

وبعد هذا الثناء الكاذب .. أو الفجر الكاذب .. يأكل الحوت « الطعم » .. ثم يبول بعد ذلك على السنارة !!

وينتهى كل شيء .. حين يبزغ الفجر الصادق .. وعلى ضوئه تنكشف الحقيقة .. من هذا اللسان الذى كان بالأمس يقطر عسلاً .. الذى كان يبوح بالعشق ماء مقطراً .. ثم إذا به اليوم .. وبعد أن قضى وطره فى غيبة الوالد الغافل .. إذا به يقول :

ما عدت أشعر فى ربوعك بالأمان .. شيء تكسر بيننا .. لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان !!

لقد مضى الحب الموهوم .. ليصير من بعد رمادا من حريق .

لقد حمى والد ليلى ابنته من هذا البهتان .. ثم رفض أوراق اعتماد« قيس» والذى فشل فى أن يكون زوجا صالحا !

ذلك بأنه قد ارتكب بالتشبيب جريمة لا تغسلها مياه البحر .. ولا يكفرها صيام الدهر .

وأين هذا العاشق الولهان من هذا الفتى الذى نجح فى تقديم « أوراق اعتماده» إلى زوجة المستقبل ؟.. كفتى محب يشفع له مع فقره أنه عاشق للمثل العلا.. لا يدغدغ العواطف .. ولا يقول الشعر عواصف !

وإنما هو المؤمن الذى يتقدم بزاده من الصراحة والأخلاق .. بعيداً عن بهرجة

العشاق .. يقول :

أجل .. فـــارس الشــوق لبى المـنادى
ألم تسـمعى - بعـد - خب الجـواد ؟
أنا قـــادم من ســـهـــاد الـليـــالى
ومن رحـلة النـوم فـــوق القـــتـــاد
بســيط ، فلـن يخـرق الأرض خطوى
ولن يصنـع المعـجـزات اجــتـهــادى
وفى جـــعـــبــتى بعض عـــشق قــديم
وســـيف نبـــيل صـــبـــور الجـــلاد
وليــست تـطول الســمــاوات كــفى
لأخـــتــار عـــقــد النجــوم البــوادى
ســـوارى شــرايـين قلب فـــقــيـــر
وعـــقـــدى حـــروف بخــيط المـــداد
وطاقـــات جـــسم إذا كــل يومـــا
تفـــقـــدت صـــحنى فلـم ألق زادى
وفى مـــفـــرقــى شـــعـــرة لون قلـبى
فــقــد ابيض فــيــها نـقــاء الســواد
وكـم أرهـق الأمس واليـــوم وجـــهى
ومـــا زال فـــيـــه ابتـــســـام العنـــاد

□ ● □

المتعة بين التسليم بها .. والاستسلام لها

روى مسلم بسنده عن سبرة بن معبد :

أن نبى الله ﷺ عام فتح مكة أمر أصحابه بالتمتع من النساء . قال :

فخرجت أنا وصاحب لى من بنى سليم حتى وجدنا جارية من بنى عامر . كأنها بكرة عيطاء . « شابة - معتدلة - طويلة العنق »

فخطبناها إلى نفسها . وعرضنا عليها بردينا .

فجعلت تنظر فترانى أجمل من أصحابى .

وترى برد صاحبى أحسن من بردى .

فأمرت نفسها ساعة - شاورت وفكرت - ثم اختارتنى على صاحبى .

وفى رواية « أنت ورداؤك يكفينى . . فمكث معها ثلاثا »

ولد زواج المتعة فى ظروف طارئة . . فلما عادت الحياة سيرتها الأولى زالت الإباحة .

إنه متعة . . مجرد تذوق يطفئ الغرائز الملتهبة . . إلى حين . .

لتعود الأمور إلى القاعدة . . إلى الأسرة الراشدة!

إن المسلم لن يكون أبدا ذواقة يجرى وراء المتعة حيثما كانت . . مبددا طاقته المرصودة أساسا لمعالى الأمور .

إنه رجل أسرى . . اجتماعى . . ولن يكون أمر الأسرة كتلك الضفادع التى تضع بيضها فى المستنقع الآسن . . ثم تترك الصغار تنمو غريبة . . تكافح الحياة وحدها .

ولا بأس علينا أن نحب الدنيا . . لأنها أمنا . . ولا تثريب على كائن يحب

أمه .. ولكن لتكن للقيم الأصلية قدرهـا .. وهيمنتها على سلوك الإنسان ، وتأمل من أخلاق رفاق السلاح هنا ماذا فعلا ؟

لقد أمر رسول الله ﷺ بالمتعة .

ولعله أحس بتحـرج فى صدور شبـاب المجاهدين .. الذين توقفـوا مع وجود الإذن .. فأمرهم .. أجـل : أمرهم صراحة .. لكنهم كـانوا عند حسن الظن بهم .. يتحركون فى النور .. وعلى الساحة المكشوفة ..

وتأمل الحس الأدبى النظيف وهـو يصف الفتـاة بالناقـة .. بل .. بالبكرة .. فلم يخدش حياء ..

هذه الفتاة التى لم ينفرد بها فى قاعة مظلمة .. أو يلتقطها من الشارع مجهولة العنوان .

وإنما هى معروفة النسب .. من بنى عامر ..

ويده فى يد صاحبـه يذهبان إليها فى تنافس شريف يسلم فى النهـاية بالاختيار بلا صدام ولا تشويه بماء النار وفى صراحة المخلص القائل :

ولى عليه فضل فى الجمال .. وهو قـريب من الدمامة بردى خلق وأما برد ابن عمى فبرد جديد ثم يتقدم الصاحبان إليها :

فقلنا : هل لك أن يستمتع منك أحدنا ؟

○ موقف الفتاة المسلمة :

وتقبل الفتاة المؤمنة مشروع الزواج كمبدأ ..

لكنها ليست سلعة معروضة للسابلة .. لا تريد لامس وإنما تغالى بنفسها فتقول لهما :

وماذا تبذلان ؟

ولم يكن يملك الجندى إلا سلاحه .. وبرده ..

وكان طبيعيا أن يعرض كل منهم برده ..

وقبل أن تتخذ الفتاة قرارها .. بدأت تفكر ساعة ..

ثم قارنت بين من يملك الرداء الجميل .. الغالي .. ومن لا يملك إلا ثيابه !!

لقد وازنت بين قيمة الجمال .. والفتوة .. وبين الأثاث والريش والسيارة الفارهة .. ثم آثرت قيمة الجمال ..

وهكذا .. يغيب الولي .. لكنه مطمئن إلى فتاته التي لن تستبد بها الشهوة لتنطلق على غير هدى وراء القول المعسول ..

والتي يكفيها : الفتى بخصائصه .. بمكوناته الذاتية .

بعيدا عن الأضواء .. وإن يكن فقيراً .. وإن تكن فقيرة فسوف يغنيهما الله من فضله إن شاء .

• درس في سياسة النفس :

والموقف من جانب آخر درس بليغ في سياسة النفس :

لقد كانت البنت هنا فقيهة .. تعمل .. فحققت بالروية أملها .

أما العمل قبل الفقه : فلا نتمكن معه من ترتيب سلم الأولويات :

وإنما هي العشوائية العمياء .

لكن التفقه قبل العمل واصل بنا إلى الرشاد .

ولا تجدي مع النفس أنصاف الحلول :

لأن النفس كما قيل : حاكمة .. أو محكومة ..

وقد تصرفت الفتاة هنا على هذا الأساس :

فكانت في اللحظة الحرجة .. ثابتة .. في وقار .. فلم تدخلها نفسها في الحمق أو الطيش ..

وإذا لم يكن دين .. فهناك الشرق المانع من العبث ..

فإن تحققت أمانيها .. فبها .. وإلا فما فاتنا شيء نبكي عليه !

❑ ● ❑

❑ ● ❑ المبادئ فوق المنافع ❑ ● ❑

عن قيس قال : سمعت عبد الله يقول:

كنا نغزو مع رسول الله ﷺ . ليس لنا نساء فقلنا : ألا نستخصى ؟

فنهانا عن ذلك . ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب . . إلى أجل .] (١)

وفى رواية « ونحن شباب »

هذا الموقف العجيب . . واحد من إفرازات الحرب . . وأثر من آثارها :

فالرجال هناك على الجبهة . . والنساء فى البيوت . .

فقد حالت الحرب بينهم وبين ما يشتهون . . أمدا قد يطول . . وفى الوقت نفسه . . فالجندى المسلم هنا : فتى موفور القوة . .ريان الشباب . . هو بشر تفرض عليه غريزة الجنس أن يشبعها . .

لكن حالة الطوارئ . . والأعصاب المشدودة والعدو المتربص . كل ذلك مانع من الإشباع .

ورغم إلحاح الغريزة . . إلا أن الجندى المسلم ملتزم . . وكما أنه بحكم إيمانه لا يخل بواجبه العسكرى . فهو كذلك . . وبنفس القوة لا يخل بواجبه الأخلاقى . .

ومن ثم فهو يحمل همه إلى الرائد الذى لا يكذب أهله . . ليجد لمشكلته حلا إسلاميا . . رافضا أن يتكفل هو بحل مشكلته هناك فى الخفاء . . حيث لا عيون ورقباء !

ولقد كان اقتراح الصحابة قاسيا . . حين استأذنوه ﷺ فى عملية جراحية تحبط فى كيانهم عنصر الرجولة !! صادرين فى هذا الاقتراح عن إيمان وثيق بأن التخلى عن ضرورات الحياة . . أسهل من التنازل عن الشرف !!

---

(١) مسلم - ج ٩ / ١٨٢ .

بل إن التخلى عن الحياة نفسها أهون من الخروج على ضوابط الأخلاق !

وكان منطقيا أن يرفض ﷺ ذلك الاقتراح .. لهذه المسوغات:

أ - فهو قطع للنسل يتوقف به تدفق الحياة.

ب- ثم هو تغيير لخلق الله تعالى .

جـ- بالإضافة إلى أنه تعذيب للإنسان .

واقعية الإسلام :

وتلك سمة من سمات الواقعية الإسلامية .. والتى بها يعترف الإسلام بدوافع الإنسان الفطرية وضرورة إشباعها .. ولا تقف واقعيته عند هذا الحد .. وإنما تقدم البديل .. الذى يملأ الفراغ ..

وإلا .. فما أسهل النهى عن شيء.. ولكن .. لكى تتم التجربة كما لا .. لابد من تعويض يشغل النفس قبل أن يفرض عليها الفراغ أن تتحرف !

من أجل ذلك :

يأذن لهم ﷺ فى المتعة :

« بالثوب »

و« بالقبضة من التمر والدقيق .. »

« إلى أجل»

وظل ذلك الحكم سارى المفعول «على عهد رسول الله ﷺ . وأبى بكر . حتى نهى عنه عمر» [١]

وتأمل كيف يفرط المسلم فى وجوده ولا يفرط فى خلقه ..

وتأمل أيضا كيف كان سلفنا الصالح حراسا على الحدود .. حتى لا يتجاوزها المنفعلون .

فقد تصور البعض أن الإذن بالمتعة دائم .. ولكن الغيارى ينهضون مدافعين عن

(١) المرجع والموضع السابق .

حـــدود الله أن يقترب منهـا المتأولون .. مؤكدين أن الضـــرورة تقدر بقدرها .. وأن الإسلام عندمـا أباح المتعـة .. فإنما أباحهـا « لمن اضطر إليهـا : كالميتة والدم ولحم الخنزير»

وأن الأصل هو : الأسرة القائمة على أصولها المسـتقرة المستمرة .. والتى نفئ إلى ظلها . ومن قريب .

«قال ابن شهاب أخبرنى عروة بن الزبير أن عبد الله بن الزبير قام بمكة فقال :

إن ناسـا أعـمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفـتون بالمتعة يعرض برجل . فناداه : فقال :

إنك لجلف . جاف : فلعـمرى لقد كانت المتـعة تفعل على عهـد إمام المتقين يريد رسول الله ﷺ .

فقال له ابن الزبير :

فجرب نفسك .. فو الله لئن فعلتها لأرجمنك بالحجارة .»[1]

وهكذا كانوا يختلفون.. لكنهم ملتزمـون .. ملتزمون بطاعته ﷺ. طاعـة تنحى هواهـــم حتى لا يكون مـستبدا فى قضيـة أســرية ينـبغى أن يكــون الحكم فيها صارما شديد اللهجة على قـــدر ما للأسرة من خطر فى دنيا البشر .

❑ ❂ ❑

---

(١) رواه مسلم - الموضع السابق .

خطر إيثار المنافع على المبادئ

قال رسول الله ﷺ :

«لا تزوجوا النساء لحسنهن . فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن . فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين .
ولأمة خرقاء . سوداء . ذات دين أفضل» (١)

والحديث الشريف تحذير من إيثار الحسن أو المال على الفضيلة عند اختيار الزوجة . . .

وكأنه يحمى الخاطب من نفسه قبل أن يتورط فيما يثمره الجمال أو المال أحيانا من مرارة . .

ذلك بأن الرجل قد تمنعه رجولته أو مروءته من الوقوع فى الخطأ وإن لم يكن متدينا . . أحيانا على الأقل . .

أما المرأة فلا يمنعها من الانحراف إلا الدين . . دون سواه . فإذا كانت جميلة . . أو غنية . . وهى فى نفس الوقت عاطلة من حلية الإيمان . . فلا عاصم حينئذ من الانحراف الذى سيصير هلاكا وطغيانا ينال الزوج منه قسط أوفى . .

ونلاحظ من الحديث الشريف ما يلى :

لاخصومة بين الإسلام وبين الجمال . . فلا بأس مع التدين أن تكون جميلة . . ولذلك أضيف الحسن إليهن . . فقال :

«حسنهن» ولم يقل الحسن بإطلاق . .

وإنما هو الحسن المضاف إلى امرأة قد تسيء استغلاله !

ثم إنه ﷺ يقول (فعسى . .) أى لأنه الأمر ليس قاعدة . . وإنما قد يكون من

---

(١) رواه ابن ماجه .

وراء الجمال الوبال . . وأحيانا . . ووبالا ... فما أكثر الجميلات المتدينات . . الجامعات بين الدين والدنيا فى مزيج . اعتدل به مزاج البيت . .

والحسن . . ليس محبوبا لذاته . . وإنما لتحقيقه غايته . . فإذا حققها أنسا للزوج وإمتاعا . . فبها . . وإلا كان نقمة ووبالا . .

من أجل ذلك كانت وصاته ﷺ :

«فاظفر بذات الدين»

وفى هذا الحديث:

«ولأمة خرقاء . . سوداء . . ذات دين أفضل»

ولاحظ:

أنها ليست مجرد متدينة . . بين ملايين المتدينات . .

ولكنها: صاحبة دين . .

إن العاملة فى مصنع . . مجرد عاملة . .

أما صاحبة المصنع فهى حرة التصرف . . مطلقة اليد . . تفعل ما تشاء . .

فهى صاحبته . . ليست غريبة . . ليست طارئة . . وإنما هى صاحبة بيت . .

والدين حارس يقظ . . ملازم . . يمنعها من أن تندفع . . كأنها السيل . . ومن أن تندلع . . كأنها النار . .

وفى الوقت الذى تنطفئ فيه الرغوة العائمة الهائمة لدى العشاق الوالهين الواهمين فيبدو المحجوب من العيون . ويظهر المستور من الأمور . . يظل الدين بثمرته من الرحمة والمودة ناشرا ظله على البيت بما فيه . . ومن فيه .

بل إنها ليست فقط . . متدينة . .

وليست . . فقط صاحبة دين . .

لكنها «ذات دين» . . نفس الدين:

كأنما تعيشه . . تتنفسه . . تتمثله . . وعليه حياتها ومماتها . فمن أين تهب على البيت رياح التغيير؟ . . بينما ذات الدين . . هناك تجعل من البيت جنة ذات قرار

ومعين .

ولا نقول ذلك كلاما . . وإنما هى الوقائع الشاهدة بصحة الدعوى: ليتخذ الشباب إلى ذات الدين سبيلا إلى السعادة التى يرجون . .

ولك أن تسأل الآن: ما هو أثر الدين فى حياة الزوجين . . وكيف يجعل من الزوجة المؤمنة واحة وارفة الظلال ؟

ويجيبك الواقع بما كانت عليه ذات الدين من خلال جعلت منها مثلا يحتذى:

فهى مع زوجها فى ساعة العسرة نعم المعين على أمر الله . .

وهى بمالها سند له فى محنته . .

باختصار: هى تلك الزوجة «التى تسره ! إذا نظر . وتطيعه إذا أمر . ولا تخالفه فى نفسها ولا ماله بما يكره» [1]

وتلك كانت إجابته صلى الله عليه وسلم . . والتى حددت بها معالم الزوجة المثالية كما يجب أن تكون:

فهى من الناحية المادية . . جميلة . .

ومن الناحية الاجتماعية: مطيعة

ومن الناحية الخلقية: أمينة . . حافظة للغيب .

وتلك هى المهمة العظمى والتى لا يساعد على تحقيقها إلا الدين . . بما فيه من ثبات ويقين .

❑ ● ❑

(١) رواه أصحاب السنن

مشكلة عائلية

«أتى رجل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال:

إن ابنة لى كنت قد وأدتها فى الجاهلية . فاستخرجناها قبل أن تموت . فأدركت معنا الإسلام . وأسلمت .

فأصابها حد من حدود الله . وأخذت الشفرة لتذبح نفسها .

فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها. فداويناها حتى برئت . ثم أقبلت بعد توبة حسنة .

وهى الآن تخطب إلى قوم . . أأخبرهم بالذى كان ؟

فقال عمر:

أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه ؟!

والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس . . لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار .

أنكحها نكاح العفيفة المسلمة»

تمهيد

عندما عزل عمر- رضي الله عنه - خالد بن الوليد رضى الله عنه . . وهو فى أوج انتصاراته . . تحدث الناس عن فتنة وشيكة الوقوع . . وهو الأمر الذى حسمه خالد بقوله المنصف:

لا فتنة . . وعمر حى !

وإزاء مشكلة اليوم . . على ما فيها من تعقيد . . إلا أننا نقول: لا مشكلة . . وعمر هو القاضى !!

ولكن ما هى القضية من خلال هذا الموقف ؟

إن رب الأسرة يتحدث هنا عن ماض تولى:

لقد كان مشركا .. ثم تاب توبة عظيمة من هذا الظلم العظيم .. :

من الشرك .. ومن تداعياته .. من حيث كان واحدا ممن إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا .. ولا تنتهى آلامه إلا إذا واراها التراب .

ولقد كان القدر الأعلى يخبئ لرب الأسرة مفاجأة .. حين صحا ضميره يوما .. فأنقذ موءودته قبل أن تموت .. ثم أسلمت ..

ولكن الشيطان المريد الذى لم يفلح فى صد الأسرة عن الإسلام .. لم يفقد الأمل فى تدبير مؤامرة أخرى .. لعله أن يصيب من الأسرة مقتلا .

فكان أن زلت قدم الفتاة بعد ثبوتها .

لقد تلبدت السماء بالغيوم .. وذهبت السكرة وجاءت الفكرة .. شلالا من الندم على ما قدمت يداها .

ويبدو أن هذا الندم كان فوق احتمالها .. فقررت الهروب منه بالانتحار ! والذى باشرت مباديه فعلا ..

وقد تداركها من الأسرة نجدة أبقت على رمق الحياة فيها ..

ويؤكد رب الأسرة هنا حكمته حين لم يقتلها .. ليزيد المشكلة تعقيدا .. وإنما أنقذها من الموت .. شاهدا بحسن توبتها .

المشكلة .. والحل

إن الوالد هنا شديد الشفقة بابنته التى خرجت من [illegible] ولكن غريزة الأبوة قد تكون من وراء هذه الشهادة .. فالوالد بحكم هذه الغريزة [illegible] لابنته ..

وإذا كانت بنات الأفكار .. جميلة فى أعيننا .. وإن كانت [illegible] .. فإن «بنتى» كذلك من بنات أفكارى .. فهى إذن أجمل [illegible] مهما كانت درجة جمالها وكمالها .

لكن الذى يؤرق ضمير الوالد هنا :

كيف يبرم عقد النكاح على ما فيه من [illegible]

وإذا كان بعض الناس اليوم يشهدون الزور .. وهم يتعاملون مع هذا الميثاق الغليظ .. فقد كان رب الأسرة هنا على غاية ما تكون الأمانة .

ويجيئه الرد العمرى حاسما :

أ - تحذير شديد الله جة .. من إذاعة سرها .

ب- أن يزوجها زواج العفيفة المسلمة .

وكان هذا الحكم العمرى منطلقا من روح الإسلام التى تؤكد أن المذنب قد يعود بالتوبة أفضل مما كان ..

إن الله تعالى سخر حملة عرشه ليستغفروا التائبين .. ولكن ناسا .. لا يرحمون .. ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل ..

❑ ● ❑

◘ ○ ◘ الاختيار وسنة الله في الكون ◘ ○ ◘

كان «المحلق» أبا لثماني بنات عوانس . رغب الرجال عن خطبتهن لفقرهن .

فأضاف «الأعشى» الشاعر . وبالغ فى إكرامه .

وفى سوق عكاظ رد الأعشى جميل «المحلق» حيث مدحه ونوه بكرمه على رءوس الأشهاد .

وما زال يمدحه فى كل المجامع . . مدحا توج فى النهاية بزواج كل بنت من بناته بسيد من العرب كريم .

ماذا نحن قائلون تعليقا على هذا الموقف؟

لقد كان العربى الأبى يقول :

إذا دخلت بيتى : فأكلت رغيفا . . وشربت عليه ماء . . فعلى الدنيا العفاء (التراب) وإذا كانت النفس الإنسانية مصدر الحق والباطل معا . . فقد كان العربى ذلك الإنسان القانع . . بكسرة الخبز . . وشربة الماء . . لكنه هو نفسه الذى يدخل بيت غيره ليخطب ابنته . .

وربما أعجبه القوام الفارع . ولكن لأن الكيس فارغ فإنه يصرف النظر عن خطبة ولدت . . لتموت . .

فلا مال هناك . . بل إنه الفقر الصارف عن القيم . مهما كانت نفاستها . . وإذا كان من قوانين الحياة العربية : كيف يكون الأبناء أحرارا . . بينما أمهاتهم عبيد فقد كان من قوانينها أيضا؟ كيف يكون الأولاد أسيادا . . وأمهاتهم فقراء؟!!

المحلق .. ضحية الفهم الخاطئ :

ولقد كان صاحبنا من ضحايا هذا الفهم الخاطئ لطبيعة الزواج . . ولقد كانت الخسارة فادحة . . وكان الهم مقيما :

ولو كان هما واحدا لاحتملته ... ولكنه هم . . وثان . . وثامن !!

وأنت خبير بحجم هذا الهم المقيم إذا تصورت أنهن ثمانية . ومن البنات . . ولو كانوا ثمانى من البنين تأخرت وظائفهم لهان الأمر . . ولكنهن «بنات» . . ضعيفات . . انطفأ فى وجوهن القنديل . . بعد ما زفت القريبات . . والزميلات . . وبقين خلف قضبان البيت . . وفى قبضة اليأس القاتل . .

ولا تنس كرب الأم التى ترى زهور بستانها تذبل . . ولا حيلة لها فى الأمر . .

وذلك الوالد الذى تحمل هم الكارثة . . والتى تصرخ فى كيانه غريزة الأبوة مع الصارخين :

وأولادنا مثل المشاعر : أيها
فقدناه .. كان الفاجع البين الفقد
هل السمع بعد العين يغنى مكانها
أو العين بعد السمع تهدى كما يهدى؟!!

وقد تموت البنت . . ومع الأيام يخف الأسى . .

ولكن : أن يموت الثمانية . . وهن أحياء . . فتلك هى الفاجعة ! إنه الفقر . . ولو كان الفقر رجلا لقتلته !

الوالد يتحمل المسئولية :

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة . . فقد قرر الأب هنا أن يلجأ إلى الإعلام . . أو الإعلان . . عن طريق الأعشى . . والذى نادى بشعره فزين البضاعة المزجاة . . التى تدافع إليها الخاطبون !

درس فى الحياء :

ويبقى درس الحياء . . والذى بدونه لا تكون حياة :

لقد فضلت البنت «العنوسة» على العبث . .

لقد كانت هناك طرق خلفية تسكت بها نباح الغريزة فى كيانها . . بإعطاء عابر السبيل تلك الفاكهة المحرمة قبل أوانها . . وبغير حساب لعقبى التسرع . . والغفلة

عن العواقب تحت ضغط الرغائب !

إنها «العلياء» التى لا تنال إلا بالشرف والتضحية:

ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

قيمة البر:

وتبدو قيمة البر فى إحالة القضية إلى الوالد .. ليتصرف .. بحكم سنه وتجربته .. ليتم الانسجام مع الكون حولنا بهذه التبعية التى هى لنا .. وليست علينا:

يقول المجربون:

«إن نظام الكون يقوم على تبعية الصغير للكبير . والدوران حوله: فالأرض تتبع الشمس .. وتدور حولها . والقمر يدور حول الأرض . ويتبعها .

والمجموعة الشمسية كلها تدور حول المجرة .

ونفس الشيء فى الذرة: فالإلكترون المتناهى فى الصغر . يدور حول نواة الذرة الأكبر .

وهكذا فى مجال المجتمع: يتبع الصغير الكبير ويدور فى فلكه»

ومن شذ عن هذا القانون .. شذ فى النار .. نار التمزق والضياع ..

نار الدنيا .. قبل نار الآخرة !

□ ● □

◻ ● ◻ دروس من بيت الفاروق ◻ ● ◻

إذا كنا قد سلطنا الأضـواء على موقف «المحلق» وكيف احتال لزواج بناته . . وتم له ما أراد من زواجهن؟

فإنا . . نذكر موقف عمر - رضى الله عنه - . . حين تأيمت ابنته «حفصة» - رضى الله عنها - . . فماذا فعل - . . وإلى أى حد كان الفارق هائلا بين تصرفه . . ومسلك «المحلق» وإن دار الموقفان حول محور واحد ؟

عن عبد الله بن عمر أن عمر - رضى الله عنهما - . حين تأيمت بنته حفصة . قال:

لقيت عثمان بن عفان . فعرضت عليه حفصة . فقلت:

إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر . قال: سأنظر فى أمرى .

فلبثت ليالى . ثم لقينى فقال:

قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا .

فلقيت أبا بكر الصديق . فقلت:

إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر .

فصمت أبو بكر . فلم يرجع إلى شيئا . فكنت عليه أوجد - أغضب - منى على عثمان .

فلبثت ليالى . ثم خطبها النبى ﷺ . فأنكحتها إياه .

فلقينى أبو بكر فقال:

لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا .

فقلت: نعم . . فقال: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك شيئا . حينما عرضت على . إلا أننى كنت علمت أن النبى ﷺ ذكرها .

فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلي الله عليه وسلم .

ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها .[1]

تمهيد

كان عمر - رضى الله عنه - يقول:

النساء ثلاثة:

هينة . لينة . عفيفة . مسلمة:

تعين أهلها على العيش . ولا تعين العيش على أهلها .

وأخرى: وعاء للولد .

وأخرى: غل قمل: يضعه الله فى عنق من يشاء . ويكفه عمن يشاء[2] .

ولقد كان رضى الله عنه وفيا لمبدئه . . حين سار فى اتجاه فطرته وهو يختار لولده عاصم الهينة . اللينة . العفيفة المسلمة . . وهى الفتاة التى حذرت أمها من خلط اللبن بالماء .

وحين أراد أن يخطب لابنته كان يزن أقدار الرجال بنفس الميزان:

لقد تخطى الحساسية العربية التى ترفض عرض البنت . . مؤثرة بوارها على أن تكون: بضاعة مزجاة . . فاتخذ القرار الصعب وهو: أن يتولى بنفسه عرضها على كفئها . . صادرا فى هذا العرض عن روح القرآن فى قصة الشيخ فى مدين . . والذى عرض على موسى زواج إحدى ابنتيه . .

وهو بهذا يسكت بإسلامه مقاومة نفسه كعربى أبى . .

وتظل صورة بنته العزيزة . . المكسورة الخاطر . . قابعة فى زاوية من زوايا الدار . . تظل تطارده فى الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس . .

---

(١) البخارى ج ٧/ ١٧ ط الشعب .

(٢) [illegible]

من مظاهر الحكمة العمرية:

أ - كان - رضى الله عنه - فى أخذه الأمر على عاتقه - تفسيرا لقوله ﷺ : «لا تزوج المرأة نفسها . فإن الزانية هى التى تزوج نفسها»[1]

ومع ضغوط الموقف . . لكنه لم يتسرع . . وإنما درس القضية . . ثم وازن بين الرجال . . فقرر أن يعرضها على عثمان أولا . . فقد ماتت زوجته رقية . . وطال عليه أمد الاغتراب . . وإذن فهو نسب الأصحاب .

ب - ثم إنه - رضى الله عنه - يعلم:

أن «من زوج كريمته من فاسق . فقد قطع رحمها» [2]

وها هو ذا يصل رحمه بعرضها على خير الصحاب:

فعثمان - رضى الله عنه - هو الذى قال فيه ﷺ :

«والذى نفسى بيده لو أن عندى مائة بنت .. يمتن واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى» [3]

وإذن . . فهو فى محاولته لا يريد التخلص من حمل ثقيل يئود ظهره . وإنما يتخير لابنته من إذا أحبها أكرمها . . وإذا كانت الأخرى . . لم يظلمها . . هذا الذى أفنى عمره فى عمل الخير .

جـ- ثم كرر - رضى الله عنه - المحاولة مع أبى بكر - رضى الله عنه - .

والذى كان أوجد عليه من عثمان - رضى الله عنه - . .

ولم يشأ عمر - رضى الله عنه - أن يصعد الموقف ليتحول إلى هجوم على الصاحبين . .

ولكنه فقط احتفظ لنفسه بمجرد الغضب الذى لم يفجره ليكون معركة كلامية ومبارزة خطابية موقنا فى نفس الوقت أن الأمور وإن لم تجر على هوانا . . فإن ذلك

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه ابن حبان .

(٣) شرح الزرقانى / ج٣ / ٢٠٠ .

حكمة أرادها الله تعالى .. فما اعتـذر الخاطب .. ولا فشلت الخطبة إلا لأن شريك الحياة .. واحد بالذات .. واقف لنا على مفترق الطريق ولن يصيبنا إلا ما قدر لنا .

د- ولقد كان من حكمة الفـاروق أن يعرض همومه على الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ .. والذى صار من بعد زوجا لحفصة رضى الله عنها - .. مؤكدا ضرورة إحالة القضية إلى قاضيها .. والقوس إلى باريها ..

ويبقى أن نشير إلى أن راوى الحديث هو ابن عمـر شقيق حفصة .. يرويه بكل أمانة على ما فيـه من حساسية .. ولكنها النفوس التى تدور مع الحق كـيفما دار .. ولا يضيرها تقول الصغار !!

❑ ● ❑

خلاف لا يفسد للود قضية

من بين ما أدرك الناس من الحكمة الأولى قولهم:

«ثلاث لا تؤخرها:

الصلاة إذا أتت . والجنازة إذا حضرت . والأيم إذا وجدت لها كفؤا»

وهكذا فعل الفاروق عمر- رضى الله عنه -:

لقد جاس من قبل خلال ديار المدينة عارضا «حفصة» على رفاق من الصالحين.

وإنه اليوم لأسعد حالا عندما يأتى الخاطب طواعية ليدق عليه بابه . . يخطب إليه ابنته . . لقد قبل أن يكون سلمان زوجا لابنته . . التى دعوه بها .

ولكن . . تأتى الرياح لما لا تشتهى السفن . .

والقصة هنا:

«أن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - خطب إلى عمر - رضى الله عنه - ابنته فوعده بها .

فشق ذلك على عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

فلقى عمرو بن العاص رضى الله عنه . فشكا له ذلك .

فقال عمرو: سأكفيكه .

فقال عمرو لسلمان: هنيئا لك يا أبا عبد الله: أمير المؤمنين يتواضع لله عزوجل فى تزويجك ابنته .

فغضب سلمان وقال: لا والله . . لا تزوجت إليه أبدا»

وهكذا انقسم البيت على نفسه انقساما ترتب عليه فسخ الخطبة .

لقد وعده الوالد بالزواج منها . . وهو منطقى مع نفسه التى تحمل همها بالليل والنهار .

ثم هو من ناحية أخرى قد وعد سلمان .. ووعد الحر دين عليه .. فكيف إذا كان مع ذلك مسلما ؟

إن له من إسلامه وكرامته داعيين إلى الوفاء بعهده ...

وصحيح أن الفارق الاجتماعى قد يكون واسعا .. مانعا من التكيف .. والانسجام .

وصحيح أيضا أن الوضع الاقتصادى بين الأسرتين قد يكون بعيدا إلى الحد الذى قد لا يطيب له عيش فتاة نشأت بين أحضان النعيم .. ثم بها من الفقر فى عذاب مقيم ..

ولكنه عمر: والذى يعى قوله تعالى:

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1].

ويعنى أيضا: ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[2].

ويعنى ذلك:

أن المسافة الواسعة بين الزوجين .. قد يمتد فى فراغها خلق كريم يعزز [illegible] الخاطب الذى يملك من كنوز الأخلاق ما يربو على المنصب .. وعلى المال .. [illegible]

هكذا تصور عمر – رضى الله عنه – القضية .. وعلى هذا الأساس [illegible] بسلمان زوجا لابنته ..

ولكن الشباب من الأولاد لهم تصور آخر .. ومن ثم تذمر الابن عبد [illegible] حمله على الاستعانة بعمرو الذى تطوع بهذه الحيلة التى فض بها [illegible] الأسرتين ..

ومثل ذلك يحدث اليوم .. وما يترتب عليه من إفرازات [illegible] قريبا .. وبخاصة عندما تنتصر إرادة الوالد فيتم الزواج رغم أنف المعترضين ..

ثم يدعى [illegible] الزوج الجديد ما حدث بالفعل .. فتبقى فى كيانه بقايا مرارة ..

(١) الحجرات: (١٣).

(٢) النور: (٣٢).

لا يتم معها الانسجام مع المعارضين الذين استسلموا لقرار الزواج رهنا .

ولكن . . كم نحن بحاجة إلى عودة إلى الماضى . . وفى مثل هذه القضية . . لنتلقى دروسا تكفكف من توترنا حين لا تتم الخطبة . . لحكمة يعلمها الله تعالى . . وكيف كان فسخ الخطبة تسليما بهذه الحكمة البالغة . والتى تحملنا على الرضا بقسمنا . . فرارا من حرب الأعصاب .

خطب سعيد بن العاص «أم كلثوم» بنت على - رضى الله عنهم ـ وبعث لها بمائة ألف .

ولكن الحسين - رضى الله عنه - . رفض زواجها منه .

ولم يغضب سعيد . . بل وترك المهر !!

وقال الحسين لأخته: لا تزوجيه .

ولكن الحسن قال: أزوجها . واتعدوا لذلك . . وحضروا .

ثم سأل سعيد:

وأين «أبو عبدالله » يعنى «الحسين»؟ فقال الحسن:

سأكفيك . . فقال سعيد:

فلعل أبا عبدالله كره ذلك ! قال الحسن: نعم

فقال سعيد:

لا أدخل فى شيء يكرهه . . ثم لم يسترد ما دفعه .

وهكذا كان الخاطب رقيق الشعور . . ذكى العقل . . فسلم بالواقع راضيا به . . وعلى الرضا مزيد من هذا المهر العظيم . .

هذا المهر الذى اشترى به احترام الحسن والحسين معا . . حين لم يجعل من الرفض بداية لمعركة ساخنة تنتهى بهزيمة الفريقين . .

ومن وراء ذلك كله التسليم بأمرالله تعالى تسليما يؤكد أن الخيرة فيما اختارهالله . . وإن يتفرقا يغنِ الله كلا من فضله .

❑ ❁ ❑

حتى تظل العمامة بيضاء

كان الشاعر العربى «ابن أبى المولى» يبكى على ليلاه .. فلما سمعه «عبد الملك بن مروان» رق له قائلا:

من هى ليلاك ؟

إن كانت حرة .. زوجناكها . ودفعنا مهرها .

وإن كانت أمة .. أعتقناها بأى ثمن .. فقال له الشاعر:

يا أمير المؤمنين: إنها قوس ..

أي إنه يتغـزل فى قوسه أو رمحـه .. تعبيرا عن فطرة الغـزل لدى العرب .. والشعراء منهم بخاصة .

وهكذا كانوا:

إذا لم يجد العربى من يقاتله .. قاتل أخاه !

وأحيانا على بكر أخينا ... إذا لم نجد إلا أخانا

وإذا جمح بالفارس تهوره .. فقاتل أخاه ..

وإذا بذل فطرة الغزل .. فناجى سيفه ..

فليس من حقه أن يجعل من شعره صقرا يصطاد به العصافير:

العصافير من بناتنا اللاتى يغرهن الثناء .

كما يحـدث اليوم حين يدعو الفتى البـنت إلى رحلة خلف النجوم .. ليكتب فوق النجوم .. والشجر والنسيم .. وماذا يكتبان ؟: إن الحياة بدون الهوى .. حياة بلا حياة ! .. ثم يحلق بـها بعيدا .. لتفـتح عينيها بعد فـوات الأوان .. لتجد أن الهوى .. بألفه اللينة: معنى طرى .. رخو يمثل الطراوة والخنوع والالتواء من كل ما يفسد الحياة .. أما ما تكون به الحياة فعلا فهو: الهواء .. بهمزة القطع بكل ما تشى

به من صرامة وحسن واستقامة وإباء .

ولقد كان للبنت عندئذ من دينها .. ومن إبائها مانع يحول بينها وبين الوقوع في الشبكة المنصوبة !

أجل كان لها - إن لم يكن دين - .. كان لها من شرفها .. ومن حرصها على أن تظل عمامة أبيها بيضاء .. ما يصون كرامتها .. وناهيك بالشرف مانعا من السقوط .. وأصلا بالإنسان إلى الارتفاع فوق مطالب الجسم وحاجاته الفطرية .. لما قتل على - رضى الله عنه - الطاغية «عمرو بن ود» .. حزنت أخته حزنا شديداً ..

ومن خلال هذا الحزن المخيم .. كان هناك بارق من السكينة لأن من قتله كان شريفا .. كفءًا له: وقد قالت فى ذلك:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله

بكيته أبدا ما دمت فى الأدب

لكن قاتله من لا نظير له

وكان يدعى أباه بيضة البلد !

إن الفتاة هنا واحدة من ثمرات العروبة المتأبية على أن تكون كلأ مباحا .. وأن نوازع الفطرة وإن ناوشتها من قريب إلا أن الشرف كان أغلى منها ..

وتذكر هنا موقف أبى جهل عندما اعتلاه ابن مسعود رضى الله عنه فى بدر.. وكيف أشار أبو جهل إلى سلاحه هو ليتناوله ابن مسعود فيقتله بسلاحه هو .. لا بسلاح ابن مسعود؟!

ونذكر أيضا من صور الإباء أنه:

لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة . ذهب إلى دير «هند بنت النعمان - وكانت عمياء مترهبة [(١)]

(١) ترهبت قبل قتل أبيها لزوجها عدى بن زياد . ولما فتح خالد الحيرة طلب منها أن تسلم ليزوجها مسلم فرفضت فكرة الزواج .

فاستأذن عليها . فقالت: من أنت ؟ قال:

المغيرة بن شعبة الثقفى . قالت:

ما حاجتك ؟ قال:

جئت خاطبا !! قالت:

إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا مال . ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب تقول:

تزوجت بنت النعمان .

لاخير فى اجتماعنا !!» (١)

وهكذا . . تفضل المرأة العربية - حتى فى غيبة الإيمان - تفضل أن تموت بيطء على أن تعرض سمعة العائلة للقيل والقال . .

إننا فى حاجة إلى خبرة الولى . .

وإلى عزة البنت . .

ومنها معا يؤتى الاختيار أكله:

لقد أنعم الله تعالى علينا: بالماء والدقيق . .

وواجبنا نحن: أن نصنع منهما رغيفا !!

❑ ● ❑

(١) أعلام النساء لعمر كحالة .

○ الامتحان الصعب ○

مر رجل على النبي ﷺ فقال:

ما تقولون في هذا ؟

قالوا: حرى إن خطب أن ينكح . وإن شفع أن يشفع .وإن قال أن يستمع ثم سكت .

فمر رجل من فقراء المسلمين . فقال ﷺ

ما تقولون في هذا ؟ قالوا:

حرى إن خطب ألا ينكح . وإن شفع ألا يشفع . وإن قال ألا يستمع .

فقال رسول الله ﷺ

«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[1]

والموقف هنا امتحان عملى في تقدير الرجال . . واستبعاد الشارة البادية أن يكون أساس الحكم لهم . . أو عليهم . .

والحديث يرسم المسافة البعيدة . . والفرق الهائل بين رجل . . ورجل . .

إلى هذا المدى البعيد الذى قد يزن فيه رجل واحد . . ملايين ممن يزحمون الأرض .

وهو المعنى الذى ألمح إليه الشاعر القائل:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا ... إلى المجد . . حتى عد ألف بواحد!

وتلك هي السنة النبوية في تقدير الرجال . . وما أكثر الزاهدين فيها . .وهم لا يشعرون . . في زمان:

---

(١) رواه البخاري .

البدعة فيه .. قائمة .. بينما السنة نائمة .

وقد يحاول المخلصون إيقاظ النوام بما بقى لديهم من صبابة الحياة ..

ولكن العادة تظل لدى البعض قبل العبادة .. إلى حد تتعجب فيه متسائلا مع المتسائلين :

هل هذا الخلف المائع .. من ذرية ذلك السلف الرائع ؟!

لمحة البصر

ونظرة البصيرة:

إنه الفرق بين لمحة العين المجردة المفتونة بالمظاهر .. ونظرة البصيرة الباحثة عن المخابر ..

وهو الامتحان الصعب الذى سقط .. ويسقط فيه السطحيون ..

وعليهم يرد هذا الأديب وهو يتحدث عن الأحنف بين قيس منوها بالقيم الأصيلة في قلبه.. والتى قد تغيب فى الزحام فلا يستبينها المتسرعون ..

وعلي أى حال فهو درس بليغ فى وزن الرجال .. قال:

«لقد كانت حياة الأحنف حافلة بالمواقف والبطولات:

وحين تقع العين على الأحنف فى الزحام ..لن ترى شيئا يدعو إلى التلبث والتأمل .

ستجد العين واحدا من أفراد الكتيبة النامية: أشعث أغبر ليس فى ملبسه.

ولا شكله الخارجى ما يميزه عن فقراء المسلمين .

فإذا جعلنا من ملبسه وشكله الخارجى دليلا إلى حقيقته ..

فلن تبصر شيئا .

فإن عظمة هذا الرجل أكثر أصالة من أن تتبدى فى مظهر من مظاهر الترف.

لا مكان له بين الذين أوتوا بسطة من المال أو الجمال أو الجاه .

فهو من المال: معدم ..

وفي الجسم: ناحل . .

وفى الجاه: مغمور

ولكن الإسلام يمنحه مكان الفقر نصيبا رابيا من خزائن كسرى .

وكنوز قيصر .

ويمنحه مكان ضمور جسمه . وضعف بنيانه إرادة قوية تسهم فى تغيير مصير التاريخ .

ويمنحه مكان انزوائه خلودا وشرفا يجعله فى الصدارة بين الأعلام .

فهو من الرعيل الأول . الذى صهره النضال . وصقلته التجربة .

وعانق الإسلام رغبا . . لارهبا . . وباع لله نفسه وماله .]

ويالها من مواصفات . . تبرز من خلالها لولى الفتاة أن فى الأعماق كنوزا . . ينبغي أن نغوص وراءها . . لنميز الخبيث من الطيب . . ونحن نتخير لأعزائنا . .

ومـا أكثـر الذين تبهـرهم أضـواء الشهـرة . . وإغراء المال . . يلوح به فـارس الأحلام . .

وقليل هم الذين يكابرون هذه الأضواء . . وذلك الإغراء إيثارا للقيم التى تبقى بها البيوت قائمة على أصولها . . فاردة شراعها فى رحلة مضمون النجاح .

❑ ● ❑

○ ○ الاختيار بين نظرتين .. ○ ○

يريد الإسلام للعلاقة الزوجية أن تكون دوما .. لا يوما .

وإذن فلا بد من التريث في الاختيار .. لتستمر .. ثم لتستقر ولنا فى أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - شاهد:

فقد كانت فى سن الأربعين فالعمر يحتمى التأخير ثم إنها بلا زوج يلبى حاجتها الفطرية وكانت مع ذلك موسرة ومن شأن اليسار أن يحمل على التطلع إلى المزيد من متعة الدنيا .. ومع ذلك تريثت فى قبول الخطاب ..

من أشراف العرب . تقديرا منها لتلك العلاقة ..

فلما وجدت أملها فى محمد ﷺ .. عرضت هى نفسها عليه .. بلا حساب لكلام الناس .. وما دام الأمل قد تحقق ووجدت ضالتها المنشودة ..

أما نحن اليوم:

فقد فسدت مقاييس الاختيار بعد الغزو الثقافى الوافد علينا من كل جانب .

والذى يستهدف تعكير التراث الإسلامى الجدير بإسعادنا . بإمدادنا بأسباب الحياة .

ولقد كان الواقع أصدق إنباء علي فشل التجارب التى تنكبت طريق الإسلام.. حين ركبت متن الشطط .. والانبهار ببريق الذهب ..

وزادت نسبة الطلاق فى بيوت تعيش فى مستويات اقتصادية عالية ..

والذين جمعهم الطمع .. فرقهم الطمع ..

والذين أرسوا بيوتهم على نظرة فابتسامة .. تهدمت بيوتهم بعد أن غابت الابتسامة .. وانكشفت الرغوة العائمة عن طبائع مظلمة لا تصلح لعمارة البيوت .

توجيهات راشدة :

ولا بد لنا من عودة نستروح بها نسائم الماضى . . فى محاولة للوقوف على سنة الراشدين فى مجال الاختيار . . لنصحح الوجهة :

جاء فى كتاب «مفيد العلوم»:

[كان المحدث المعروف «سفيان بن عيينة» جالسا . .

فجاء إليه ابن أخيه يخطب ابنته . فقال له عمه:

كفء كريم . . اجلس .

فلما جلس سأله «سفيان» أن يقرأ عشر آيات من كتاب الله

فقال: لا أستطيع .

فسأله أن يروى عشرة أحاديث شريفة .

فقال: لا أستطيع .

فقال له: إذن . . انشد عشرة أبيات من الشعر

فقال: لا أستطيع .

فقال له عمه:

علام أضع ابنتى عندك ؟!

ومع ذلك لا أخيبنك . . وأمر له بأربعة آلاف درهم .

ثم اعتذر عن مصاهرته»

ولكنه يحاول الكشف عن مكنون نفسه ليعلم اهتماماتها واتجاهاتها . .

بغض النظر عن وضع الخاطب المالى . .

وبصرف النظر أيضا عن كونه ابن أخيه . .

فالمال . . والقرابة . . لا يشكلان عصبا حساسا فى علاقة الزواج . .

والمهم هو المعدن الأصيل . . والنفس المشغولة بمعالى الأمور متمثلة فى حفظ القرآن الكريم والسنة المطهرة . . وما رق من شعر الحكمة . . الدالة بهذه الرغبة على

عشقها للكمال . .

فإذا ما توفرت هذه الرغبة فى صدر الفتى . . فما فاته عندئذ شىء يبكى عليه . . وسوف تأتيه الدنيا راغمة . . بقدر ما تسعد ابنته فى أحضان قلب ودود . .

أثقل فى الميزان من كل متاع الدنيا .

ولكن الوالد البار بابنته . . كان فى نفس الوقت بارا بابن أخيه . .

فإذا لم يصلح لابنته فقد يصلح لأخرى هى قسمه الذى أراده الله تعالى له . .

من أجل ذلك يعطيه من المال ما يعينه على الزواج . . صلة لرحمه . . ولم يتفلت من مسئوليته بحجة أنه رسب فى الامتحان !

وهكذا يدقق ولى الأمر . . ولا يفتح الباب لأول طارق . .

بل إن اهتمام الولى بابنته بلغ حد اعتبار الشكل العام عند الخطبة . .

وفى الأثر عن عمر- رضى الله - عنه:

«يعمد أحدكم إلى ابنته فيزوجها القبيح . .

إنهن يحببن ماتحبون»!!





الفصل الثاني

الجمال في الميزان



□ ○ □ قبل أن يذهب الجمال □ ○ □ بأحلام الرجال

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١) .

لأن الزواج علاقة أبدية تربط الإنسان بشريك مختلف فى النشأة والاتجاه . .

ولأنه استجابة لغريزة الجنس . . وغريزة الأبوة والأمومة . . والاجتماع .

لأنه كذلك . . فلابد أن يجيء قراره بعد روية وتفكير . . فرارا من نكسة لا تحمد عقباها . .

إن الذين يتسرعون فلا يستبصرون . . . إنما يبنون الدار على موج البحار وإذن . . فما لها من قرار . .

وأين هؤلاء المتسرعون من تلك الفتاة المؤمنة . . والتى أسلمت زمامها إلى فكرها . . ولم تسترسل مع قلبها حين أخذ رأيها . فكأنها تقول :

الحب فى قلبى . . يفكر !

ليس قلبى سلعة معروضة للبيع . . يفتح بابه لكل طارق . .

وإنما قلبى فى صدرى زهرة . . لا يستطيع أحد أن يقطفها إلا بحقها !

إنها الروية المستأنية . . والتفكير السديد يقودالخطى إلى السعادة . . حتما . . وهو سمة من سمات الأخيار :

يقول الإمام على رضى الله عنه :

إذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر . . فإنه لا يفكر إلا فى خير . .

وإذا سألت لئيما حاجة فعاجله . . فإنه إن فكر . . عاد إلى طبعه !!

---

(١) الروم : (٢١).

قبل أن يطيح الجمال بأحلام الرجال :

وقد يكون جمال المرأة طاغيا . . يستخف القلوب للظفر بالمحبوب . .

وهنا لا يصادر الإسلام رغبة الإنسان فى طلب الجمال . . لكن الحذر أن يقع أسيرا فى يد الجمال . هو مطالب . . كما تشير الآية الكريمة بالتفكر . . ولكن . . لماذا نتفكير ؟

إن مجموعة من الغرائز تناوشك . . . هى : حب الذات . . وحب الجمال . . وحب المال . . والاجتماع . . وإذن . . فلابد من التفكير :

من التأمل . . والموازنة . . ثم الاختيار . .

إن الإسلام الذى حارب الجمود بقوله ﷺ

لرافض الزواج : أنت من إخوان الشياطين . .

هذا الإسلام لا يريد للنزوة . . للغريزة أن تتحكم فيك . .

ليتحقق بذلك مقصود الزواج :

إن العواطف الملتهبة . . تنس الزوجين قدسية الواجب . .

وإنما هى المودة . . والرحمة . . والسكن . .

هذه الظلال الدائمة . .

وقد يشيخ الزوجان . .

ولكن الزمن سوف يتلاشى . . ويبقى الود القديم . .

إن فى مملكة الطيور والحيوان عجبا :

فهناك أنواع من الطيور . . تبنى العش . . السكن . .

تختار أغصانا من أربعين نوعا من النبات . .

هذا النبات :

أ - المعقم .

ب- ورائحته طيبة .

جـ- وبه مانعات من هجوم الحشرات .

وأحرى بالإنسان أن يكون أهدى من الحيوان:

إلا إن التفكير السديد ليهـديـنا . .آخذا بأيدينا إلى هناءة العيش . . وراحة البال والتى لا تتحقق بحيازة المال . . ولا برواء الجمال . .

ولكن . .بحيازة الأخلاق . .

بما نفعل . . لا بما نملك . .

وبما نبذل . . لا بما ندخر . .

إن العواطف الفائرة قد تبحر بنا بعيدا . . ويرمح بنا الخيال .

الجامح هنا وهناك . وراء الظلال والجمال . .

وفجأة . . ولأننا لم نكن فى البداية جادين . . فـجأة . . تهب أعاصير الرياح بعدما أوشك أن يغمرنا نور الصباح !

وما أسعد أمتنا بفتاة هى هند بنت الحسن . . والتى قيل لها:

أى الرجال أحب إليك؟

قالت: البعيد الأمد . . الواسع البلد

فقيل لها: وأى الرجال أبعض إليك ؟

قالت: البرم الآفاق

اللزوم اللحاف

الذى شربه اشتفاف ، وشملته التفاف

ينام حيث يخاف ويشبع حين يضاف !!

إنها الروية والتبصر . .إنه العقل يقود القلب عبر المستقبل .

لقد جربت . .وتأملت . . فجاء حكمها سديدا رشيدا . .

وقد يلح عليها جمال الفتى وبهاؤه . . بيد أنها تنحى قلبها . . عاطفتها ليحسم العقل الراشد قضيتها !!

جمال الباطن هو الأبقى

تأخذ قيمة الجمال فى المنظومة الإسلامية موقعها النارد المتميز: إن الأنعام بما لها من منافع الدفء . . وحمل الأثقال . . وما تمدنا به من أصواف وأوبار وألبان . .

هذه الأنعام نفسها تعبر عن قيمة الجمال التى تعدل ذلك كله:

يقول تعالى:

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾[١].

فهذه هى المنافع

أما الجمال فهو ما تشير إليه الآية التالية:

﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾[٢].

ولاحظ من دقة التعبير أنه تعالى يقدم الرواح الذى كان أصدق تعبيرا عن الجمال . من حيث كان رواحها ريانة بالشبع . . أجمل منها سارحة جائعة !

من أجل ذلك . . لا يترك الإسلام قيمة الجمال لتقديرنا . .

فمن شاء أن يتملاها . . ومن شاء أعرض . . وإنما نحن مأمورون بتدريب النفس على حب الجمال .

يقول تعالى:

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[٣].

ولكن الإسلام فى التنويه بقيمة الجمال لا يقف بنا عند القشرة البادية . . وإنما

---

(١) النحل : (٥).

(٢) النحل : (٦).

(٣) الأعراف : (٣١).

يريد أن نغوص في الأعماق وراء جمال هو أزكى وأربى .. إنه يريد أن يجمل باطننا به .. حتى تصير أفكارنا وأعمالنا صادرة عنه معطرة بأريجه كما يقول مالك بن نبى: «بالذوق الجميل الذى ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان فى نفسه نزوعا إلى الإحسان فى العمل .. ونفورا من كل قبيح».

فى مجال التطبيق:

يقول على رضى الله عنه:

لما أتينا بسبايا طيئ .. كانت فى النساء جارية لما رأيتها أعجبت بها فقلت:

لأطلبنها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها فى فيئى. فلما تكلمت أنسيت جمالها. لما سمعت من فصاحتها. قالت:

يامحمد: هلك الوالد. وغاب الوافد.

فإن رأيت أن تخلى عنى .. فلا تشمت بى أحياء العرب .. فإنى بنت سيد قومى:

كان أبى يفك العانى. ويحمى الذمار. ويقرى الضيف. ويشبع الجائع. ويفرج عن المكروب. ويطعم الطعام. ويفشى السلام. ولم يرد طالب حاجة قط.

أنا بنت حاتم طيئ !!

فقال لها رسول الله ﷺ

«ياجارية: هذه صفات المؤمن .. ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها: فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق»

والشاهد هنا:

إن الجمال البارع الذى أسر عليا فى لحظة من زمان .. ماكان ليحجب جمالا من نوع آخر هو جمال البيّان على لسان الجارية .. يتذوقه من له قدم صدق في البلاغة العربية .. على رضى الله عنه ..

وإذن .. فبالتفكير والروية يتحرر الفتى المؤمن من جاذبية مظاهر الدنيا .. ليظل على الطريق كالعهد به دائما:

ثابت الخطو . . يمشى ملكا !!

ولا ينسينا بيان الجارية . . جمال موقفه ﷺ . . حين يقدم لعشاق الحرية مثلا يحتذى . . عندما أطلق سراح الجارية . . التى عـادت حرة كريمة إلى قومها . . فزاد عدد الأحرار واحدا . .

فإذا تصورت أن سفانة عادت إلى قومها مشركة كما كانت . . تبين لك إلى أى حد يحـرص الإسلام على أن يكون قرار الإيمان بمحض إرادة الإنسـان ولقد بدأ الناس فى الغرب يتفكرون .

يتفكرون فى أمر الزواج . . بعدما ذاقوا من وبال التوتر والقلق . .

ثم هداهم التفكيـر - مع أنهم ليسـوا بمسلمين -إلى اختيـار صاحب الدين . . ليكون زوجاً مثاليا .

ففى فرنسا . .

وفى استفـتاء عام رغبت أكثر من مليـونى امرأة فرنسية أن يكون زوجهـا عربيا مسلما . . ولكن لماذا؟

لأن التجربة . . تجربة الزواج فشلت مع الرجل الأوروبى:

١- من أجل الملل من التيقظ مبكرات .

٢- ورؤية الأولاد فقط . حول مائدة الطعام .

٣- ورؤية الزوج فقط عند النوم .

٤- خلافات العمل ومنافساته .

٥- ثم السآمة من «المساواة» المزعومة . .

إنه الطوفان المحدق بالمرأة المعذبة . . ولا منقذ من هذا الطوفان . . إلا الإيمان.

❑ ● ❑

الجمال عندنا .. وعندهم

حب الجمال طبيعة الإنسان ...

الجمال حتى في الحيوان السارح عبر الحقول:

يقول صاحب الكشاف في تفسيره لقوله تعالى ﴿.. ولكمْ فيها جمالٌ﴾:

«من الله تعالى . بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها:

لأنه من أغراض أصحاب المواشي .. بل هو من معاظمها:

لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي . وسرحوها بالغداة .. فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية .

وتجارب فيها الثغاء والرغاء .. آنست أهلها .. وفرحت أربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها .. وأكسبتهم الجاه . والحرمة عند الناس» [1]

وفي بلاد الدنيا: كل الناس يحب الجمال .. ويتغنون بمجالي الطبيعة .

لكن الفرق هائل بيننا .. وبينهم:

فالناس هناك: يحصرون الجمال .. في الجمال الظاهر .. البادي للعين المجردة ثم لا يتذوقون ماوراء السطور:

خذ مثلا على ذلك:

رفع الأديب الكبير - في بلد غربي - رفع دعوى على جاره . لأن هذا الجار قلع شجرته، أي شجرة الجار نفسه .

وعلل دعواه بمايلي:

إذا كانت الشجرة من حيث هي جذع وفروع وأغصان ملك لجاري .. فإنها نفسها ملك للجميع .. من حيث هي جمال .. ومصدر إلهام ..

وقد رفض القاضي الدعوى .. وقال الراوي:

رفضها القاضي لأنه لم يكن أديبا .. ولا شاعرا !

---

(١) الكشاف ج٣ / ٣٢٢.

وإذ يسجل هذا الأديب عشقه للجمال .. فإنه يحصره فى الظل .. والخضرة..

أما ما وراء ذلك من جمال أصيل .. فلا يحس به .. لأنه أى الأديب هو نفسه الذى «يقلع» من قلبه شجرة الفضيلة .. حين يذهب إلى هذا الجار نفسه .. فى حفل عام ليطلب منه أن يراقص امرأته..

نقول: امرأته .. ولا نقول زوجته !!

وهذا هو الفارق الهائل بين نظرة المسلم إلى الجمال .. ونظرة غيره ممن لا يدين بالإسلام:

هناك: ذلك التناقض الذى هو سمة المجتمعات الغربية .. المحكومة بالنظرة الشهوانية المادية ..

والتى تكتفى بالبحث عن الجمال فى تقاسيم الوجوه .. أو فى ألوان الزهور..

ولكنها تطلبه .. وفى نفس اللحظة فى امرأة الجار .. التى لا تصبح زوجة من حيث صارت لا ترد يد لامس !

وحتى إذا تغنى شاعر مادى بحمرة الورد .. فإنه يعود إلى أصله الثابت حين يرجع بحمرتها إلى خدود العذارى .. والتى يغار الورود من جمرة شفتيها .. بل يقتل الوردنفسه أسفا وحسدا!؟

أما المسلم .. فله مع الطبيعة موقف آخر:

إنها خلق من خلق الله تعالى .. فهى آية على وجوده تعالى ووحدانيته فإذا تأملنا الوردة ذكرتنا بجمال خالقها سبحانه .. فإذا رأينا شوكها تذكرنا قدرته تعالى والتى تحرس الجمال أن يعبث به الفارغون !

أرأيت إلى النيل فى حس الهائمين من الشعراء ؟

إنه مسافر .. زاده الخيال .. والعطر والسحر والجمال . وهو صوت التاريخ يحكى قصة الحياة ولكنه فى حس الفلاح الأمى خير ينبغى استثماره:

وإنه ليتقدم .. فيشق جسره بفأسه .. ليسافر .. لا إلى النهاية الحالمة ..

وإنما يسافر إلى الشجر . . وإلى البشر . . ليكون الخصب . . وتكون الحضارة . . ثم يكون شكر واهبه تعالى على ماأنعم .

وحتى الأديب المسلم إذا سرح به خياله أمام جمال الطبيعة فإنه لا يخرج عن هذا الإطار . . راجعا بما يراه إلى واهب هذه النعم . . مبرزا قيمة من قيم الإسلام التي يريد تدعيمها :

يقول الأديب المسلم :

قالت الشمس لمن مدحها :

هل أدلك على من هو خير منى ؟

إنه السحاب . . الذى يرسل المطر ، ويلطف بإذن الله أشعتى .

وقال السحاب بدوره :

وهل أدلك يا صديقى علي من هو أقوى منى ؟

إنها الريح : يرسلها الله تعالى لواقح .

وقالت الريح :

بل الجبل أفضل منى . لأن الله تعالى يثبت به الأرض . .

ونقول نحن :

وأقوى من مظاهر الطبيعة جميعا . . ذلك الإنسان . .

بماذا ؟ بالوفاء . . بل بالإيثار . . تعمر به الديار .

• الجمال بين الوسيلة .. والغاية •

كانت قيمة الجمال فى طليعة القيم التى حرص عليها سلفنا الصالح ..

إلى الحد الذى قرروا فيه: إنه إذا استوى العالمان فى كل الفضائل .. تقدم من كانت زوجته أجمل !

ذلك بأن زوج الجميلة يروى حاجته كلها .. غير متطلع إلى سواها .. ليتفرغ من بعد لأفكاره التى تنطلق من نفس سوية غير مشغولة بالمال ولا بالجمال ولا بالعيال

ومن الوفاء لهؤلاء العلماء أن نذكر لهم حساسيتهم المفرطة وهم يتعاملون مع الجمال .. بحساب .. حتى لا يقعوا فى إفرازاته السلبية ..

فقد كانوا على وعى كامل: بأن من عنده امرأة جميلة يحتاج إلى أكثر من عينين ؟!

إنها الغيرة الشديدة التى قد يصطنع من أجلها العيون .. الجواسيس .. فرارا من عقبى الجمال الصارخ . والذى يمكن أن ينفلت عياره:

ولن تصادف مرعى محرما أبدًا .. إلا وجدت به آثار منتجع !!

لقد كان تصورهم للجمال محكوما بآداب الإسلام:

إن الماديين من الرجال يبحثون عن المتعة الحسية .. وكفى فهذه الفاكهة المدلاة من الشجرة .. لا يستمتعون بها إلا أذا ذاقوها .. إلا إذا اقتطفوها ..

ولكن الحس النظيف: يكفيه أن يرى الشيء رائقا .. جميلا ..

تتذوقه .. تستمتع به .. ولا يهم أن تملكه ..

ذلك بأنه لا غاية للجمال .. إلا الجمال نفسه .. كما يقول الفاقهون ..

فإذا بحث الأطهار عن الجمال فى المرأة .. كان لتغطية حاجة فطرية .. لكن

همهم الأكبـر هو ما وراء هذا الجمال من قيم وأخـلاق هى أثقل فى الميزان من كل ما يملك الإنسان وإذا كانوا يقولون هناك:

لو كان معك رغيفان: فبع أحـدهما . . واشتر بثمنه زهورا . . فإنا نقول باسم الإسلام:

لا تبع الرغيف ولكن: أعطه مـسكينا . . ثم استمـتع بمشهد من أسعـدته بهذا الرغيف . . فمشهد المسكين حين يشبع أجمل من كل زهور الدنيا . .

إنه جمال الحق الآسر . . وهو الذى يتنافس فيه المتنافسون من الأبرار .

صورتان ... متقابلتان:

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها . . فإنا نعرض عليك صورتين متقابلتين . .

تؤكد أن ذلك التفاوت الهائل بين «العشاق»

من طلاب المتعة . . وبين الأخيار الذين يهـدهدون من طباعهم حتى لا ينفلت عيارهم:

استمع من كلام أهل الهيام وصناع الكلام فى وصف زوجة المستقبل:

«فيها من القمر استدارته . . ومن البـحر عمقه . . ومن النجوم لمعانها . ومن الندى قطرته . . ومن الورد لونه وعطره . .]

ثم ماذا من بعد؟

إن التجربة سوف تـكشف عن أسرار وأخبار كانت مخبـوءة هناك فى الأعماق البعيدة . . ومن ثم يبدأ زورق الأحلام في الترنح . . ثم الغرق !!

أما فى الإسلام . . فكما يقول ابن الجوزى:

«فإن أصلح المقامات: التوسط .

وهو اختيار ما تميل إليه النفس . ولا يرتقى إلى مقام العشق .

فإن العاشق فى عذاب .

وإنما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق . .

وليس كذلك .. فإنه كما قيل:

وما فى الأرض أشقى من محب
وإن وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا فى كل وقت
مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا .. شوقا إليهم
ويبكى إن دنوا .. خوف الفراق
فتسخن عينه عند التدانى
وتسخن عينه عند الفراق [١]

وهكذا عشاق الدنيا .. الذين يطلبون الجمال .. لذات الجمال ولسوف يستعبدهم ذلك الجمال الذى اسلموا له قيادهم فتنازلوا عن حريتهم وصار أمرهم على قيل: .

وأبكى .. فلا ليلى بكت من صبابة
لباك .. ولا ليلى لدى البذل تبذل
وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنبا
وإن أذنبت .. كنت الذى أتنصل !!

❑ ● ❑

(١) صيد الخاطر / ٢٧٩ .

□ ● □ زينة التقوى □ ● □

مع تقدم الحياة . . وتوفر أسباب الرفاهية . . لكن . . مازال للقديم سحره . . . ومذاقه الخاص . .

قال الفلاح البسيط: مع توفر أجهزة الرى . والإضاءة لكننى لا أستغنى عن الساقية يديرها الثور . . ولا عن المصباح يمده الزيت بالطاقة . .

وقلت له: ألم تسمع أخبار الانتخابات فى أمريكا ؟ إنهم يعدون بطاقات الانتخاب باليد . . حيث كانت أوثق من الآلة «الإلكترونية»

لقد كنا فى الماضى . . أسعد حظا منا اليوم !

يقول د «السباعى»:

«عهدنا الناس فى أيام طفولتنا أكثر بساطة فى المعيشة .

وأقوم أخلاقا فى المعاملة . . وأقل رقيا فى الحضارة . . وأنعم سعادة فى الحياة .

فلما تقدمت الحضارة . . ضعف ذلك كله .

أفهذه طبيعة كل حضارة ...

أم هى من خصائص الحضارة الغربية ؟!

ولو خير الناس بين حالهم الأول . . وحالهم اليوم . . ترى ماذا كانوا يختارون؟

فى ظنى: أن أكثر المخضرمين يفضلون أمسهم .

وإن جمهور المحدثين يفضلون يومهم .

أما أنا: فأفضل السعادة فى كوخ صغير . . على مشكلات الحضارة فى قصر كبير»

وهذا ما شهد به واحد من سدنة الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر والذى قال:

ألا إن الجهل . لا غيره . هو الذى أغرى النساء بالإكثار من الحلى .
والملابس الفاخرة . . والإسراف فى النفقات . والتبرج . والبطالة .
والخوض فى الأحاديث الفارغة .
ولعمرك: ليس الماس . وليس الياقوت بمرشد إلى إرضاء الزوج .
ولا الزمرد بمرب للأولاد.
فهذا كله متاع . وزينة فارغة .
وزينة المرأة الحقيقية هى: الفضائل والأدب»
وهذه النظرة الواقعية ما هى إلا شعاع من نور الإسلام . .
والذى تمثله روادنا الأوائل . . والذين جعلوا من الفضيلة .
أغلى مايتنافس فيه المتنافسون . . ومن صلاح الزوج أعلى مايرغبه الراغبون .
ذهب عمر بن عبدالعزيز إلى الخليفة «عبدالملك بن مروان» يخطب ابنته «فاطمة»

فقال له عبد الملك . يسأله عن حاله:
مانفقتك ؟ فأجابه قائلا:
حسنة بين سيئتين: ثم تلا قوله تعالى:
﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ (١)
ولقد زوجه من «فاطمة» لما رأى من اعتداله .

- وسطية الإسلام:

إنها البساطة القانعة بالضرورات . . والتى ترفض الترف سبيلا إلى التلف . .
والتى تكتفى باللباب . . وهو غاية أولى الألباب .
وإنه لموقف كريم للخليفة الذى لم يشأ أن يرهق الخاطب من أمره عسرا. معتزا بثروة أبقى تعمر قلب الفتى . . وفى ظلها سوف تسعد ابنته . .

(١) الفرقان : ٦٧ .

وأين من هذه الحكمة ما يلجأ إليه البعض اليوم من المبالغة لا فى المهر وحده.. وإنما فى مؤخر الصداق والذى يصبح فى حياة الفتى:

١- قيدا وإذلالا.

٢- ثم سبيلا إلى دلال الزوجة .. ثم هيمنتها.

٣- على نحو يستنوق فيه الجمل .. ومن ثم يختل ميزان التوازن بين الزوجين. على نحو يصيب الأولاد كفل منه !!

إن الإسلام - كما يقرر البصراء -:

«لا يقتل المادية إطلاقا . ولا يحارب التمدن ولا العمران . ذلك بأن الإسلام دين حياة:

والحياة مادة وروح ..

ولكن الإسلام يقلم أظفار المادية . ويكسر أنيابها الحادة . بحيث تستخدم فى سبيل الخير.

والإسلام لا يذم المال إلا عندما يجمع من شر . وينفق فى شر .

ولا يذم التجمل والزينة إلا إذا كانت للمباهاة والاختيال.

ولا يذم القوة المادية .. إلا إذا كانت للبغى والعدوان ..

ولا يذم الدنيا إلا إذا ألهت عن ذكر الله»

إن «كل ما يحقق سعادة الإنسان بطريقة مشروعة: مطلوب ومرغوب.

بل إنه يلام على تقصيره فى حق نفسه .. إذا نكص عن طلب سعادته ..

تماما: كما يأثم المريض ويكون له من وزر المنتحر نصيب .. إذا عرف علاجه.. ثم قصر فى طلبه . أو أهمل فيه».

❑ ● ❑

جمال البساطة

حكى أحمد بهاء الدين قال:

«عرفت من عادات الكاتب «يحيى حقى» أنه كان يرفض النشر فى المجلات الذائعة الصيت .. ويؤثر الكتابة فى المجلات المغمورة .

ولما سئل عن ذلك قال: إنه حين يتعامل مع المجلة الواسعة الانتشار فهو يتأنق لها . ويتكلف .. فى محاولة لإرضائها .

أما عندما يكتب للمجلة المغمورة .. فإنه يحس بأنه فى بيته .. وعلى سجيته: بجلبابه البلدى .. فيخامره شعور مريح .. بهذه العقوبة التى لا تكلفه»

وهكذا كانت البيوت زمان: كانت بسيطة .. وكان جمالها في بساطتها ..

وإذ يقول سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿ وما أنا من المُتكلفين ﴾[1].

فإنه سبحانه ينوه بالبساطة . ويذم التكلف .. هذا التكلف الذى برئ منه ﷺ .. فكانت البساطة سنة من سننه الراتبة التى وعاها سلفنا الصالح .. فكانوا بها سعداء:

يأتى الضيف .. فيأكل مما هو حاضر .. فلا يرهق ميزانية البيت .. ولا يحرق أعصاب ربة البيت .

وإنه لبيت سعيد حقا بأمنه الغذائى .. وأمنه العاطفى معا:

فالحب على سطح الدار .. والحب يملأ أركانها .. فجمعت له السعادة من أطرافها ..

وحتى إذا جاء الضيوف ولم يجدوا رب الدار .. دخلوا .. ثم أكلوا ما وجدوه .. وبغير إذن ..

---

(١) ص (٨٦).

وهكذا فعلوا مع الحسن - رضى الله عنه -:

فلما حضر .. ووجدهم .. لم يزد على قوله تعبيرا عن بهجته: هكذا كنا !

نعم كانوا أوفياء .. بسطاء .. وكانت الثقة الرابطة بينهم أقوى من كيد الشيطان .. وهو المعنى الذى يؤكده ما روى من أن ضيوفا لسفيان الثورى جاءوه فلم يجدوه .. فتحوا الباب .. ثم أنزلوا «السفرة» .. ثم جعلوا يأكلون .. وما كان أسعدهم به .. وأسعده بهم حين جاء فقال مسرورا بما رأى:

ذكرتمونى أخلاق السلف .. هكذا كانوا !

وما تزال صور القرية تعبر أفق خيالى .. مذكرة بهذه الأيام الخوالى .. قبل أن تزحمها مظاهر المدنية وتعقيداتها:

ومنها صورة الرئيس الراحل أنور السادات:

لقد كنت أراه .. فى قريته .. بجلبابه الريفى البسيط ..

وما زلت أذكره وهو ضاحك مستبشر يسأل عن «عائشة» و«فاطمة» .. وعن شيخه عبد الحميد !

ويتحلقه رفاق الصبا: يحادثونه .. ويحادثهم .. وهو بهم جد سعيد . وهم به أيضا سعداء .

وقد كنت أقدر فيه تلك البساطة النابعة من إنسانيته ووفائه لأصله ..

وهذا واحد من مقاييس الحكم على الرجال:

فلقد قال الحكماء:

«من علامة وفاء الرجل: حنينه إلى وطنه . وتشوقه إلى أهله .. وبكاؤه على ما مضى من زمانه .

ذلك بأن القرية هى البلد الذى قيل عنها:

«بلد .. لا أوثر عليه أحدا .. ولا أصبر عنه أبدا .

عشك الذى فيه درجت .. ومنه خرجت .

مجمع الأسرة:

أنشأتك تربته . . وغذاك هواؤه . . ورباك نسيمه .

ملأت منه يدى بعد امتلاء فمى
ولو قدرت .. ملأت الصدر والكبدا

حتى أقول لدهر سامنى ظمأ
فى غربتى .. لن ترانى ظامئا أبدا

ويطوف الرجل فى البلاد ما يطوف
ويسيح فى أرجاء الدنيا كما شاء

لكن طيف الوطن ما يزال يلح عليه . . فيحن إليه . . ثم يصوغ هذا الحنين شعرا يتجه به إلى الأوفياء من الجيران

والأقرباء . . والذين كان بهم من السعداء:

أنا لو كنت يا سليم نسيما
لقطفت الربا وجُبْتُ السهولا

وحملت الهوى إليك جريحا
وتراميت فى يديك عليلا

غير أنى - كما علمتَ - ضعيفٌ
حملته الأيامُ عبئا ثقيلا

إن ما يقدرُ النسيمُ عليه
بات صعبًا على .. بل مستحيلا !

أما بعد:

فإن من جـمال البيت: سـعته .. وتراحب أفنيتـه .. الذى يبدو الأثاث فيـها قليلا .. متباعـدا .. وأين الجمال فى حجرة ضيقة تزدحم فـيها الوسائد والقلائد؟! .. وما زلت أذكر سعادة ذلك البـدوى الذى إذا قرر الرحيل .. جمع أثاثه فى لحظة .. فما كان فى الكوخ ما يشغل باله .. ويفسد مآله !!

□ ● □

بل جمال الروح أبقى

هذا الإنسان متدين بفطرتة . . ولكن الهوى قد يقذف به بعيدا عن أفق الدين . . فيعيش فى خواء . . ثم فى تناقض بين فطرته المتدينة أصلا . .

وبين ما هو فيه من فراغ . . فيرفه بما لا يعرف: ينطق هجرا ويفعل نكرا . .

وتأمل مصداق ذلك فى هذا الموقف:

بينما كانت الجارية تزين سيدتها . . سيدة القصر . . مادحة جمالها . .

مبالغة فى تزيينها . إذا بالسيدة توجه إليها لطمة موجعة حين قالت لها:

أما أنت . . فلن ينظر إليك أحد . . لأنك دميمة ؟!

وهكذا الدنيا:

تأبى أن تعطى أحدا ما يستحقه: فهو إما محطوط عن درجته . . أو مرفوع فوق قدره !

ولقد كانت سيدة القصر هنا ذات شرف . . لكنها بهذه الإساءة لم تصنه . . وكان من عقاب غرورها ما ردت به الجارية عن نفسها . . مما استحقت به الإعجاب الذى نوه به الفاروق رضى الله عنه حين قال:

«يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم . . أن يقول: لا . . بملء فيه .

ألا و إن الإعجاب هنا ليزداد فى قلوبنا لأن البطل هنا لم يكن رجلا . .

وإنما: امرأة بل خادمة . . ولكنها تعلم الحياة دروسا فى العزة . . والحكمة عز نظيرها . . ثم تؤكد فى نفس الوقت ما قرره الحكماء: لا تصحب غنى مال

فإنك إن ساويته فى الإنفاق أضرك . . وإن تفضل عليك استذلك»

ولكن الجارية بهذا الإباء وتلك الحكمة نجت من الضرر والذل معا.

الجارية ترد اللطمة الجائرة:

«ولقد هبت الجارية تدافع عن نفسها قائلة:

أبدا ياسيدتى . ليس الأمر كما تتصورين . .

فلولا نظر الناس إلى . . ماعرفوا جمالك !

ولو عرفت ياسيدتى من خصالى ومن خصالك: أنى أطيعك . .

وأنت لا تطيعين أباك . . لرأيت فى من جمال الأمانة ماليس عندك»!

وهكذا . . تؤكد الجارية حقها فى الدفاع عن نفسها . . حتى إزاء من تظن أنها ولية نعمتها . .

ذلك بأن الإحساس بالكرامة قد تكون أحيانا بركانا . . والبراكين لا تنبت فيها أعشاب التردد !

إنها البطولة بقسميها:

١- شجاعة الرأى

٢- ثم الثبات . . وتحدى الباطل . . يتحول ذلك كل إلى إباء شامخ . . يفتت الحجر!

إنها مشكلة أسرية . . وكان المتوقع أن تجيء مبادرة العدوان من قبل الخادمة .

والتى قدتكون ضحية «غيرة» سيدة البيت من جمالها الذى به تنازعها زوجها !

لكن الأمر كان بالعكس: فلم تكن القضية «غيرة» وإنما هو الغرور الذى لعب برأس السيدة . . فأحرجت الخادمة التى لقنتها فى الأدب درسا لاينسى . . حين لفتت نظرها إلى ما فى الأعماق من لآلئ . .

وأن جمال الروح أنقى وأبقى من جمال الجسد . . وأنها حين تخرج على قومها فى زينتها . . فإنها فارغة من قيم الخير التى يكون بها الإنسان إنسانا .

إنه درس فى التربية التى تلفت النظر إلى أن المؤهل العلمى . .

و المركز الاجتماعى . . لا يغنيان فتيلا عن الخلق النبيل . . والذى به تكون الحياة حياة . .

وأن الحق يفرض هنا أن تتبادل السيدة وخادمتها المواقع، ليصبح سيد القوم خادمهم .. وليس أغناهم ولا أجملهم .

ألا ماأجهل الإنسان .. وما أشقاه بدنياه .. وليت شعرى:

مالى أرى بنى الدنيا قد افتتنوا

كأنما هذه الدنيا لهم عرس

إذا وصفت لهم دنياهمو ضحكوا

وإن وصفت لهم أخراهمو..عبسوا

ولقد نجا من جاذبيتها الأنقياء ..

وفى طليعتهم تلك الجارية التى نطقت .. فكانت فصيحة ..ثم وعظت .. فكانت نصيحة ..

وفوق هذا كانت كما وصفها الفاقهون:

«إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته من الناس .. حتى يأسى على تقدير الناس .

وإنما يستمدها من رب الناس . وهو حسبه وكافيه .

إنه لا يستمدها من شهوات الخلق .. حتى لا يتأرجح مع شهوات الخلق ..

إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت . الذى لا يتأرجح ولايميل .

إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفانى المحدود .. إنما تنبثق فى ضميره من ينابيع الوجود .. فأنى يجد فى نفسه وهنا . أو يجد فى قلبه حزنا . وهو موصول برب الناس . وميزان الحق .. وينابيع الوجود»

استطراد

قال ﷺ

«عليكم بالأبكار:

فإنهن أعذب أفواها .. وأنتق أرحاما . وأرضى باليسير

قال العلماء:

أعذب أفواها: قيل المراد: عذوبة الريق.

وقيل: هو مجاز عن حسن كلامها . وقلة بذائها وفحشها مع زوجها .

- لبقاء حيائها - فإنها ما خالطت زوجاً قبله .

و «**أنتق أرحاما**»

أي: أكثر أولادا . . يقال للمرأة الكثيرة الولد: ناتق .

لأنها ترمى بالأولاد نتقا . والنتق الرمى .

و «**أرضى باليسير**»

والمقصود: باليسير من الجماع والمال ونحوهما.

❑ ● ❑

حب الظهور في غلاء المهور

في الصحيحين:

«جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت:

يارسول الله:

إني قد وهبت نفسي لك . . فقامت طويلا . فقال رجل:

زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة .

فقال ﷺ:

«فهل عندك من شيء تصدقها إياه ؟» فقال:

ما عندي إلا إزاري هذا . . فقال ﷺ:

«إنك إن أعطيتها إزارك . جلست ولا إزار لك . .فالتمس شيئا» .

قال: لا أجد شيئا . قال:

«فالتمس ولو خاتما من حديد . فالتمس فلم يجد شيئا» .

فقال ﷺ:

هل معك شيء من القرآن ؟ قال نعم: سورة كذا . وسورة كذا .

فقال ﷺ:

«زوجتكها بما معك من القرآن» [1]

وفي رواية «أتقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال: نعم»

بل إن امرأة تزوجت وكان مهرها نعلين . . وقال لها ﷺ:

«أرضيت من نفسك ومالك بنعلين ؟ فقالت . . نعم . فأجازه»

---

(١) رواه الترمذي وصححه .

وهكذا . . وفي المجتمع السوى التقي . . تعلن الرغبة في الزواج عن نفسها . . ولدى الفتيات والفتيان على سواء .

لكنها تعبر عن نفسها في الضوء . . وبالأسلوب المشروع المنضبط بأدب الإسلام .

ولئن اصطدمت رغبة البنت التي تعرض نفسها بتقاليد البيئة العربية .

وقد اصطدمت فعلا لما أنكرت فتاة ذلك على من عرضت نفسها عليه ﷺ . . لئن حدث ذلك . . فقد بقيت المرأة هنا محتفظة بعزتها . . حين أحسنت الاختيار . . ولم تكن مدفوعة بغريزة غلابة تحط بها على رجل . . أى رجل !

ولقد بدت مسئولية الحاكم . . الحكيم . . والتي تفرض عليه أن يتدخل لوضع حد لهذا التسارع في الشهوات . . التي تتنافس في المهور تقصم الظهور . . مؤكدا صلاحية الخاتم . . والنعلين ليكون كلاهما مهرا . . منددا بهذا التنافس المحموم رغبة في المهور الغالية . . والمفروض في المسلم أنه مخلص . .

وليس من الإخلاص أن يكون الزواج مجالا للتنافس .

وإنما مجال التنافس هناك في إطعام المسكين . . وكسوة العريان . . والوقوف إلى جانب المظلوم .

إن التنافس يعطى معنى : التجارة . . والربح . .

ومعنى ذلك أن طالب المهر العالي يحول ابنته إلى سلعة . .

تكون من نصيب الذي يدفع أكثر . . بغض النظر عن رصيده من الأخلاق .

وعليه أن يتحمل كفله من العذاب بعد ذلك . . بعد أن جعل نهار الخاطب ليلا . . وليله وبلا !

ولاحظ من حكمته ﷺ كيف راجع من رضيت بالنعلين مهرا قائلا لها : «أرضيت من نفسك ومالك بنعلين؟» ذلك بأنه - ﷺ - يعلم ضغوط البيئة العربية والتي كان المهر فيها مائة من الإبل . . واحتمال استغلال الموقف للتعريض بالمرأة التي رضيت بالدون . . وتنازلت عن الكرامة . . ثم للتأكد من أن موقف المرأة لم يكن نزوة طارئة راغبة في الإشباع . . فلما تبين له جدية الرغبة . . وافق على الزواج .

الأمة .. تفهم الدرس:

ولقد فهمت الأمة هذا الدرس البليغ فتعاونت على البر .. [illegible] [illegible] [illegible]
بلا جمعية خيرية .. لأن فطرة التعاون التى صقلها الإسلام سدت ثغرة [illegible]
الأمان .

قال الربيع: تزوجت .. فسألنى الشافعى: كم أصدقتها ؟

قلت: ثلاثين دينارا .. عجلت منها ستة .. فأعطانى أربعة وعشرين !!

ثم قال: دفع إلى تاجر برقعة - حياء من الكلام - قائلا: إننى «بقال» ورأس مالى درهم، وقد تزوجت فأعنى !.. فلما علم الشافعي قال: يا ربيع أعطه ثلاثين دينارا .. وأعذرنى عنده «أى اعتذر لى» فقلت: أصلحك الله .. إن هذا يكفيه عشرة دراهم، فقال: وما يصنع فى ثلاثين .. فى كذا .. أم فى كذا ؟!!

وهى رسالة موجهة إلى والد.. حتى لا ينفق في الحفلات ما يحتاجة العروسان فى مستهل حياتهما .. فالحاجة إلى النفقة ملحة .. ومستمرة .. والمسرف من يبدد نفقة شهر .. فى يوم وليلة .

فليبق المهر رمزا لعلاقة أبدية .. ألا وإن ضالته لا تغض من قدر عروس لا يتمتع عروسها بها وحده .. بل إنها لتسعد به أيضا سعادة أربى فى الميزان من كل متاع زهرة الحياة الدنيا .

❑ ❂ ❑

❑ ● ❑ من المظاهر إلى الجواهر ❑ ● ❑

كلنا ندرك جمال الطبيعة من حولنا.. هذا الجمال الذى يفرض نفسه على مشاعرنا فنحبه إشباعا لغرائزنا..

ولكن الإنسان ليس كتلة من اللحم والشحم..

إنه قلب شاعر.. وكبد تهفو.. وروح تعشق الجمال من وراء مظاهر هذا الكون. إنه جمال الحق.. وجمال الأخلاق..

وهو ما أشار إليه ﷺ بقوله: «اللهم زينا بزينة الإيمان»

وقوله: «اللهم: كما أحسنت خلقى. فأحسن خلقى» رواه أحمد.

وقد كانت توجيهات القرآن الكريم من وراء ذلك الهدى النبوى..

حين جعلت من الجمال ضرورة يعتدل بها ميزان الحياة. حتى في أحرج المواقف:

وذلك قوله تعالى:

﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾[1].

﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾[2].

﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾[3].

﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾[4].

فعندما تتوتر الأعصاب.. وتتلبد سماء البيت بالغيوم.. وكان لابد من اتخاذ

---

(١) المعارج: (٥).

(٢) المزمل: (١٠).

(٣) الأحزاب: (٢٨).

(٤) الأحزاب: (٤٩).

القرار الصعب . . فلا بأس . . لكن قيمة الجمال تظل باقيه تخفف من حدة التوتر . .

فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . .

واللفتة الجمالية هنا أنه تعالى قدم التمتع . على التسريح مع أن حقه التأخير . . لفتا للأنظار . . وإعانة للقلوب لتظل مستمسكة بقيمة الجمال . . جمال الباطن . . والذى هو أثقل فى الميزان من كل الرياش . . وكل الأثاث .

نقول هذا . . للذين يتنافسون فى شراء جهاز فوق الطاقة . . وما يجره من متاعب . . سوف تنعكس على علاقة الزوجين ذاتها . .

فلعلهم أن يفيقوا من سكرة التسابق الرهيب . على قيمة الجمال الحقيقية . . فى القلوب . . والتى لو توفرت . . لما كان بنا من حاجة إلى جهاز . . هو فى الواقع «إجهاز» على المودة التى تستحيل من بعد: هما بالليل . . وذلاً بالنهار !

إننا نبنى عشا . .

وما معنى كونه عشا؟ معناه:

١- أن نتعاون على بنائه عودا . . عودا . . وعلى المدى الطويل حتى بعد الزواج . . تعاونا قد يكون لدى فتاة قناعة بالبسيط الجميل . . بدل الضخم المكلف .

٢- وأن يكون العش دافئا بالمودة . . والتسامح . . والرضا . .

وفى جو من هذا الدفء . . يفقس البيض . . وتخرج الفراخ !!

وكم من مشكلات هبت على الأسرة الآمنة . . متفرعة عن بذورها الأولى أيام إعداد الجهاز . . عندما كانت العروس تلح . . بل تلحف فى مطالب . . فوق طاقة فارس الأحلام . .

لقد كانت عندئذ . . تحلم بالسعادة . . وهذا حقها . .

وقبل ذلك كان من واجبها أن تدفع الثمن . . زهدا . . ورضا بفتى هوأغلى من الدنيا كلها . وإن يكن فقيرا . . فسوف يغنيه الله من فضله . . لكنها لم تفعل . . واختارت أن تجعل من الجهاز حائطا بينها وبين زوجها . . بدل أن تمد بالقناعة جسرا جامعا مانعا . واقيا من تقلبات الأيام .

دور الفتاة فى الاقتصاد المنزلى:

وإذا فتحت «الفتاة العصرية» نافذتها لترى جمال الكون الظاهر . .

فإن فتاة الأمس كانت تعبيرا عن فطرة البساطة والذكاء فى نفس الوقت . . حين فتحت عين بصيرتها لترى جمال القناعة والرضا . .

عازفة عن كل من يثقل كاهل العائل من النفقات حتى في أبسط الأمور: وهذا تاريخنا شاهد لنا:

دفعوا إلى فتاة أعرابية «علكا» أى «لبانا» . . لتمضغه . .

فلم تفعل . . فلما عوتبت في ذلك قالت:

«مافيه إلا تعب الأضراس . وخيبة الحنجرة» !!

إنها تريد أن تبقى أسنانها عقدا من اللؤلؤ . . لتكون «الغانية» . .

التي تغني زوجها فلا ينظر للأخريات !! وكأنما تقول بلسان حالها:

لماذا ننفق فى الكماليات . . ما تحتاجه الضرورات ؟

إنه السرف . . والذى إذا كنا به ننفق فى دائرة ما ينبغى . . فإنه إنفاق فوق ماينبغى !!

فلنكن واقعيين . . وعلى قدر طاقاتنا . . وأحسن الأزياء هو الزى الحاضر !

بل لقد أخذت الفتاة يومئذ موقع التوجيه . . فلفتت بقوة نظر والدها المسرف فكانت خير معوان على الزمان . . قالت

«حبس المال أنفع للعيال . من بذل الوجه فى السؤال .

فقد قل النوال . وكثر النجال، جمع نجل وهو: الولد.

وقد أتلفت الطارف والتليد - الجديد والقديم - وبقيت تطلب ما في أيدى العباد .

ومن لم يحفظ ما ينفعه . أوشك أن يسعى فيما يضره» [1]

---

(1) جواهر الأدب ج 1/ 186.

وإنها لرسالة بليغة .. توجهها الفتاة المسلمة - من خلال أبيها - إلى كل مسلمة اليوم حتى لا تسترسل مع هواها .. متجملة بالصبر على ما تكره ليتحقق لها من الغد كل ماتحب .

□ ● □

● الإسراف فى زمن الجفاف ●

نشرت الصحف نبأ حفل زفاف فى دولة عربية .. قالت:

أضيئت الأنوار سبعة أيام .. واشترك فى إحيائه أكثر من خمسمائة فنان .. وفنانة .. وراقصة !

وكان المهر قافلة تحمل المجوهرات .. والهدية: مدينة تجارية .. وانطلق أكثر من مليون صاروخ للزينة .. يحدث بعضها أصواتا كأنها أصوات البلابل ..

إلى جانب عشرة ملايين «لمبة» كهربائية مستوردة .. وبلغ مجموع التكاليف ثمانية وعشرين مليونا من الجنيهات ؟!!

وتعجبت .. حتى كدت لا أتعجب !!

تعجبت من هذا الإسراف فى أعوام الجفاف .. وقلت فى نفسى: ليت قافلة المجوهرات .. كانت ذاهبة لنجدة قوم جياع .. من الجيران على الأقل ..

ولو قد ذهبت لكانت تلك الحسنة التى تمحو كل هذه السيئات .. ولكن أصحاب «الفرح» فضلوا أن يدخلوا المال على المال .. والطعام على الطعام .. ولو بات الجار جائعا ..

بل إنهم لم يكتفوا بالشبع .. وحولوا اللقمة إلى لهو ولعب .. والتى هى حق الجار الملاصق .. والذى لا يبيت فقط جائعا .. ولكنه يموت من الجوع !

وإذ يبدو هذا النقد حاملا رائحة التدين .. وهو ما يرفضه المترفون .. فإننا نحتكم إلى الواقع .. نستفتيه .. هل يحقق هذا الإسراف متعتنا حقا ؟!

وينطق الواقع بلسان الحال مؤكدا أنه لا أفراح .. ولا يحزنون !

إنه «فرح» لا تسمع فيه الزغاريد صاعدة من القلب .. ولا هديل الحمام فى لحظات الانسجام .. معبرا عن الوئام .. والسلام ..

لا ترى فيه أحدا يكلم أحدا:

لأن الصخب مانع من الاستماع .. مانع من الاستمتاع .. ولقد كانت النحلة أعقل منا .. لأنها لا تلسع أحدا .. وهى تصنع العسل ..

أما الإنسان .. وفى اللحظات التى لا تتكرر .. والتى جمع الزمان .. فكأنها .. فى لحظات بهجته وهو يضع خميرة سعادته .. «يلسع» نفسه بهذه السهام .. بهذه القيود .. وهذا الشرود !

وسقى الله أيام زمان:

كنا نذهب إلى الباحة .. وفى ضوء القمر .. نرى .. ونسمع ما لا يخدش الحياء .. مما يعبر عن بهجة الحياة ..

وكنا نعود إلى دورنا وفى خيالنا من الحفل البريء صورة ورؤاه ..

لقد كنا نعود بالحفل نفسه إلى بيوتنا .. لنحكى ما رأينا .. فإذا رقعة السرور تنبسط .. وتمتد ..

أما اليوم .. فالعائدون .. قبيل الفجر .. يعودون كالسكير .. يضربه جدار .. ويتلقاه جدار !

ثم هل هذه العروس المغيبة وراء جدار من المساحيق .. هل هى سعيدة حقا .. وهى فى نقطة الضوء .. مقيدة بتقاليد وأعراف ضاغطة ؟

أبدا:

لقد كانت أختها «العروس» .. زمان .. كانت أسعد منها: لقد كانت تخدم الضيوف فى ليلة عرسها .. حرة .. مكتفية بالطبع .. عن التطبع .. عن التكلف:

وكان الماء عندئذ .. أطيب الطيب .. وكان أزين الزينة: الكحل ..

وبهذا الثمن الزهيد حققت لنفسها: النظافة .. والجمال معا

لقد أدبت نفسها قبل أن يؤدبها أبوها .. على ما يقول ابن المقفع لما سئل: من أدبك ؟ قالت:

أدبتنى نفسى:

كنت إذا رأيت من أحد قبيحا .. اجتنبته ..

وإذا رأيت من أحد جميلا . . اتبعته . .

ولقد رأت الفتاة العاقلة محكومة بقيمة البساطة . . رأت الجمال والكمال فى القناعة . . والتلقائية . . فأحست بالسعادة التى فاضت منها على زوجها . .

وفوق هذا:

كانت آية من آيات الحضارة:

فبينما تصر المترفة على البهرجة والتكلف . . فتضيع المال . . والجهد . . والوقت . . فإنها تصون هذه العناصر التى بها تأخذ الأمة سمتها فى مقدمة الصفوف . . وهى بتصرفها كأنما تقول:

«لم نتناول طعامنا بالشوكة والسكين ؟

إن استعمالهما عادة بلا سبب:

واستعمالها مضيعة للجهد والوقت: فى إعداد المائدة قبل الطعام . . ثم غسلها وتجفيفها . . وتدريب الأطفال عليها . . وفوق ذلك كيف كانت مصدرا للعدوى؟ . . وأفضل من ذلك صرف هذه الجهود فيما هو أنفع»

ويا ليت قومى يعلمون !

❑ ● ❑

❑ ● ❑ ليلة الزفاف على ❑ ● ❑ الطريقة الإسلامية

عن على - رضى الله عنه - قال:

«جهـز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل . وقـربة . ووسادة: حشوها إذخر» «نبات طيب الرائحة»

وعن جابر قال:

«حضرنا عرس على وفاطمة .. فما رأينا عرسا كان أحسن منه:

حشونا الفراش - يعنى الليف - وأتينا بتمر وزبيب . فأكلنا . وكان فراشها ليلة عرسها: إهاب كبش» [1]

هذا هو فراش بنت رسول الله ﷺ:

إن أهل الحى يتعاونون مع والد العروس فى إعداد العش البسيط .. فما به من حاجة إلى استجلاب العمال بما يرهق ميزانية البيت ..

وأهل البـيت لا يتكلفـون .. وإنما هـو التـمر والزبـيب .. من صنع الأيدى المباركة .. التى تقدم «الموجود» وخيركم من جاد بما عنده ..

ثم نرى الذوق فى أرقى مـعـانيـه .. حين يكون «الإذخـر» حـشـو الوسـادة بالذات .. ليفوح من عطره على الزوجين ما يسرهما .. وينعشهما ..

وإذا كان الفراش جلد كـبش .. محشوا ليفا .. فمـا ضر العروسين أن يكون كذلك .. فـالمهم أن يتحقق .. السـتر .. والانسجـام .. وما فات العـروسين بعد ذلك شيء يبكيان عليه !

إن حرير ملك الفرس .. لم يمنعه من الهزيمة .. وخشونة لباس الجندى المسلم

(١) «رواه البزار» .

لم تمنعه من الانتصار . . فاعتبروا يا أولى الأبصار !

يحدث ذلك كله . . إعانة للعروسين على مواجهة حياة جديدة . أكثر تعقيدا . بعد حياة الدلال في بيت العائلة . .

ما يحدث اليوم:

إننا نحاول أن نتباهى . . وأن نضخم الذات . .

باختصار: نحاول أن نخرق السفينة لتغوص في بحر الديون والهموم . . ولا نريد لها أن تظل سابحة . . غادية رائحة !

وفي نفس الوقت . . لا بأس من الادعاء بأننا حراص على إسعاد بناتنا . . بينما نحن بتصرفاتنا العابثة . . نمهد بالإسراف لشقائها . .

ولا يعنى ذلك أن تمر المناسبة بلا احتفال . . وبلا إعلان . . وإنما هو السرور المنضبط بآداب الإسلام . . في ليلة يحضرها الصالحون الطيبون . . الداعون بالخير للعروسين . . والذين يأكلون من شاة واحدة . . لا من أبقار تذبح سفها ورئاء الناس . . ولا يطعمها إلا المنتهبون . . الذين يعرفون كيف يأكلون . . وقلوبهم مصروفة عن المناسبة فلا يدعون للعروسين ؟!

وقد كان في تاريخنا من تجهموا لبادرة السرور ليلة العروس فجاءهم الجواب قاطعا:

روى عامر بن سعد - رضى الله عنه - قال:

«دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى في عرس .

وإذا جوار يغنين فقلت:

أنتما صاحبا رسول الله ... ومن أهل بدر ؟!!

يفعل هذا عندكم ؟!!

فقالا:

اجلس إن شئت فاجلس معنا . . وإن شئت فاذهب .

قد رخص لنا في اللهو عند العرس»[١]

لقد كانت درجة التعجب عالية لدى الصاحبين الكريمين . .

فالغناء ينبعث من دار صحابي . . ومن شهد بدرا . . فكيف يحدث هذا ؟

ويجيئه الجواب المقنع مؤكدا أن جلال الصحبة . . وشرف «البدرية» غير مانعين من لهو مباح في ليلة . . يجمع الزمان ليكسوها . .

تلك الليلة التي تحدث مرة واحدة في حياة الإنسان . . ولا عليه إن هو انتهزها فرصة يفتتح بها حياة جديدة يرجى لها أن تدوم.

وما زال حديثنا إلى المسرفين متجددا . . عساهم أن يطامنوا من حمى التنافس في حفلاتهم . .

فإن هم استغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . . فليفعلوا ما شاء لهم هواهم . .

ولكن ليس من حقهم أن يزعموا أنهم يمثلون حقائق الإسلام . . وأنهم حراص على إسعاد أولادهم . . بهذا السرف أو الترف . . لأن الإسلام شيء غير ما يفعلون . . الإسلام الذي يجب أن نعود إليه . . في أفراحنا وأتراحنا . .

هذا الإسلام الذي يحاول المغرضون إزاحته من حياتنا . . وقد حققوا بعض النجاح فعلا . .

ألا ليتهم ما فعلوا . .

ليت الغراب غداة ينعب بيننا

كان الغراب مقطع الأوداج

❑ ● ❑

(١) النسائي والحاكم وصححه .

بيوتنا بين البساطة والتعقيد

أراد سلمان الفارسي – رضى الله عنه – أن يبنى لنفسه بيتا .. فسأل البناء: كيف ستبنيه ؟ – وكان البناء حصيفا ذكيا .. يعرف زهد سلمان وورعه – فأجابه قائلا: إنها بناية تستظل بها من الحر .. وتسكن فيها من البرد ..

إذا وقفت فيها أصابت رأسك .. وإذا اضطجعت فيها .. أصابت رجليك .. فقال له سلمان: نعم .. هكذا فاصنع !

إنه إذن بيت بسيط .. بلا أثاث وبلا رياش ..

كما وأنه ليس عاليا يطاول الشجر .. لكنه مزين بأجمل الصور .. والحب فيه يملأ الحجر !

ثم هو منزل مستكمل شروطه الصحية .. ليظل المسلم موفور العافية .. يعبد الله تعالى بجسم سليم . ومزاج معتدل .

ولقد كان من حكمة العرب أن تجيء البيوت آخذة حظها من الشمس والظل والهواء .. لتكون لهم مستقرا ومقاما .. ولقد قالوا فى ذلك:

«أطيب البلاد . ما يكون على سمت ريح الشمال: لأن هذا الريح يسمن الأبدان . ويصفى الوجوه .

وشر البلاد ما تهب فيه ريح الجنوب ..

وينبغى أن يكون البلد على هضبة مرتفعة . وتهب فيه ريح الشمال . ويكون ماؤه جاريا . حتى يسمن الأبدان»

وفى هذا المعنى يقول ابن قتيبة:

«قرأت: أنه كان يستقبل بفراش الملك ومجلسه ناحية المشرق .. أو يستقبل به مهب الصبا .

وذلك أن ناحية المشرق ... بخلاف جهة المغرب»[١]

وقد كان بناء الدار في الأحياء ...

«بنى جعفر بن يحيى دارا . فقال ... هل ترى فيها عيبا؟ قال: نعم: مخالطتها دور السوقة»[٢]

قال الحكماء:

«أصلح مواضع البنيان: أن يكون على تل أو كبش وثيق. ليكون مطلا.

وأحق ما جعلت عليه أبواب المنازل وأفنيتها . وركواؤها: المشرق . واستقبال الصبا . فإن ذلك أصلح للأبدان: لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليهم»

وهذا ما أشارت إليه الأعرابية حين اعتزت بأنها تحظى بقبلة الشمس عند ... . . بكرا . . صافية . . قبل أختها الحضرية التي لا تستمتع ... لا تشرق عليها إلا بعد أن تتعثر في الأبنية ... الوثير!

والقصة هنا:

أنه لما ذهب «ابن جريج» يزور جماعة في الخباء . قالت بدوية:

سئمنا من البيد يا ابن جريج
ومن هذه العيشة الجافية
ومن حالب الشاة في موضع
ومن موقد النار في ناحية
... و ...
وقينتنا الضبع ...

(١) عيون الأخبار : باب السؤدد / ٣١٢.

(٢) المرجع السابق ٣١١.

وهـم يـأكـلـون فـنـون الـطـهـاة
ونـأكل مـا طـهـت الماشـيـة

ولقد كان الرد:

فـمـا البـيـد إلا ظـلال الكـرام
ومـنزلـة الذمـم الـوافـيـة
لنـا قـبـلة الـشـمس عـند الـصـباح
وللـحـضـر القـبـلة الـثـانيـة
ونـحن الـريـاحين مـلء الـفـضـاء
وهـن الـريَّـاحـينُ فـى آنيـة

ويقتلنا العشق . . والحاضرات . . . يكن من العشق فى عافية !

وهكذا كان البيت . . زمان !:

جماله فى بساطته . . ولئن خلا من وسائل الترفيه . . فإن الود يعشش فيه . وكما قال الأدباء:

«من خارجه: حواصل تبن . . ومن داخله جنات عدن .

هو مصيف ومشتى وهو دار وبستان.

المرأة فيه: لزوجها . ولبيتها: لا تقيس الطرقات . . ولا تقصد الأسواق . . ولا تعتاد منازل الخياطات:

إن احتاجت شيئا . . اشتراه لها زوجها . وإن أرادت زيارة أهلها . . ذهب معها . .

وإن اشترت ثوبا . . خاطته بنفسها . . والحجاب سابغ . والشهوات مقموعة . . والزواج شامل:

لا يبلغ الولد العشرين إلا له ولد . ولا تصل البنت إلى الثامنة عشرة إلا ولها ولدان»

ونقول نحن:

وربما لم تكن تذهب إلى الطبيب أبدا:

لأنها صحيحة الجسم .. سليمة التفكير .. معتدلة المزاج:

لأنها تتنفس الهواء البكر .. وتستحم بالشعاع المبكر .. ثم تكون القشدة فطورها بينما أختها الحضرية: تتثاءب على الفراش الوثير .. ثم تتناول طعام فطورها من بعدها لبنا رائبا .. أو زبدا رابيا !!

❑ ● ❑

والفضل ما شهدت به الأعداء

في حنين جارف إلى الأوطان . . أيام زمان . . يقول الشيخ علي الطنطاوي:

«كانت منازلنا قديما:

كانت مصيفا . وكانت مشتى . .

كان كل من فيها حرا:

لا يرى حرم جاره . ولا يرى جاره حرمه . .

فاستبدلنا بها: صناديق من الأسمنت: لا تدفع حرا لصيف . ولا بردا لشتاء.

من كان فيها رآه جاره . وهو على فراشه . ورأى هو الجار:

إن ضحك أو بكى أو عطس . . سمعه من «المنور» كل سكان العمارة. كانت بيوتنا من خارجها: كأنها مستودعات بضاعة . أو مخازن تبن . فإذا دخلت فتح لك باب إلى الجنة:

بهاؤها . . لأهلها: لا نافذة تفتح على طريق . . بل لقد أدركت عهدا في الشام كانت الدار التي بابها يفتح على الطريق العام . . يقل ثمنها . . لأن الدار المرغوب فيها هي: التي يكون بابها في حارة ضيقة !

وكانت نساؤنا كمنازلنا:

يسترها عن العيون: الحجاب السابغ . فلا يبدو جمالها إلا لمن يحل له النظر إليها . .

ثم هتكت الأستار . . عن المرأة . . وعن الدار» . اهـ

وقد يستقبل بعض المستغربين اليوم هذا المنطق . . من حيث كان ذلك في وهمه أو زعمه استعبادا للمرأة التي تحدد إقامتها . . في سجن بلا قضبان ! . .

وقد يتصورون الزوج وحشا يتحكم في فريسة لا تملك عنه حولا . . ولو أننا

حاولنا رد مزاعمهم . لوجدتهم ينغضون إليك رءوسهم تعجبا .. وإنكارا ..

ولكننا نؤثر أن يجيئهم الرد المفحم من جهة أجنبية .. مؤكدا لهم تراجع «أسيادهم» عن أفكارهم .. ثم إعلانهم أن منهج الإسلام هو أوفق المناهج الإصلاحية .. وأن المرأة هناك تعلن استسلاما بمحض اختيارها لمقررات الإسلام .. سبيلا إلى أسرة آمنة فى سربها:

يقول أحد الباحثين:

«زعم المغرضون أن المرأة المسلمة لا تطيق قوامة الرجل. ولا تميل إلى طاعته.

ثم زينوا لها الخروج من تحت كنفه .. لتشعر بالحرية .. ولتنطلق فى ظل الحرية طاقاتها المدفونة .

ولكن الدراسات النفسية الوافدة من الغرب. تكذب زعمهم . شاهدة بأن متعة المرأة الحقيقية أن تكون فى حماية رجل قوى .

وفى بحث من هذه الأبحاث يحكى المؤلف نماذج .. منها:

١- قالت لى إحدى النساء:

«لو كنت تعلم: كم يتقن زوجى فرض الطاعة بنظرة واحدة ! إننى أحبه .. لأننى أشعر بلذة فى خضوعى لسلطانه».

٢- وقالت أخرى:

«الحقيقة: أننى أرتاح عندما يرفع صوته ..

وأتظاهر بأننى أتمرد . ولكننى لا أؤمن بأى كلمة أقولها عن تمردى» .

٣- وقالت ثالثة:

«يوبخنى زوجى كثيرا .. وهو نصف جاد . ونصف غاضب . فأتحول عندئذ إلى بنت صغيرة» .

وفى استفتاء ببريطانيا أعلنت تسعون فى المائة من النساء:

أ- أنهن لا يرغبن فى رؤية أزواجهن يبكون .. لأن البكاء ضعف . وإذا كانوا يقولون: والفضل ما شهدت به الأعداء .. فإنا نقول: والفضل أيضا ما شهد به

الغرباء . . الذين شهدوا لنا . . ويبقى أن نعيد للأسرة مكانتها . . وأن تلتزم الأطراف المعنية بأداء دورها . . وبخاصة: الأم: لقد كان من نصيحة بعض الأمهات لبناتهن الذاهبات إلى بيت الزوجية:

تزوجى الرجل . . والبيت . . معا !

بمعنى ألا تحصر همها فى المتعة الجسدية . . وإن كانت حقها . . لكن عليها فوق ذلك أن تعيش هموم البيت كله . . مع زوجها فلا تتركه يغالب الأحداث وحده . ولا تنفر من خضوعها له.

ولكن أوضاع العش الجديد مختلفة عما نشأت فيه وتربت عليه . . وإذن . . فلابد من الاختلاف فى بعض مراحل الطريق . . والاختلاف فى حد ذاته وارد . .

لكن الخطورة ترجع إلى سوء تكييف القضية المختلف عليها . . فقد تظن الزوجة أن تنازلها عن رأيها . . واستسلامها لرأى زوجها . . قد تظن ذلك هزيمة لها . . فتهرب إلى أمها . حاملة طفلها . وعندئذ تتسع شقة الخلاف . ويتعقد الموقف . .

ولكن صوت العقل ينادى . . وينبغى أن نصيح السمع إليه:

إنه يقول للزوجة الغاضبة:

ارجعى إلى بيتك . . وتنازلى عن كبريائك المزيف . . وقولى لمن ظن أنك تنازلت عن حقك فأنت خاسرة . . قولى لهم: بل أنا الذى كسبت:

كسبت زوجى . . وكسبت ولدى . . وعدت إلى بيت تخفق الرياح فيه . . فهو أحب بيت إلى . .

وهو أحب إلى من قصر منيف . . بلا أليف !!

❐ ● ❐

❑ ● ❑ بيـوت بلا كلفة .. وبلا تكلف ❑ ● ❑

ما زلنا نكرر ونقرر أن بساطة البيوت جعلت منها جنة الدنيا . .

وكانت الزوجـة فيها . . وبها . أسـعد من أختهـا الحضرية الخارقـة فى كل ما استحدث من فنون الترفيه . . إلى الحد الـذى سئل فيه رجل جاب آفاق الدنيا وشاهد من جمـالها ومظاهر الرقى فـيها . . سـئل : ما أجـمل مكان فى الدنيا . . فـأجاب ببساطة :

أجمل مكان فى الدنيا هو : بيتى !

ولقد كان الأعرابى البسيط أعمق سرورا من غيره . .

حتى وهو يعبر الصحراء فى لفح الهجير . .

ولما قيل له :

كيف تصنع بالبادية . . إذا انتصف النهار . . وانتعل كل شيء ظله ؟ قال :

وهل العيش إلا ذاك ؟! :

يمشى أحدنا ميلا . . فيرفض عرقا كالجمان . . ثم ينصب عصاه . ويلقى عليها كساء . . وتقبل عليه الريح من كل جانب . . فكأنه فى إيوان كسرى!!

وتأمل فلسفة الذى لم يدرس الفلسفة ! :

إنه يقول : وهل العيش إلا ذاك ؟ . . إلا فى وقـدة الحر التى يحسن استقـبالها والتعامل مـعها . . ليحـولها إلى لحظة بهيجـة . . إنه رجل لا يصنع الآلام صنعا . . ولكنها لو فـرضت عليه صهرته . . فكان رجـلا . . يخرج من حرها ذهبا خـالصا! وياحبات العرق تساقط من جبينه . . فيحسبها معدنا نفيسا . . ثم يستعلى به إباؤه . . فإذا هو أسعد من كسرى فى رياشه . . وأثاثه !

فإذا عاد إلى أهله . . وجد بيتا . . لا قصرا . .

أجل لقد كان بيتا .. ولم يكن قصرا ..

فللقصر تكاليفه . وله كذلك عاداته وتقاليده .. أو قيوده . ولأنه قصر .. فهو «مقصور» على أهله .. إن له أبوابا .. وعلى أبوابه حجابا!

أما البيت فهو من «البيات» .. وذلك يعنى: السكن .. والراحة .. والبساطة ..

فيه من الليل هدوؤه .. وسكنه .. يأوى إليه الحران.

فيحس ببرد السلوى ..

ويلوذ به الجوعان .. ليجد فيه لقمة الخبز .. وحصاة الملح ..

فيجد لها متعة يفتقدها ساكنو الدور والقصور ..

مع ما يقدم إليهم من أفانين الطعام.

ولعل هذا سر التعبير القرآنى عن السكن بلفظ «البيت»

مؤثرا إياه على مصطلحات أخرى لاتعبر عن حقيقته فى:

﴿ **واللَّهُ جعل لكُم مّن بيُوتكُمْ سكنًا** ﴾ (١)

﴿ **لا تدْخُلُوا بيُوتًا غير بيُوتكُمْ حتَّىٰ تسْتأْنسُوا** ﴾ (٢)

إنها بيوت سعيدة .. لا بما فيها من غذاء مثلج مخزون ..

ولكن بطعام تجلبه لحظة الجوع وهو قريب العهد بربه ..

وحتى إذا احتاجت إلى الدواء .. فإنها لاتستورده .. وإنما تصنعه من أعشابها المحلية .. ناجية من مضاعفات أدوية اليوم .. وما فيه من سموم لها آثارها التى لاينجو منها الحريص.

العش .. الخفيف والقصر النيف

لقد كان مالك بن أسماء يهوى جارية من بنى أسد . تنزل خصا . بينما داره مبنية بآجر . فقال:

---

(١) النحل: (٨٠). (٢) النور: (٢٧).

يا ليت لي خصا يجاورها
بدلا بداري في بني أسد
الخص فيه تقر أعيننا
خير من الآجر والكمد

وهكذا سعدت أمتنا بالبيت البسيط .. النظيف .. الخفيف الحمل ..

وما غاض معين السعادة إلا بعد أن تنكرت لقيم هذا البيت .. وداعبتها أحلام القصور .. وما يترتب عليها من تعقد الحياة تعقيدا قد يحمل على تجاهل مشاعر الآخرين .. تحت وطأة حب الظهور !:

وقد روى: أن عبدالرحمن الناصر أحس بالسعادة يوما. لما قصده نائب امبراطور بيزنطة بالهدايا.

وانتهزت زوجته الذكية تلك الفرصة وطلبت منه أن يبنى لها قصرا.

لكن القصر لن يتم جمالا إلا بإزاحة بيت أيتام. وحمام. هو مورد رزق هؤلاء الأيتام.

وتصدى كافل الأيتام لقيم الاستعلاء .. واستمسك بحق اليتامى وبقى الموقف درسا .. للمسارعين فى الدنيا .. وإلى الدنيا .. لعلهم أن يعودوا إلى قيم البيت الإسلامى .. البسيط .. السعيد .. سعادة لو علمها المترفون لجالدوه عليها بالسيوف!

حفلاتنا بين التدين والتداين

قالت عائشة – رضى الله عنها –:

«تزوجنى النبى ﷺ.

فأتتنى أمى . فأدخلتنى الدار . فإذا نسوة من الأنصار فى البيت . فقلن:

على الخير والبركة . وعلى خير طائر» البخارى وأبو داود.

تمهيد:

تصرخ الوليدة وهى خارجة إلى الحياة . . بينما الأم تضحك سعيدة ببكائها . .

وتنتقل البنت فى مراحل النمو حتى إذا كانت ليلة زفافها . . خرجت ضاحكة بينما الأم تبكى !

تضحك البنت . . لأنها ستزيد واحدا . .

وتبكى الأم . . لأنها ستنقص واحدة !

لكنها على أى حال مسرورة فى أعماقها . . لسرور ابنتها . .

وهذه هى «أم رومان» تنتزع عائشة من صواحب كانت تلعب معهن . . وبينما كانت أنفاس العروس تتلاحق من السرعة . . إذا بأمها تمسحها بماء . . ثم تسلمها إلى نساء الأنصار . .

وفى المساء كانت زوجة للرسول ﷺ

وهكذا . . كان نهر السرور يتدفق داخل البيت . . فى وقار وهدوء بعيدا عن الصخب . . والنصب . . والسرف . .

هدوء . . كأنك تحس فيه حتى بالدم يتدفق فى العروق . .

ودقات القلب . . مسموعة خلف الضلوع !

هذا كل مايدور فى البيت . فماذا عما يجرى خارج البيت؟

ماذا يفعل الرجال ؟

قال أنس - رضى الله عنه -:

«ما رأيت النبي ﷺ أولم على أحد من نسائه ما أولم على زينب .. أولم بشاة» متفق عليه.

الشاة تذبح .. على مرأى من صبيان يتخذون من مشهدها مسلاة تسعدهم .. وبقية الشباب يتنافسون في توفير أسباب الهناء من خلال هذه البساطة التي تجمع الجلال والجمال معا ..

ثم هي شاة .. من شياه .. يملكها رب البيت أو تهدى له ولم يستدن ليجلبها من السوق .. فيفسد الدين فيه معنى البهجة..

وقد لاتكفى الشاة أهل الحى .. لكن يكفى أن تظل رمزا يجمع على الحب والود .. ألا إنه ليس مع الحب قلة .. وتكفى وفرة المشاعر ودفؤها:

وصدق القائل:

قليل منك يكفيني .. ولكن

قليلك لايقال له: قليل

أجل يجتمع أهل الحى الذين يعرف بعضهم بعضا .. فيأنس بعضهم إلى بعض .. وتتمدد المشاعر في جو سقطت فيه الكلفة ..و ذهب التكلف..

ثم يأكلون هنيئا .. ويشربون مريئا .. بعد أن جددوا بالوفاء والصفاء علاقاتهم..

ولكننا اليوم نجعل الفرح مغشوشا .. عندما نلقى في البحيرة الساكنة بحجر ثقيل.

فقد يحرص بعضنا على حضور المسئول الكبير .. وقد لايصل في موعده .. فيختل المزاج .. وتعتل الخطة !

فإذا حضر في موعده .. تعامل الحاضرون معه بمشاعر أخرى .. تراقب حركاته.. وسكناته .. وتصرفاته .. ثم تحبس مشاعر البهجة في جو الهيبة المفروض

.. فإذا أنت فى حفل انتخابى .. لا فى لقاء بهيج.

وقد تأتى فى زمرة الكبار .. عقيلات متبرجات بزينة .. وكما اختفت مشاعر البهجة مع الكبار .. تتضاءل العروس بزينتها فى جنب مائلات مختالات مزينات بأحدث الأزياء ..

أجل .. تختفى العروس وسط هذه الأمواج المتلاطمة من اللباس والذهب .. والماس!

وكانت الأم .. زمان .. أحكم من زميلاتها اليوم .. وأعظم سعادة أيضا .. حين كانت تمنع البنت من التزين قبل الزفاف. وعلى مدى شهر .. حتى إذا وافت ليلة العرس .. كانت حقا عروسا !

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها .. فاقرأ وصف الفرح المتكلف المكلف.. لتخرج بحقيقة هى: أننا .. زمان .. كنا أكثر تحضرا، يقول المويلحى:

" ودخلنا ساحة كأنها مدينة تبرجت فى يوم الزينة، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم، لانجد موضعا لقدم، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب من ذوى العلامات فى الثياب فدسنا فى جماعة لم نعرف منهم أحدا، ولم يحسنوا لتحيتنا ردا. وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول لا يدرك ما يذره وما يأتيه. وأن صاحب البيت لايدرى بالذى فيه وأنه لاتثريب عليه ولالوم فهو مشغول بتحية كبار القوم، ممن لم يخالطهم قبل اليوم ..

وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله ؟

... الغرض أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبار والعلماء لبيته، وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانبا عظيما من ثروتهم. وما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت، بل كنت أعهدها تقام لائتناس أصحاب العرس بأصحابه ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه".

❑ ● ❑

ثروة المال وثروة الرجال

يقول ﷺ:

«ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن»[١]

كان محمد بن كعب القرظي يقول:

«ادخرت مالي لنفسي . عند الله تعالى . ثم ادخرت ربي سبحانه . . لولدي»

ويعني ذلك: أنه أنفق ماله في مصارفه من وجوه الخير . . ولم يكن همه أن يدخره لولده بعد مماته . .

فقد تركهم لمن لاتضيع عنده الودائع سبحانه وتعالى . .

وكيف يفني عمره من أجل ثروة يخلفها من بعده . . لايدرى مايصنع أولاده فيها . .

وإذن . . فلينفقها على عيال الله المحتاجين . .

أما عياله هو:

فإن كانوا - كما قال ابن عبدالعزيز - إن كانوا صالحين . . فإن الله يتولى الصالحين . .

وإن كانت الأخرى . . فما يصح له أن يكون عونا لهم على معصية الله بمال شقى فى جمعه . . ليستمتع به غيره . . ثم . . وفى النهاية يحاسب هو عليه!

ولقد قامت خطة الآباء الصالحين على عمارة البيوت بالقيم التى تسعد بها البيوت . .

هذه القيم التى كانت فى طليعة مايهتم به الوالد . . إزاء ولد سيكون من بعده امتداد حياته . . ليصير له من بعد عمرا ثانيا . . وذكرا باقيا .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث غريب.

وعن هذه القاعدة الصلبة انبثقت نصائح الآباء للأبناء . فكانت لهم نورا يسعى بين أيديهم . .

ومنها ما قاله والد لولده وهو يعظه:

«أى بنى:

إنى مؤد حق الله فى تأديبك . . فأد حق الله فى الاستماع منى:

أى بنى:

كف عن الأذى .

وارفض البذا .

واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التي تدعوك فيها نفسك للكلام:

فإن للكلام ساعات يضر فيها الخطأ . ولاينفع فيها الصواب.

واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا . . كما تحذر مشورة العاقل . . إذا كان غاشا . لأنه يرديك بمشورته .

واعلم يا بنى:

أن رأيك إذا احتجت إليه . . وجدته نائما . . ووجدت هواك يقظان.

فإياك أن تستبد برأيك . فإنه حينئذ هواك.

ولاتفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لاترديك وأن نتيجته لا تجنى عليك.

وإياك ومعاداة الرجال:

فإنك لن تعدم فكر حليم . أو معاداة لئيم»

إن الوالد هنا يأخذ ولده بعزائم الأمور:

يحذره من الفحش . وبذاءة الكلام. . وأن يغلب فى نفسه الرغبة فيه . . فرارا من آصاره . . وعليه إذا استشار أن يتخير المؤتمن . . نافرا من الاستبداد بالرأى . . ذاكرا دائما عاقبة قوله وفعله. . لافتا نظره إلى الاحتفاظ بثروة الرجال . . التى يجب

أن تزيد بالود .. وألا تنقص بالجفاء أو البذاء .

ثم يوصيه بوجه خاص .. بالالتزام بأدب الحوار .. وصولا إلى الحق . واحتفاظا بالطرف الآخر صديقا حميما .. لا مناوئا خصيما .. وذلك قوله:

«لاتغالب أحدا على كلامه .

وإذا سئل غيرك .. فلا تجب عنه.

وإذا حدث بحديث .. فلا تنازعه إياه . ولاتقتحم عليه فيه . ولاتره أنك تعلمه.

وإذا كلمت صاحبك .. فأخذته حجتك .. فحسن مخرج ذلك عليه . ولاتظهر الظفر به.

وتعلم حسن الاستماع . كما تتعلم حسن الكلام»

وهكذا .. تترى نصائح الآباء .. لتجعل من الولد نموذجا اجتماعيا من الطراز الأول بما تنشئ فيه من حرص على مودة الناس .. بالإحسان إليهم..

بل إن الآباء كانوا يأخذون أولادهم بما هو أشق من ذلك .. حين كانوا يزرعون فيهم خلائق السيادة .. فلم يكفهم أن يكونوا فقط مواطنين صالحين .. بل عليهم أن يكونوا فوق ذلك مصلحين..

ومن ذلك قول أحد الآباء لولده:

يا بني: إن الملك والعدل أخوان لاغنى بأحدهما عن الآخر ..

فالملك أس .. والعدل حارس.

والبناء مالم يكن له أس .. فمهدوم.

والملك .. إن لم يكن له حارس .. فضائع

ولمثل هذا فليعمل العاملون.

❑ ● ❑

أهمية التربية ومسئولية الوالد

كان الطفل في الأمس البعيد أسعد حظا من طفل اليوم:

لقد كان يبتسم صباحا مع الزهر .. ويجرى مع النهر، ويسبح مع الطير السابح فى جو السماء.

يرى الماء: إذا مسته أيدى النسيم .. يحكى سلاسل الفضة .. فى «غدير: ترقرقت فيه دموع السحائب .. وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب

والسحب البيضاء تتراكض فى جو السماء: فيضحك من بكائها الروض .. وتخضر من سوادها الأرض»

أما طفل اليوم: فإنه مسجون فى علبة من المسلح .. مشدود الأعصاب إلى جهاز يفسد مزاجه وصحته معا .. والأصل فى هذا الجهاز أنه ينهض ما ركد فى الطفل من مواهب .. وأن يحاول تطويعه أو تطبيعه .. لينسجم مع الحياة من حوله .. ولكن إثمه كان أكبر من نفعه !

ولم يكن الوالد اليوم بأحسن حظا من ولده بين يديه .. بل إنه ليأخذ كفلا من هذا التوتر وهذا الشقاء:

لقد كان الوالد فى الماضى يمسك وحده بالمجداف .. مبحرا بالسفينة فى المياه الهادئة .. واصلا بها إلى مرفأ الأمان ..

كانت كلمته هى العليا .. بلا منافس أو مجادل ..

أما اليوم .. فإنه لا يتولى أمر التربية منفردا .. وإنما له منافسون خطرون:

الأصدقاء .. والنوادى .. والإعلام .. وقد يهدمون فى ساعة ما يبنيه فى عام!

وهو اليوم يجأر بالشكوى طالبا معونة خارجية تعينه على تربية ولده .. والجهات القادرة على نجدته هى:

المدرسة . والمسجد . والبيئة العامة ..

لكنها لا تسعفه .. وإذا أسعفته فبعد فوات الأوان .

وتظل حاجة الطفل متجددة إلى الدرس .. وإلى الغرس ..

الدرس النظرى .. تثقيفا للعقل

والغرس العملى .. بالقدوة الحسنة

واجب الوالد:

ومهما يكن من أمر .. فإن مسئولية الوالد عن ولده تظل قائمة دائمة .. ذلك بأن الله تعالى يقول:

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾[1] .

وإذن فهو الأصل المنسوب إليه .. هو الولى .. فليتحمل تبعات هذه الولاية..

الولاية التى تبدأ ضغوطها مع الطفل الأول:

يقول علم النفس:

«إن للطفل الأول مركزا خاصا فى الأسرة:

فهو عندما يولد يكون موضع الرعاية والاهتمام .. لأنه الطفل الوحيد.

كما وأنه – نظرا لأنه الطفل الوحيد فى الأسرة – فإن علاقاته تكون مع الكبار مباشرة .. وذلك لعدم وجود إخوة له .

ودائما يكون سلوك الكبار معه قائما على التسامح»[2]

وبعد ميلاد الطفل الثانى .. ينزل هذا الملك المتوج عن عرشه ..

فإذا جاء الثالث تعقدت المشكلة:

---

(١) الأحزاب (٥).   (٢) د. مصطفى فهمى

قالابن الأكبر ينال الاحترام .

والابن الأصغر . . ينال كل الحنان والدلال.

ويصبح الأوسط على خطر عظيم ! . . الأمر الذى يحمل الوالدين مسئولية الالتزام بالعدل الملتزم بالحكمة . . حتى لا يقع صدام بين ذوى الأرحام . . هذا الصدام الذى يترك آثاره ولا ريب على علاقات الإخوة فى قابل الأيام !

ولا بأس أن نتوقف أمام هذا المشهد الطريف الذى يخفف من جدية الحديث . . والحديث عن الأطفال أبدا . . حديث ذو شجون :

قالوا: يتشاجر الأولاد . . بل ويتخاصمون . . وفى غيبة أبيهم فإذا ما ظهر الوالد على المسرح تحولوا إلى ملائكة لا يعصون . . ويفعلون ما يؤمرون . .

ثم تتدخل الأم بقلبها الكبير . . لا لتحل المشكلة ولكن . . لترحيلها . .

وقد صاغ الشاعر هذا المعنى فأنشد:

يتخاصمون على التوافه .. لا
زجر يردهم ولا كلل
في غيبتي يتشاكسون .. وقد
يتشاجرون .. وربما اقتتلوا
فإذا ظهرت أمام أعينهم
عادوا ملائكة .. وما مهلوا
وعلى ثيابهم دلائل ما فتكوا
وما هتكوا وما فعلوا
لا يخجلون لزلة عظمت
فإذا نظرت إليهم خجلوا
حتى إذا عاقبت جائرهم
تأتي وتذهب بيننا الرسل !

❑ • ❑ ولاية الرجال لا ولاية ❑ • ❑ الأطفال

حاول فريق من الباحثين الأجانب أن يثبت جهازا كهربيا فى شجرة خضراء .. وبقى الجهاز ساكنا فترة من الزمن .. ولكنه تحرك عندما قطعت ورقة من أحد الفروع!

وهذا لسان حال **الطبيعة الكونية** .. والتى تعلن الشجرة فيها حزنها على فراق جزء منها .. إنها مجرد ورقة .. لا فرع من الفروع ..

هذا حال **الطبيعة الكونية** .. فماذا عند الطبيعة البشرية ؟

إن الطبيعة البشرية .. والمفروض أنهاحساسة شاعرة قد تقطع بيدها تلك الورقة الخضراء .. غير مأسوف عليها ..

وهذا ما نشرته الصحف فى بلد الباحثين الأجانب:

تحت عنوان «الطفل غير ملزم بحمل اسم والده»

قالت الصحيفة:

«أعلنت المحكمة العليا فى «كاليفورنيا» أنه لا توجد قوانين تلزم الطفل بضرورة أن يحمل اسم عائلة والده.

ورفضت بالتالى دعوى والد بحق الأب فى أن يختار لقب أولاده.

وطلبت المحكمة العليا إلغاء هذا الحق بالنسبة للأب فى أية خلافات عائلية حول أحقية رعاية الأطفال.

وقالت المحكمة:

إنه عندما ينشب خلاف بين الأب والأم حول اسم العائلة الذى سيحمله الأطفال .. فإن الأمر يترك للأطفال أنفسهم لاختيار الاسم الذى يريدونه»

وهكذا . . وفى مستـهل حياتهم . . يتعلم الأطفال فن التمـرد . . بل التحدى . . تحدى آبائهم . . ويستنوق الجمل هناك ثم تنحل عقدة البيت . . لتصبح أنكاثا ! .

أما فى **الإسلام** فالأمر جد مختلف :

فأولى واجبات الوالد أن يختـار لولده اسما يحدد ملامح شخصـيته . . منطلقا من مسلمات عقلية وواقعية :

فنحن فى حـياتنـا نهتم بمن يصـحـبوننا فى سـفرنا الـقاصـد . . وفى الشقـة البعيدة . .

فكيف بالاسم . . وهو الرفـيق الذى نأخذه قـبل الطريق . . فى رحلة العـمر كله . .

ولقد كان للإسـلام هنا كلمته . . وآدابه فى هذا الباب . . الذى صـار مدخلا إلى الحياة . . ومنها :

التزام الوضـوح . . بتجنب الأسماء المشتركة بين الذكـر والأنثى . . فرارا من الحرج الذى قد يكون مضـاعفا لو كان فى الاسم ما يجرح المشـاعر . . بمعان تخدش الحياء . .

والمعنى الجامع هنا هو: إعداد الوليد ليكون رجلا . .

ومن أجل ذلك كان من السنة كما أشار العلماء :

من السنة النبوية تكنية المولود «بأبى فلان» . . لماذا ؟

من المبادئ التـربوية التى وضعـها الإسـلام فى تربية المولود والتى أقـرها علماء النفس فى الزمن الحاضر، تكنية المولود بأبى فلان لما لهـذه التكنية من آثار نفسية رائعة وفوائد تربوية عظيمـة تلصق بالمولود فى طفولته وصباه فـهى تكريم للطفل وإشعار له بالاحترام بما ينمى شخصيته الاجتـماعية ويزرع فيه روح التخلق بأخلاق الكبار وتلك اعتبـارات نفسية هـامة لبناء شخصـية الطفل المسلم . فكان ﷺ يكنـى الأطفـال ويناديهم بها وذلك تعليما للمربين وإرشادا لهم حتى ينهجوا نهجه ويسلكوا مسلكه فى تكنية أولادهم ومناداتهم بها.

فعن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله أحسن الناس خلقا وكان لى أخ يقال له أبو عمير فكان ﷺ إذا جاءه يقول له «**يا أبا عمير ما فعل النقير**» وعمير هذا كان فطيما والنقير الطائر الذى كان يلعب به.

وقد أذن رسول الله ﷺ للسيدة عائشة أن تكنى بأم عبدالله، وعبد الله هذا، هو عبدالله بن الزبير ابن أختها أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهم جميعا.

مسئولية تربية البنت:

وتأخذ تربية البنت وضعا خاصا فى المنهج الاسلامى .. بالنظر إلى ضعفها . وحساسية طبيعتها كأنثى ..

وإذا كان نجاحنا فى تربية ذكورنا مضافا إلى حسابنا .. فإن نجاحنا فى تربية بناتنا أثقل فى الميزان . وأعظم فى الأجر ..

وإلا .. فإن المبالغة فى جانب .. والقصور فى جانب آخر .. من شأنه أن يربك نظام البيت .. ويحرمه من بركة الذكور والإناث جميعا .. ومن لم ينتفع بعينه .. لم ينتفع بأذنه .

بل إن المربين المحدثون .. لينوهون بالآثار المباركة من وراء البنت دون الأولاد الذين خلقوا لزمان غير زماننا .

يقول «عبدالقادر المازنى»:

كثيرا ما تمارس البنت طاقة الأمومة تجاه والدها، فتعامله بحنان أقرب إلى حنان الأم منه إلى حنان البنت.

أما الصبيان فأنعم بهم، إنهم يشبون، ويكبرون، ويصبحون رجالا، ويحملون أعباءهم ويشقون طريقهم فى الحياة، ويفوزون بحسن الذكر، ويشرف بهم الأصل الذى هم فروعه، ولكنهم يا صاحبى بعد دخولهم فى حدود الرجال ينقلبون أصولا لأنفسهم ولا يعدون فروعا من غيرهم.

وهذا يا صاحبى أوجع ما فى الأمر، إنهم يحتلون المكان الذى نخليه نحن، ويجعلوننا نشعر بأننا أخليناه لهم، وما أكثر من يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا

بإخلائه، إن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات بأننا لسنا من أهل هذا الزمن الحاضر.

لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على الدنيا .. نعم .. إنهم يحتملوننا ويحبوننا، ولكنهم يشعرون بأننا انتهينا .. فنحن محسوبون على الماضى مضافون إلى آثاره.

إنهم يستمعون إلينا .. ويطيعوننا .. ولكن بلا حماسة، وبلا اقتناع، وإنما على سبيل التسامح.

هذا عن الأبناء الرجال، ولكن البنت شيء آخر مختلف للغاية .. يظل أبوها - حتى يحل زوجها مكانه - مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه منذ طفولتها .. لا يذويه فى نظرها الكبر، ولا يؤثر فى صورته مر السنين .. الأب عادة هو محور حياة البنت، وقطب الرحى فى وجودها، وحب الأب لابنته سماوى ملائكى ليس من هذه الأرض، وهو حب لا يعكر صفوه إحساس بأنها ستحل يوما محله .. ينشغل الأبناء الذكور بحياتهم كلما كبروا، ويزدادون بعدا عن الأب كلما مرت عليهم السنوات .. أما البنت فتزداد اقترابا من أبيها كلما مر الوقت، ويزداد حنانها له وحدبها عليه كلما تقدمت به السنون .

ولقد كانت المرأة فى نظر المازنى هى الحياة مختزلة.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ دروس فى التربية من ❑ ● ❑ قصة لقمان

فى وصايا لقمان لابنه دليل يؤكد قدرة التربية الإسلامية على إعداد الفرد السوى النقى . . مهما كانت درجة الولد من التمرد.

فقد كان ابن لقمان كافرا . . وعلى بعد المسافة بين التوحيد . . والشرك . . فقد استطاع أبوه إخراجه من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام .

خصائص المربى المسلم

أرأيت إلى رجل يعلم جيدا أنه لو ألقى بنفسه فى موج كالجبال . . فسوف يغرق . . ومع ذلك يلقى بنفسه فى اليم وهو لا يجيد السباحة . . بحثا عن اللؤلؤ فى أعماق بحر سوف يحتويه . . ليخسر حياته ويخسر اللؤلؤ معا !

إنه رجل غير حكيم . .

لأن عمله لم يكن على وفق علمه . .

أما لقمان . . فقد تحمل مسئولية التربية متسلحا بعنصريها :

بالعلم .

ثم بالعمل وفق هذا العلم .

وتلك هى الحكمة . .

الحكمة التى تثمر قيمة الشكر . . أو قيمة البر . . أو الوفاء . . الوفاء لولده الذى يربيه بالقدوة قبل أن يربيه بالكلام.

من ملامح الحكمة

أ- ولاحظ أن أباه يختار الوعظ كإطار عام تتم فيه عملية التربية . . أعنى:

أنه يعظه . . يتلطف به . . يتودد إليه . . ولا يلقى الحقائق أوامر ضاغطة . .

وإنما هي: الوعد الجميل بجائزة .. أو سياحة .. مثلا

ب- البدء بالأهم وهو:

النهي عن الشرك .. أعني: تنقية الأرض من العفن المانع من نمو النبتة الغضة الطرية ..

وعندما ينهاه عن الشرك .. يقدم إليه الدليل .. احتراما لعقله .. ليتفكر .. ويوازن .. ثم يختار:

يختار الفرار من هذا الوباء .. الشرك:

لأنه وضع للنفس في المكان الأخس: لأن المشرك يعبد من هو دونه .. ويسوى بين من يخلق .. ومن لا يخلق ؟!!

أهمية الوالدين:

وتجيء التوصية ببر الوالدين فى وقتها .. ليظل الوالد .. وتظل الوالدة دائما فى مركز التوجيه .. وحقهما فى البر .. لا جدال فيه .. اللهم إلا إذا كان أمرهما كفرا بواحا.

تربية الوجدان:

وإذا أثار الوالد من قبل ملكة التفكير لدى ولده .. فإنه يعزز هذه الخطوة بصقل الوجدان .. حتى تكتمل الدائرة ..

وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى ..

﴿ يا بنيّ إنها إن تك مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السّموات أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيفٌ خبير ﴾[1].

إنه يخوفه ويحذره: بأن الله تعالى: عليم .. قدير ..

واليقين بأن الله تعالى عليم .. مانع من معصيته سبحانه .. لأنه يرانا ..

والإيمان بأنه قادر .. يكفكف مشاعر العدوان فى قلب الإنسان ..

---

(١) لقمان : (١٦).

التحلية بعد التخلية:

وبعد نجاح المربى فى تطهير النفس من شوائبها يجيء الأمر بالعبادة .. التى تتنامى أعوادها فى تربة خصبة خالية من الأعشاب ..

وإذا كانت العبادة هى:

تعظيم الخالق ..

والشفقة على المخلوق ..

فقد كان أمره بالصلاة محققا عنصرها الأول ..

وكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر موقفا شطرها الثانى ..

قيمة الصبر:

ولا يتم ذلك كله إلا بقيمة الصبر ..

الصبر الذى لا يتم عمل بدونه ..

وفى غيابه تصبح الحياة مظلمة كئيبة ..

ألا وإنه الصبر الجميل سبيلا إلى الثواب الجزيل

وكما يحتاج «المذياع» للكهرباء والحرارة تسرى فيه لينطق .. كذلك كل عمل: جل .. أو قل .. إنه يحتاج إلى الصبر ..

والصبر الجميل .. والذى لا جزع فيه ولا شكوى ..

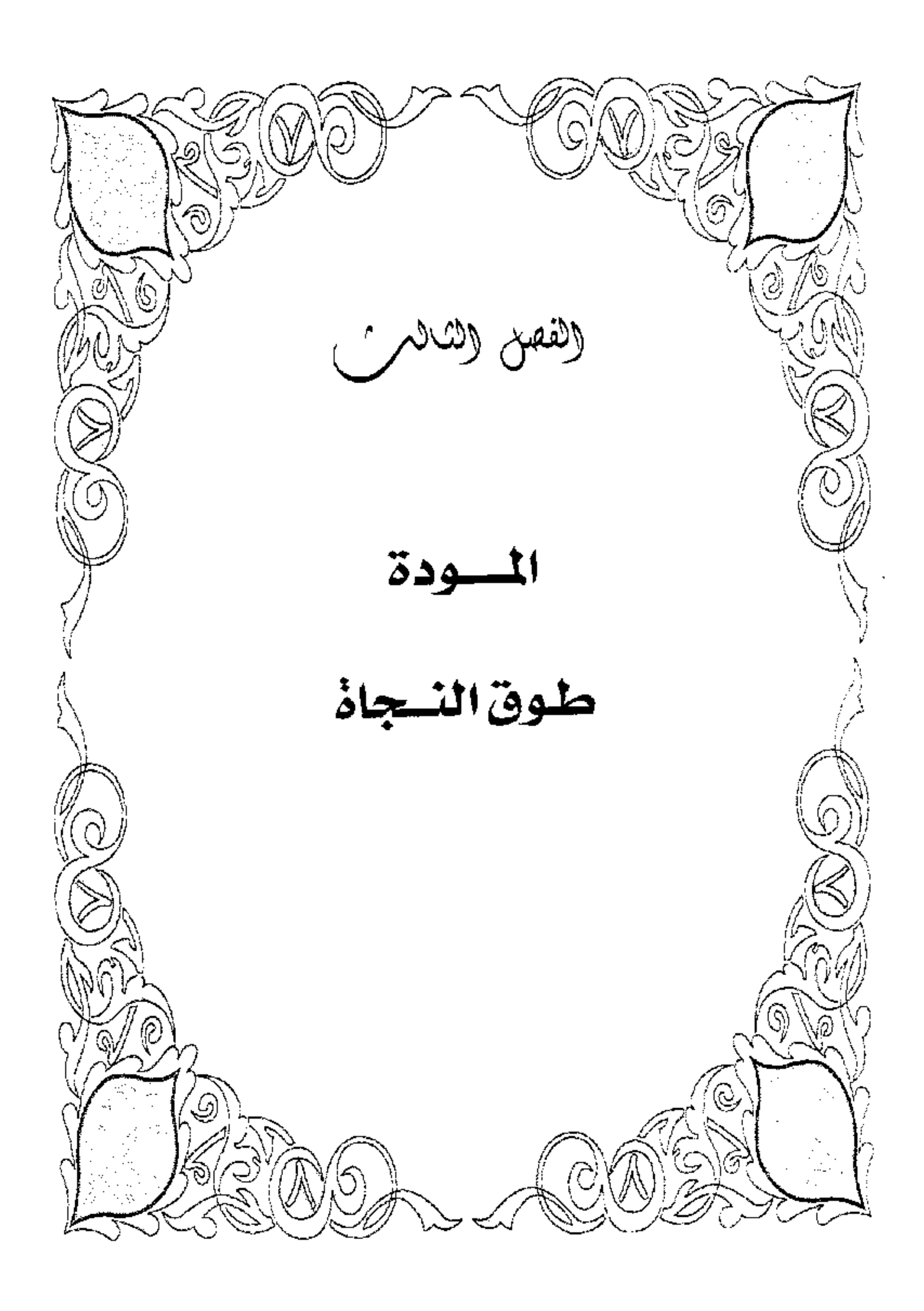
الصبر الذى هو: ضياء كاشف

وهكذا قالوا:

القمر: جسم مظلم .. لكنه يستمد نوره من الشمس .. التى جعلها الله ضياء..

وإذن:

فكما يستمد القمر نوره .. بل وجوده من الشمس .. كذلك كل عمل يستمد وجوده .. واستمراره من: قيمة الصبر . والصبر الجميل.



الفصل الثالث

المــودة

طوق النــجاة



□ ● □ من الحب إلى المودة □ ● □

ربما يحس المرؤ بالهوان إذ يلاقيه بمشاعر الإشفاق إنسان . .

في الوقت الذى يحس فيــه بوجوده !!! إنسان يتلقاه بشعــور المودة وما يشى به إعزاز وتقدير . . هو أليق بكرامة الإنسان . .

فإذا كانت هذه المودة هى قانون التعامل بين الزوجين . . كان عائدها وفيرا . .

ولاحظ من السنة المطهــرة تحريضــها عــلى ممارسة كل مــا ينمى هذه المودة من الأعمال . . وإن بدا يسيرا . . «حتى اللقمة : ترفعها فى «فى» امرأتك»

اللقمة : التى لا تقذفها فى حجرها . .ولا ترسلها إليها مع ولدها .

ولا تدفع إليها ثمنها . . وإنما ترفعها . . ترفعها أنت . . وبنفسك:

ترفعها إلى أعلى . . تكريما لها وتشريفا!

وبهذه المودة الجامعة . . وعلى أساسها يجمع الله تعالى شمل الزوجين . .

ولا يصلح «الحب» فى مفهومه العصرى أن تقوم مقامها . أويغنى عنها :

ذلك بأن الحب اليوم : قطعة من السكر . يراد تلطيف الدواء بها بدليل أنك قد تسمع اليوم محبا يتغنى بحبيبه . . معلنا أنه مستعد أن يضحى بحياته فى سبيله . .

ولكن . . إذا مرض هذا الحبيب . . أو غاض جماله . انتهى كل شيء . .

لقد ذهب الشباب . . رحلت الحيوية . . فقال لها الحب : خذينى معك !

ولكن المودة تبقى . . وإن ذهب كل شيء . .

لقد «جعلها» الله تعالى بينهما عهدا غليظا . . موثقا . .

وما جعله الله تعالى لا تهدمه أحداث الزمان .

بل ربما كانت المودة هذه الجوهرة فى صدفة البــحر التى لا تخرج إلى الحياة . . ولا يشع نورها إلا إذا اصطدمت بأحداث الدهر !

ومهما كانت الزوجة مريضة .. [illegible] .. الصبر عندئذ خير سلاح نتجاوز به المحنة .. على حد قول الشاعر

فإن أمرض .. فما مرض أصحابي [illegible] فإن حم .. فما حم اعتزامي

وهذا الصبر الذى به صار الرجل أكثر من الأحداث وأقدر على الوفاء فى المحن الضاغطة :

قد هون الصبر عندى كل نازلة [illegible] ولين العزم حد المركب الخشن

وهكذا الزوج الراشد دائما : تظل رجولته مناط تفوقه ..

وإذ تقول الآية الكريمة : «الرجال قوامون على النساء»[1].

ولا تقول : الأزواج قوامون .. فربما يعنى ذلك اتساع مساحة هذه القوامة حتى تشمل - مع الزوجة - أمه العجوز .. وأخته التى فاتها القطار .. وكذلك الخالة والعمة .. من اللاتى فقدن العائل والصاحب ..

وإذن فما أحوج الزوج إلى المودة .. التى تجند هذه الرجولة حتى تظل قابضة على الزمام ..

ويظل الزوج يرتفع بجناحين من الرجولة .. والمودة .. مستعليا فوق قانص من هوى .. أو شرك من خيانة .. فإذا هو من صناع المروءة .. التى تحمل أصحابها على احترام الإنسان .. بأعمال تبدو لدى الناس كأنها ليست من هذا الزمان .. إنها غريبة لأنها صادرة عن الغرباء وإن كانوا فى أوطانهم :

دخل محمد بن عباد على المأمون يوما .. فجعل المأمون يعممه بيده .

بينما جارية على رأسه تبتسم .. فقال لها المأمون :

لم تضحكين ؟ فقال «ابن عباد» أنا أخبرك يا أمير المؤمنين :

(١) النساء : (٣٤).

إن الجارية تتعجب من قبحى .. ثم إكرامك إياى .

فقال المأمون :

لا تعجبى .. فإن تحت هذه العمامة كرما ومجدا :

وهل ينفع الفتيان حسن وجوهم ∴ إذا كانت الأعراض غير حسان ؟

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى ∴ فما كل مصقول الحديد يمانى

وما أكثر الأزواج الذين ظلوا أوفياء لزوجات قلب الزمن لهن ظهر المجن .

وإذ يذهب البريق .. فقد بقى الزوج الصديق..

بقى بمروءته سعيدا بوفائه وإبائه .

ألا إن حب العشاق لحظة .. متعة عابرة .. لكن شجنه دائم بينما تبقى المودة .. بل تزدهر وإن تغير كل شئ فى الحياة .

الزوجة .. أو الزوج ..

ذلك بأنه مسلم .. وإذن فهو ذلك الرجل العاقل .. الذى يتواءم مع الواقع .. وليس هو بالذى ينتظر الواقع ليتلاءم معه ..

يقول ابن المقفع .. «المودة بين الأخيار سريع اتصالها . بطيء انقطاعها : كمثل كوب الذهب :

فهو بطيء الانكسار هين الإصلاح .

والمودة بين الأشرار : سريع انقطاعها . بطيء اتصالها . كالكوز من الفخار:

يكسرة أدنى عبث . ثم لا وصل له أبدا . والكريم يمنح مودته عن لقية واحدة. أو معرفة يوم . أما اللئيم : فلا يصل أحدا لا عن رغبة أو رهبة».

❑ ● ❑

❑ • ❑ قيادة التكليف ❑ • ❑

تقول كتب اللغة:

إن المرأة : «زوج» والرجل أيضا «زوج» هكذا فى اللغة الفصحى.

ثم إنها «عروس» وهو كذلك «عروس» .. بلا تفريق

ويعنى ذلك :

وحدة الكيان . والكفاح . والهدف .

إن الزوج .. والزوجة .. كليهما كيان واحد .. وإن كانا جسدين .. لكن حلت فيهما روح واحدة.

بيد أن هذا الكيان الواحد سوف يصبح لا شيء .. فى غياب الإيمان .. والتى تصبح الزوجة فى غيابه «مجرد امرأة» .. مجرد أنثى:

إنها عندئذ متعة عابرة .. وردة . سوف تذبل .. ثم تدوسها الأقدام!

ونقرأ فى هذا المعنى قوله عز وجل :

﴿ **ضرب اللهُ مثلا للذين كفرُوا امْرأت نُوحٍ وامْرأت لُوطٍ كانتا تحْت عبْديْن من عبادنا صالحيْن فخانتاهُما فلمْ يُغْنيا عنْهُما من الله شيْئا وقيل ادْخُلا النَّار مع الداخلين** ﴾[1].

ومع أن هذه القاعدة قد تنخرم فى مثل قوله تعالى عن زكريا : ﴿ **وكانت امْرأتي عاقرا** ﴾[2] إلا أن المفسرين قد عللوا ذلك فى مواطنه.

وقد أراد الماكرون للمرأة أن تظل كذلك : متعة عابرة .. للفراش .. وقد بدا ذلك فى مؤتمر المرأة . والذى كان من سماته :

---

(١) التحريم : (١٠).

(٢) مريم : (٥).

أنه لم يذكر اسم «الزوجة» ولو مرة واحدة ؟!

وإنما ذكرها بعنوان :

الشريك . . والرفيق . .

ولكن ماهى النتيجة ؟ النتيجة هى :

أنهما شريكان . . رفيقان فى سفر . . وسوف تنتهى الرحلة غدا أو بعد غد . . وإذا العشاق كل فى طريق !

مغزى الكلام :

وقبل هذا نتساءل : ما مغزى الإصرار على حذف كلمة «الزوجية» «والأمومة»؟ معناه :

أنهم يرفضون كل ماله صلة بمعنى «الأسرة»

ذلك بأن الأسرة . . والزوجية فى زعمهم : قيد

وهم يحبون الانطلاق فى كل الآفاق بلا ضابط وبلا رابط . .

ثم ماذا بعد أن تخلع المرأة لباس «الأمومة» و«الزوجية» كما يريد الماكرون لها ؟

سوف تتحول إلى مسخ شائه . .

وسوف تواجه الزوج بطبيعة غير طبيعتها . . فى معركة تنتهى حتما بهزيمة الفريقين . .

أما فى الإسلام :

فللزواج مذاق آخر :

فالقوامة للرجل . . لأنه الأقوى . . فهو الأقدر على قيادة الركب . . ومن تمام النعمة على الزوجة أن تكون تحت قيادته . . قيادة التكليف . . لا قيادة التشريف .

وإذا حدث وتساوى مع الزوجة فى : الغنى . . والجاه . . والعلم فلا بأس . .

ولكن الخطر أن تتفوق الزوجة فى ذلك . .

ومن أجل أن يظل الزوج جديرا بقوامته . . فلابد أن يكون هو الأغنى . . وهو

الأعلم :

لأن الغنى كالعلم : قوة تضاف إليه . .

وإلا فلو كانت هى الأغـنى . . وهى الأعلم . . إذن لاستقـوت بالعلم والغنى عليه . . وعندئذ تختل النسب . . عندما يستنوق الجمل !

لقد قررت الآية الكريمة أن الزوجة «سكن»

ولن تكون كذلك إذا تجاوزت حدودها . .

ولأن ريق الحياة محفوف بالمخاطر والمفاجـآت . . فقد كان من رحمته عز وجل أن وضع للتغلب على ذلك ضمانتين :

أ- المودة

ب- والرحمة

إن الإنسان بطبعه يود ما يسره . . وهكذا العروسان :

ما أحوجهما إلى المودة التى هى فى الميزان أثقل من عاطفة «القربى»

إن القرابة تحتاج إلى المودة .. لكن المودة لا تحتاج إلى القرابة .

وصحيح أن الصحـة والمال والوقت من أسباب السعادة . . لكنهـا أحجار كريمة مبعثرة فى ذواتنا . . ولن تكون بناء عاليا إلا إذا صـببنا عليها من المودة والرحمة ما به تعلو . . وتناطح السحاب .

وما أكثـر القصور المغلقة على اللبـاس . . والرياش . . والجواهر . . ومع هذا فلا تحس بسعـادة حرمت منها . . يوم زايلها الإيمان . . هذا الإيمان الـذى عمر قلوبا فى قباب من الصوف والوبر . . لكنها بالود صارت مملكة وربما كان فيها عبيد .

ونعم : إنهم عبيد . . ولكن الملوك عبيدهم !

❑ ● ❑

الـــــود

ذلك الغصن الباسق فى شجرة الحياة

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[1].

و الآية الكريمة ترسم الطريق الواصل بالمؤمن إلى الود . .

وقاعدة الانطلاق هنا هى : الإيمان بالله تعالى . .

ثم ما ينبثق عن هذا الإيمان من عمل صالح . .

ونهاية الطريق هى الود : تلك الواحة الظليلة وهى : المودة . .

المودة التى لم تكن من صنع الإنسان . . ولكنهـا منحة الواحد الديان . . الذى جعلها هو سبحانه وتعالى بحكمته . . وبقدرته . . وما جعله الله تعالى . . فهو باق لا يغيب .

فإذا تصورنا ذلك الود بين الزوجين أحسسنا له فى نفس الوقت بمذاق خاص:

إن «المودة» فى آية سورة الروم مقدمة على الرحمة . . وقد يكون فى تقديمها ما يرفع من قيـمة المرأة التى لا تختـار لأنها يتيـمة . . كسـيرة . . وإنما يختـارها فارس أحلامهـا بدافع من المودة وما فيها من إعـزاز لها . . يتقدم إليهـا وفى رأسه عقل . . وفى قلبه شـوق . . وفى صدره دين يكسر به التقـاليد . . حتى يجيء اختـياره على أساس إنسانى يقدر الطرف الآخر قدره.

وإذا كان من معانى «الود» : القيد . .

وإذ تقول اللغة : الود هو : الحب فى جميع مداخل الخير . .

فإن العلاقـة الزوجية بهذا المعنى سيكون لهـا استقرار الوتد . . وشمـول الخير

(١) مريم (٩٦).

وعموم البركة.

وسيكون الزوج «ود» الزوجة . . سيكون وديدها:

يملأ حياتها . . فلا يكون منها تطلع إلى من سواه.

ولاحظ أن الآية الكريمة تقول : سيجعل لهم . . بالسين . .

بمعنى : أنه سيأتى بعد زمن . . إذ ربما . . وفى مطلع الزواج . . ربما تصادمت الرغبات حين لا تكون فكرة كل طرف عن صاحبه واضحة تماما . . مما قد يستجلب التنازع والخلاف.

يعنى : إن ذلك الاختلاف فى مستهل الزواج أمر وارد . . ولكن الفرج آت لا ريب فيه حين تهب من الود نسمات ترطب جفاف هذا الاختلاف.

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى «جعل» هذا الود المبارك . . فليأخذ معناه المتراحب . . ليكون حبا . . ولكن بلا أسباب مادية أرضية . .

إن كل واحد من الزوجين يضع الآخر فى قلبه . . فلا فاصل بينهما من زمان أو مكان . .

وهو باق . لأنه أصيل :

لا يطفئه ذهبٌ . . ذَهَبَ . . ولا مال نَفَدَ . .

وإذا بهما جسد واحد :

يسمع كل منهما صاحبه بأذن روحه . . لا بأذن رأسه . .

ويراه . . ولكن ببصيرته . . وليس فقط ببصره.

وصار الأمر على ما قيل:

إن الود ليس ضمة . . ولا شمة . . ولا قبلة . . ولكنه تلك الروح التى تسرى . . فكأنه روح الحياة وحين يقف الوالهون من عشاق الدنيا أمام زبد البحر يعكس أشعة الشمس على سطح الماء . . فإن المؤمن يغوص فى الأعماق ليفوز وحده بالكنوز.

ومع كل حركة من هذه الحركات المباركة . . يتنامى الود . . كما تتنامى بذرة

شجـرة الصنوبر . . لتصبح ظلا ظليـلا . ثم يسافر الزوجـان معا رحلة العـمر . . ليصل بهما قطار الحياة إلى ربوة ذات قرار معين .

وفى الوقت الذى تهرب فيه فرص السعادة من أروقة القصور . . مع ما فيها من متاع ورياش

إذا بهذه السعادة تحط هناك رفافة الأجنحة في دار :

عرضها شبر

ضئيلة القَدر . .

صغيرة القِدر . .

لكنها مع هذا سعيدة كل السعادة . .

ألا إنه ليس ودا ذلك الشعور الذى ينـهار عند الضـربة الأولى . . وفى شهـر العسل . .

إنه مجرد إعجاب . . أو استلطاف . . - وكما قيل بحق -:

سمه كيف شئت . .

فهو على أى حال تلك الرغوة العائمة . . الهائمة . . الغائمة . .

إنها الزبد الطافى :

﴿ فأَمَّا الزَّبدُ فيذْهبُ جُفاءً وأمَّا ما ينفعُ النَّاس فيمكُثُ في الأرْضِ ﴾[1].

---

(١) الرعد : (١٧).

المودة طوق النجاة

يقولون :

إذا رفعت إنسانا فوق قدره . . فتوقع منه أن يضعك دون قدرك !

إذا كانوا يقولون ذلك فى مجال التعامل الاجتماعى . . فإن ذلك الحكم لا ينسحب على العلاقة بين الزوجة والزوج . .

تلك العلاقة التى يجف عودها إذا لم نسقه بالمؤانسة . . والعفو . . والإيثار . .

والتى لا تتنامى . . ولا يمتد ظلها إلا حين تجدد شبابها بالتضحية . . التضحية التى تبذل فطرة العطاء فيها . . لا تريد جزاء عليها ولا شكورا. بل إن متعتها الأثيرة فى أن تبذل . . مستعلية بودها الأصيل فوق الأشواق الطائرة . . المتبخترة . . فالمتبخرة !

هذه الأصالة التى هى ثمرة الود . . المتجاوزة الهنات الهينات لتظل العلاقة ماضية على السداد . .

وذلك . . حين يغضى الزوج . . وتغضى الزوجة . .

إنه الإغضاء . . سماحة . . وليس هو الإفضاء تمردا . .

حين يعطى عطاءه . . ثم لا يكشف غطاءه !

ومن صور هذا العطاء . . ما قالته البدوية وهى تودع زوجها المسافر :

(سهل الله لك الحزون.

وقبض عنك المنون .

وجنبك ما تخشى . . ولقاك ما تهوى .

وعجل أوبتك . مظفراً بأعدائك . مدفاعًا عن حوباتك.

مسرورا بأهلك وأوليائك)

أضف إلى هذا ما قالته أخت لها على ذات الطريق .. وزوجها يودعها طالبا منها خاتم الذهب . ليذكرها به .. فقالت له :

إن الخاتم من ذهب .. وأخاف أن تذهب ..

خذ هذا العود .. لعلك تعود !!

وحتى إذا ثقل ضغط الحياة .. وتعكر الجو .. يبقى الود القديم طوق النجاة .. من كيد الشيطان الذى قد يحاول استثمار اللحظة الحرجة لحسابه .. لكن فطرة الوفاء والإيثار تعلن عن نفسها فى ساعة العسرة بمثل هذا النشيد:

كل ما كان من ظلم وقسوة

وعذابات .. وأحقاد وجفوة

سوف تمحوه الليالى

فاخط نحو الود خطوة

ربما كنا - برغم الليل والإعصار - إخوة !

وقد يسول الشيطان للزوجين أن الود قد مات تحت ضغط الواقع المر

ولكنه يصحو فجأة .. منبعثا من مكمنه .. لأنه لم يخرج من القلب أساسا ..

لكن بذرته ما تزال بالقلب مدفونه تحت ركام الانفعالات .. وها هو ذا ينتفض من بين الركام .. كأن شيئا لم يكن .. عائدا بالعلاقة الزوجية أفضل مما كانت .. بعد ما ذاق الزوجان وبال الاختلاف .. فلم يبق إلا الائتلاف الذى يوافى كقطعة السكر بعد المرارة .. ليكون الإحساس بالمتعة مضاعفا.

ويبقى أن يظل الرجل رجلا .. ممسكا بالمجداف .. يحمى زوجته من ضعفها الذى يودى بالبيت كله ..

وإذا كان هناك زوجة تبكى زوجها .. كأنه طفل غرير ..

وإذا كانت هناك من تضحك زوجها .. كأنه فتى مغرور .. فإن قوامة الرجل تتدخل لتعيد إلى البيت توازنه .. متعاليا .. معتصما برجولته .. التى تأبى عليه أن

يكون طفلا .. أو أن يكون مغرورا .. وإنما هو رجل البيت وسيده.

لكن هذه الرجولة التى تعيد توازن البيت .. لاينبغى أن تنظر إلى الزوجة نظرة إشفاق بسبب أنها : مريضة .. أو فقيرة .. أو لا أهل لها ..

ذلك بأنه شعور الإشفاق عليها..

وشعور الإشفاق يقتلها !..

والبديل هو : المودة :

المودة التى تشعر معها بأنه يحبها لذاتها .. لا لأمر خارج عن كيانها ..

إنها ساكنة فى قلبه .. وعقله معا ..

ساكنة .. وليست مالكة مستبدة !

وإذا كان ولابد من الشفقة .. والرحمة أحيانا .. فليكن بالقدر الذى يصلح به الملح الطعام ..

فقد زعموا أن المحب إذا دنا
يمل .. وأن البعد يشفى من الوجد
بكل تداوينا .. فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع
إذا كان من تهواه ليس بذى ود

□ ● □

القلق النبيل

حين سئل الفيلسوف عن أجمل مكان فى الدنيا. كان جوابه:

أجمل مكان فى الدنيا هو : بيتى.

فإذا قالت لنا اللغة إن من معانى البيت أنه :

عيال الرجل . . وأن بيت العرب شرفها . .

تبين لنا أن جمال البيت ليس فى الحيطان . . وإنما فى رقة مشاعر الإنسان . .

ما حب الديار سكن قلبي
ولكن حب من سكن الديار

وأرق ما تطيب به الحياة فى البيت هو :

الزوجة . . التى تجعل منه جنة ونعيما . .

الزوجة التى تحرص دائما على أن تظل فى حس زوجها كذلك . . فإذا استقرت بلابل أفكارها . . واطمأن قلبها إلى أنها فى السويداء من فؤاد زوجها . . فكل شيء بعد ذلك يهون . . ومهما هجمت الأحداث . . وتغير الزمان . . ثم بقى الود القديم يتنامى مع الأيام فكل شيء إذن حضر!

فإذا كانت الزوجة عائشة - رضى الله عنها - . . ثم كان الزوج هو رسول الله ﷺ . . فإن الحرص على رضائه . . والتأكد من أنها مازالت فى بؤرة شعوره . . كل ذلك سيظل قضيتها اليومية.

قالت رضى الله عنها :

(قلت يا رسول الله :

أرأيت لو نزلت واديا . وفيه شجرة قد أكل منها . ووجدت شجرا لم يؤكل منها . . فى أيها كنت تُرتِعُ بعيرك ؟

قال :

فى التى لم يُرتع منها. يعنى : أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها) [١]

وأنت واجد نفسك أمام صورة من صور الامتحان .. الذى لا يراد به معرفة أهلية المسئول للنجاح. كما فى امتحانات الدنيا .. ولكنه الامتحان الذى يريد به السائل نفسه .. أين موقعه فى قلب المسئول؟.

ثم هو السؤال غير المباشر .. والذى يعفى المسئول من الإحراج ليجيب كما يشاء .. وبلا حساسية :

فلم تقل له مباشرة : أى أزواجك آثر لديك مثلا .. ولكنها تنقل المعركة السلمية إلى الوادى الأخضر الوسيع .. لتنوب الإشارة عن العبارة .. والتلميح عن التصريح .. حتى إذا وافى الجواب على غير هواها .. لم يصدم مشاعرها .. ثم لترضى من بعد بما قدر لها . وإن جاء على ما تهوى .. فهو غاية المراد من رب العباد.

ولاحظ الصورة الأدبية الظليلة .. وما تعكس من حس خصب نبيل .. تستنزل به الزوجة الوفية ود زوجها ..

وإذا كانوا يقولون : إن الفيلسوف يبلور الفكر .. فإن الأديب يبلور المشاعر..

وقد نجحت أم المؤمنين - رضى الله عنها - فى بلورة شعورها .. وجاء الجواب على ما يشتهى السفن.

ولكن : عن أى شيء تسأل أم المؤمنين - رضى الله عنها - :

إنها لا تريد الاطمئنان على مجرد حب الزوج .. فكل الشواهد تؤكد ذلك ..

لكنها لما كانت ضراتها «مسلمات مؤمنات قانتات» يتنافسن كلهن فى رضا سيد الخلق ﷺ .. فقد كان شغلها الشاغل أمراً وراء ذلك .. أو كما جاء فى فتح البارى : (ويحتمل أن تكون عائشة - رضى الله عنها - كنت بذلك عن المحبة ..

(١) البخارى / كتاب النكاح ».

بل عن أدق من ذلك).

وهو إيثارها على كل رفيقاتها .. اعتزازا بشهادة ترى نفسها. أولى بها ثم تشريفا لها بعيدا عن الدلال الذى قد تريد به الزوجة حب زوجها.. مضافا إليه نصيب ضراتها كله.

ومن حق الزوجة أن تفعل ذلك .. وصولا إلى مستوى من الحياة الزوجية التى تتجدد بها الثقة الرابطة .. قبل أن تتضاعف المشكلات اليومية .. تاركة آثارها فى اللاشعور .. ثم .. وفجأة .. ينهار البنيان .. الذى لم نصنه بدوام المراقبة والمتابعة..

إنه لا يكفى أن يعيش الزوجان تحت سقف البيت من أجل الأولاد .. أو حذر الفضيحة ..

وإنما هو الود المقيم .. المتنامى .. والذى يصون البناء ليظل شامخا يصارع الزمان ..

إننا «لانتجرع» الحياة الزوجية كأنها قارورة الدواء .. وإنما «نرتشفها» .. نستمتع بها .. فإذا البيت أجمل مكان فى الدنيا كما قال الفيلسوف الذى لم يكن فقط عبقريا .. وإنما كان فوق ذلك أسريا.

وما يزال هذا الحوار الودود .. مثلا يحتذى .. لكل أسرة تقف على حافة الهاوية ..

وقبل أن تنتقل المعركة إلى ساحات المحاكم.. حيث البلاغات والمبالغات .. والتى نخرج بها أسرار البيوت .. لتكون الزوجة على الألسنة أحاديث الشجون .. بعد أن كانت ذلك البيض المكنون .

□ ● □

التوافق أساس البناء

اقتربت المرأة الجميلة من الفيلسوف «برنارد شو» وقالت له : لو تزوج مثلى مثلك .. لكان لنا أبناء أذكياء .. وفى غاية الجمال !

وما كان جواب «شو» ! إلا أن قال لها :

وما يدريك .. فقد يرث الأبناء : شكلى .. وعقلك !

لقد أدارت المرأة فكرة الزواج فى رأسها كعملية حسابية .. تفرز النتيجة .. تلقائيا .. وعلى هواها ..

ولكن الرجل يلفت نظرها إلى أن فكرة الزواج أعمق من هذا . وأنها خاضعة لأمور أدق من هذا التصور..

ومن هذه الأمور :

الانسجام الجامع بين الطرفين

الانسجام الذى يتجاوز القشرة البادية .. وصولا إلى الأعماق .. ومن انكشف .. فوطئته الأعين .. وطئته الأقدام ..

وهكذا قال العرب .. وهكذا فكر الشباب العاقل الذى عاش الإسلام روحا .. لا شكلا .. ومعنى .. لا مبنى

ومنهم ذلك الفتى الذى قال له صاحبه وهو يحاوره فى فناء «كلية الفنون»

أما ترى جمال هذه المرأة العارية ؟!

فقال له زميله :

فكيف لو رأيتها بثيابها ؟!!

إنه يلفت نظره وبقوة ساخرا .. إلى الجمال المصون المكنون .. وكيف كان هو المحور الحقيقى الذى تدور عليه الحياة .. لا ذلك الجمال المبتذل المعروض . والذى لا

يرد يد لامس؟ !!

ويحملنا ذلك على أن نتساءل :

هل كل اجتماع بين ذكر وأنثى يتحقق معه الود . ويبقى به النوع؟

والجواب : لا . .

لا بد من التوافق والتجانس . .

إن فى الإنسان غريزتين :

غريزة تبقي بها ذاته.

وغريزة يبقى بها نوعه.

فهو يجوع . . فيطلب الطعام . . ليدفع الموت عن نفسه بالشبع . . ثم هو - وبدافع من الشهوة - يقترن بالأنثى ليمنع بالنسل انقراض نوعه.

ومن ثم كان لا بد من أساس التكافؤ أو التجانس . . والذى به يحقق الزواج مقصوده . .

ذلك التجانس المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ ومن آياته أنْ خلق لكُم مِّنْ أنفُسكُمْ أزْواجًا لتسْكُنُوا إليْها وجعل بيْنكُم مّودّة ورحْمة إن في ذلك لآيات لقوْمٍ يتفكرُون ﴾[1] .

إن المفروض فى الإسلام أن تبدأ علاقة الزوجية بالمأذون . ثم لا تنتهى إلا بالموت . .

بل إنها لتعبر الزمان . . ليلتقى الزوجان فى جنة الخلد . .

وذلك قوله تعالى

﴿ ربنا وأدْخلهم جنّات عدْنٍ الّتي وعدتّهُمْ ومن صلح منْ آبائهمْ وأزْواجهم وذرّياتهم . . ﴾[2] .

---

(١) الروم : (٢١).

(٢) غافر : (٨).

التوافق سنة الكون:

وهذا التوافق المطلوب هو سنة الكون من حولنا . .

وإذا كان الإنسان مطالبا بالانسجام مع هذا الكون من حوله . . فهو مطالب قبل ذلك بالتوافق مع شريك العمر . لتتم كلمة ربك صدقا وعدلا . .

وإلى هذا التوافق . . أو هذا التزاوج . . تشير الآيات الكريمة :

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾[1] .

﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾[2] .

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾[3] .

﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾[4] .

وتأمل مجالى الطبيعة بين يديك . . فماذا تجد ؟

تجد التوافق . . والوحدة . . والوفاء . . والإيثار . . والخصوبة . .

(تميل الزهرة إلى الزهرة . . فيكون الثمر . .

وتعطف الحمامة على الحمامة . . فتكون البيضة .

وتميل الأرض نحو الشمس . . فيكون الليل والنهار

ويرتبط القلب بالقلب . . فيكن الولد . .)

يرتبط القلب . . قبل أن يرتبط القالب . .

فنحن لا نستغنى عن الود . . أو عن الحب أساسا لعلاقتنا .

وكما يقول الأدباء :

(ما فى الحب من عيب . . وما على المحبين من سبيل . . إنما السبيل على الذين يتخذونه مطية للهوى . ويضيعون به مروءتهم وأخلاقهم)

الذين يعبرون عنه فى الشوارع الخلفية . . وتحت ستار من الظلام . . ثم يكون الختام . . أمر من الموت الزؤام !

---

(١) النجم : (٤٥) . (٢) القيامة : (٣٩) . (٣) الذاريات : (٤٩) . (٤) الرعد : (٣) .

▫ ○ ▫ والوالدات يرضعن أولادهن ▫ ○ ▫

لم تتجه الآية الكريمة إلى الأمهات آمرة إياهن بإرضاع فلذات أكبادهن . . لكنها فضلت صيغة الخبر : (يرضعن).

فكأن الرضاعة تمت فعلا . . بحكم فطرة الأمومة الراغبة فى إسعاد الوليد . . وكأن الآية الكريمة تخبر عن شيء وقع . . ولا تأمر بشيء متوقع . .

وذلك حسن ظن بالأم . . فضلا عن كونه تهييجا لها حتى لا تمتنع عن إرضاع ولدها . . بالإضافة إلى ما يشى به تعبير الوالدات . . اللائى يحرصن على إشباع أولادهن . . الذين هم جزء منهن . . على ما يقول العلماء [1]:

(جعل تعالى الأم أرض النسل . الذى يغتذى من غذائها فى البطن دما . كما يغتذى أعضاؤها من دمها .

فكان لذلك لبنها أولى بولدها من غيرها . ليكون مغذاه وليدا من مغذاه جنينا . . فكان الأحق أن يرضعن أولادهن).

على أن مما يحرص الأم على إرضاع ولدها ما هو معلوم بالتأمل فى قدرة الله تعالى والتى جعلت منها سبب حياته : جنينا فى بطنها ووليدا بين يديها . .

يقول العلماء [2]:

(عندما تولد اللبن فى الضرع أحدث الله تعالى فى حلمة الثدى ثقوبا صغيرة . ومساما ضيقة . . وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة . . انفصل اللبن عنها فى تلك المسام الضيقة . ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا . . فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة .

(١) تفسير البقاعى.

(٢)- الرازى - تفسير سورة النحل.

وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة . فيتبقى فى الداخل .

أى أن كل ما كان لطيفا خرج . وكل ما كان كثيفا احتبس .

فهذا يكون ذلك اللبن خالصا موافقا للبدن سائغا للشاربين)

وهذا من آثار رحمة الله بالأم والطفل معا . .

وبقى أن تثبت الأم أنها أهل لهذه الرحمة بإرضاعها ولدها . . وفى تأكيد هذا الحق يقول السدى والضحاك - كما فى تفسير القرطبى - :

(أى : هن أحق برضاع أولادهن من الأجنبيات . لأنهن أحنى وأرق . وانتزاع الصغير إضرار به وبها)

بل إن الباحثين قد ذهبوا كل مذهب فى ضرورة أن يكون وليدها فى بؤرة الشعور منها . . ومنذ اليوم الأول من عمره وقد قالوا فى ذلك :

(عندما يولد طفلك . فأسرعى بوضعه إلى الجانب الأيسر من صدرك . . ناحية القلب .

ومهم جدا أن يحدث ذلك فى اليوم الأول .

لأن هذا الوضع سيساعد الطفل فيما بعد على الرضاعة . وعلى النوم . وعلى عدم البكاء . . وعلى النمو .

فإذا وضعنا الطفل على الجانب الأيمن من صدر الأم . . فإنه لا ينام . ولا يرضع بدرجة كافية .

فالطفل قد اعتاد وهو فى بطن أمه أن يستمع إلى هذه الموسيقى الخالدة وهى :

دقات قلب الأم . . فهو يتحرك وينمو على صداها .

فإذا خرج من البطن . . فإن هذه الموسيقى ترد إليه الأمان .

ومن المهم جدا أن تعرف الأم أن اليوم الأول . الذى تضم فيه طفلها إلى صدرها . . هو أهم يوم فى حياة الطفل الذى اعتاد على موسيقاها وهو جنين . . وهو دائما فى حاجة إليها)

ومع ذلك فقد تتحول الرضاعة إلى مشكلة : طرفاها : الأب والأم . . ومن واقعية الإسلام أن يفترض حدوث هذه المشكلة . . ومن حكمته أن يلقن الطرفين كيف يواجهانها . . وإلى أي حد هما مسئولان عن إفرازاتها :

يقول تعالى ﴿ **فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾[1].

إذا اصطدمت الرغائب . . إذا تعاسرتم . . إذا استبد كل من الوالد والوالدة برأيه محاولا تكليف الطرف الآخر بما يعسر عليه . . ويصعب تحقيقه . . ما هو المطلوب :

المطلوب : عقد قمة ثنائية لا نقول بين الزوجين . . وإنما : بين الوالدين . .

وما دام بين والدين شريكين في إخراجه إلى الوجود . . وهو خلاصتهما ومعنى حياتهما . .

ما داما كذلك فليكن الاجتماع بالمعروف بعيدا عن الأنانية . .

إن المشكلة هنا هي :

أن الأم تطلب الأجرة :

والوالد يريد أن ترضعه بالمجان . .

وتجيء الآية الكريمة لتحقيق أمرين :

١- فهي جبر لخاطر الرجل بأن هزيمته أمام زوجته لا تعني حرمان فلذة كبده من حقه . . فسترضع له أخرى . .

٢- ثم هي عتاب للمرأة بأن الله سيهيئ لولدها من لم تلده لترضعه!

٣- وتبقى القضية كلها في عنق الرجل الذي تفرض عليه قوامة البيت أن يكون ميسرا . . لا معسرا . . وهكذا كان رسوله ﷺ والذي كان إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما . . مالم يكن إثما .

❑ ❁ ❑

التربية في ضوء القرآن والسنة

يقولون : لا تحكم على الرجل من ثيابه .. ولكن من ثياب زوجته يريدون بذلك أن زي المرأة ساترا .. أم كاشفا .. هو مسئولية الرجل .. وهو دليل مركزه في البيت :

فربما كان جملا .. وقد يستنوق الجمل .. حين يفلت الزمام من يده لتنطلق زوجته على حل شعرها : كاسية عارية.

وقد يكون في هذا المنطق شارة الصدق .. لكن الحكم الحقيقي على الرجل يرتكز أساسا على مدى نجاحه في تربية ولده .. وذلك هو المقياس الذي لا يضل ولاينسى!

ولقد وضع ﷺ أساس هذه التربية بما كان يأخذ به الناشئ من تنمية لمواهبه في بواكير حياته..

هذه المواهب التي تكون كالبراعم الغضة .. والتي لا بد من أن تتفتح .. عن طريق الممارسة :

أخرج الإمام أحمد في مسنده :

(كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله . وعبيد الله. وكثير أبناء العباس رضي الله عنهم. ثم يقول : من سبق إليّ .. فله كذا وكذا. قال : فيستبقون إليه. فيقعون على ظهره. وصدره. فيقبلهم ويلتزمهم) .

ونحن واجدون في هذا الموقف ما يلي:

إن الرسول ﷺ يلاعب أبناء عمه العباس .. كاشفا بهذه المؤانسة عن العلاقة الحميمة التي تربط على قلوب أفراد العائلة فإذاهم جميعا يعيشون بقلب واحد .. ثم هو يثير فيهم قيمة التنافس الشريف .. راصدا جائزة لمن يسبق منهم . مستجيبا في نفس الوقت لطبيعة الإنسان النزاعة إلى التميز .. والتفرد بالجائزة دون الرفاق .. مما

يجعل لهذا التنافس قيمة تبذل فيها طاقة الإنسان.

ثم تجيء القبلة الحانية مسك الختام .. مشفوعة بضمهم إلى حضنه الدافئ .. والذى يهدئ الأعصاب التى قد ينال منها السباق !

وبعد ذلك كله تبرز من المبادئ الجليلة ما أشار إليه المربون . ومنها :

أ- تنظيم الصف.

ب- تعيين النشاط الرياضى.

جـ- تحديد مجال النشاط.

د- ثم تحديد الجائزة.

من صور التربية العملية:

ولقد كان لهذه التربية العملية صداها .. هذه التربية القائمة على أصولها من هدى القرآن وهدى السنة معا ..

ومن هذه الصور ما قرأته من أن والدا .. علم أخيرا أن ابنه قد وقع تحت تأثير زميل سيئ السمعة

وكان هذا الزميل من أسرة واسعة الثراء .. تنفق من مالها كيف تشاء بلا ضابط ولا رابط.

وتعددت نصائح الوالد النظرية .. لكنها اصطدمت بصخرة العناد فى قلب ابنه المفتون بزميله المترف.

لكن الوالد لم يفقد أمله فى الإصلاح فدبر فى نفسه أمرا.. وكانت فاتحة هذا التدبير أن يتوقف سيل النصائح النظرية .. ثم كانت الخطة العملية. والتى بدأت بإقامة حفل فى ذكرى ميلاد ولده .. ولأول مرة.

ثم كان من تمام الخطة أن دعا الوالد إلى هذا الحفل كل زملائه الطيبين .. ودعا معهم ذلك الزميل السيئ السمعة ..

وبدأت ثمرات الخطة تؤكد نجاحها :

فقد ارتكب الزميل السيئ .. مخالفات كثيرة .. بينما كل الزملاء كانوا دونه

.. فضلاء !

لقد كان وحده «معزوفة شيطانية» فى هذا الجو الملائكى .. وكان طبعيا أن يشاهد الابن ذلك الانحراف .. وأن يستجيب للحق بعد ما تبين ..

وكان جميلا أن يكون العلاج على هدى القرآن الذى كان من مناهجه فى الدعوة والتربية أن يجيء بالمتقابلات .. ليزداد الجميل جمالا .. والقبيح قبحا .. ومن بعد .. يستقيم الاختيار ويسلم القرار

والأم على ذات الطريق

ولقد كان للأم دورها البارز فى عملية التربية ..

قال الأصمعى :

(مررت بامرأة وبين يديها ابن لها يريد سفرا . وهى توصيه قائلة :

إياك والنمائم . فإنها تزرع الضغائن . ولا تجعل نفسك غرضا للرماة . فإن الهدف إذا أرمى لم يلبث أن يتثلم .

ومثل لنفسك مثالا : فما استحسنته من غيرك فاعمل به . وما كرهته منه .. فدعه . إذا هززت .. فهز كريما .. فإن الكريم يهتز لهزتك .

وإياك واللئيم .. فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

وإياك والغدر . فإنه أقبح ما تعومل به . وعليك بالوفاء . ففيه النماء . وكن بمالك جوادا . وبدينك شحيحا .. وانهض يا بنى على اسم الله).

□ ● □

يسوقون الزمن بعقارب ساعاتهم

سأل الولد أباه قائلا :

هل صحيح يا أبت : أن الرجل لا يعرف السعادة إلا بعد أن يتزوج ؟

فأجاب الوالد :

نعم يا ولدى : لأننا لا نشعر بقيمة الشيء إلا بعد أن نفقده !

إن إجابة الوالد تعنى أن السعادة إنما تكون قبل الزواج .. لا معه ! ولا به!

ومن ثم كانت إجابة الوالد مفاجأة .. بل كانت صدمة لولده .. الذى يعد نفسه لمستقبل يجد فيه سعادته التى يفتقدها فى حاضره ..

هذه السعادة التى يتصورها فى صحبة شريكة حياته هذه التى سوف - وفى ضوء إجابة أبيه - تحطم فى قلبه حلما راوده طويلا .

إن الولد الذى يحاول أن يمسك المستحيل بيده .. هو هو ذا لا يكاد يمسك بالممكن !

وخطأ الجواب هنا مردود إلى أمرين :

الأول : هو ما يتسم به من التعميم الذى يوشك أن يكون قاعدة ..

مع أن كثيرا من الناس لا يحسون بالسعادة إلا بعد الزواج ..

ومن ثم .. فإن الوالد هنا يتحدث عن تجربة شخصية .. لا تنسحب على حياة الآخرين .

الثانى : ضلال مقياس السعادة فى أمم لا تدين بالإسلام ..

تلك السعادة التى تصبح هذه «العنقاء» والتى لا وجود لها إلا فى خيال الشعراء..

إنهم يعتمدون هناك فى تحقيق السعادة على : مثلث :

المال . . والوقت . . والصحة . .

ولكن هذا الثالوث لن يجلب لهم ما يشتهون . .

ونقرأ تأييدا لذلك :

أن الإنجليز يعتقدون أن السعادة مستحيلة :

وفي تسويغ ذلك يقولون :

إن الإنسان ما بين الخامسة عشرة والعشرين . . يملك الوقت . . ويملك العافية . . ولكنه لا يملك المال . وبالتالى فهو عاجز عن التمتع بالحياة .

وكذلك . فإن هذا الإنسان ما بين العشرين والستين : يملك المال ويمتلك العافية . . ولكنه لا يمتلك الوقت للاستمتاع بالحياة .

أما ما بين الستين والثمانين : فإن الإنسان يمتلك المال . ويمتلك الوقت . ولكنه يفتقر إلى العافية . . وبالتالى فإنه يبقى عاجزا عن الحصول على السعادة . .

ومن هنا كان من قوانين الحياة فى بلادهم :

أن الإنسان يكتب تاريخه بالدمع . . وليس بالفرح .

ومن **إنجلترا إلى فرنسا** لتجد نفس المعنى . . ونفس الشقاء :

قيل : إن أحد رجال الأعمال الفرنسيين ترك مبلغا يساوى مائة وعشرين ألف جنيه للمرأة التى رفضت مرتين عرضه الزواج بها .

وجاء فى وصيته : إننى أترك لها هذا المبلغ اعترافا بجميلها :

فبسببها تهيأ لى أن أعيش حياة «عزوبة» هنيئة . . منطلقة . .

خالية من المشكلات . . مما سهل لى النجاح فى الحياة .

وهكذا : كلهم فى الهم شرق

وإذا كانوا يقولون : الجاهل . . يؤكد . . والعالم . . يشك . . والعاقل يتروى فقد كان الرجل الأول جاهلا . . لأنه يؤكد ما يعتقده بدهيا . . بينما هو شاهد فشله هو شخصيا فى تجربته . .

وأما الثانى فلم يكن عالما . . ولم يكن عاقلا :

وإنما كان واهما . . يحسب أنه حقق لنفسه السعادة يوم أن فاته قطار الزواج . .

لقد زعم أن هناءته كانت فى عزوبته . . التى فلت قيده فانطلق كالحيوان لا يلوى على شيء . . ومن قال إن السعادة فى الانطلاق ؟!

لقد كان فى عزلته كماً مهملا . . والكم المهمل لا يواجه مشكلات . .

وإنما المشكلات نصيب الرجال المكافحين . الذين يتحملون مسئولية استمرار الحياة بالزواج .

ولا شك أن ندمه بعد حين يكون عميقا . . وعندما يعلم أن هذه الألوف التى ساقها إلى من لا يستحقها كان من الممكن أن تكون سندا لأولاد يحملون اسمه . ويجددون حياته من بعد . . وفى أشخاصهم سيبقى . . أو تبقى ذكراه .

وهكذا الناس فى غياب الإيمان :

ينظر أحدهم إلى السعادة نظرة غير واقعية :

فهو يستخدم دائما كلمة «إذا» كشرط للشعور بالسعادة التى يبحث عنها. فأنت تسمعه يقول :

سأكون سعيدا إذا أصبحت غنيا . .

أو سأكون سعيدا إذا أصبحت مشهورا . .

وأمثال هؤلاء قد يحققون أهدافهم فى الحياة .

ولكنهم لا يجدون السعادة التى ينشدون .

لأنهم يبحثون عن أشياء أخر . .

ثم يدورون حول أنفسهم ليثبتوا فى النهاية كروية الأرض !!

□ ● □

وخيرهما الذى يبدأ بالسلام

عن عقبة بن عامر قال :

قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال :

«أمسك عليك لسانك . وليسعك بيتك . وابك على خطيئتك» [(١)].

وهكذا - وبهذا الجواب الجامع المانع - يسد رسول الله ﷺ كل المنافذ التى تهب منها رياح الفتنة على البيت الآمن .

وذلك :

بالصمت . . إلا إذا كان هناك حق مهضوم .

ثم باتخاذ البيت مستقرا ومقاما . . مهما كان ذلك البيت . .

إيثارا لصحبة الأهل . . وتقديرا لكل من فيه وما فيه . .

ثم . . باتهام النفس دائما فى كل ما يثار تحت سقف البيت والكف عن تعليق أخطائنا على شماعة الآخرين !

ولا شك أن الالتزام مانع من هبوب العواصف أو مقلل من آثارها . .

ويأخذ البيت المسلم حظه من هذا الالتزام استجلابا للوئام :

فإذا قرر الزوج أن يتخذ من داره مستقرا ومقاما . . فعليه أن يخص صاحبته بعطفه وتقديره . . لتتمكن معه من إدارة البيت بنجاح : بهذا المزاج المعتدل . . الذى تعتدل به كفتا الميزان :

عن حكيم بن معاوية القشيرى . عن أبيه . قال :

قلت : يارسول الله :

ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال :

---

(١) أخرجه الترمذى . كتاب الزهد .

أن تطعمها إذا طعمت . وتكسوها إذا اكتسيت . أو اكتسبت .

ولا تضرب الوجه . ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت .[1]

وإذ يتحمل الزوج هذه المسئوليات منذ اللحظة الأولى . . فأجدر به أن يتحملها عند الكبر :

إن كثيرا من الأزواج - وعند بلوغ سن التقاعد - قد يدخلون أنوفهم فى كل شئون البيت . . ويترتب على ذلك شجار دائم بين الزوجين . . فى مرحلة من العمر لا تتحمل الأعصاب فيها ذلك الخلاف . .

وواجب الرجل أن يضاعف من إحسانه إلى صاحبته بأن يكونا معا على الطريق . . فى السراء والضراء :

وإذ يحتفظ الإسلام للخادم بحقه فى الطعام والكسوة من جنس ما لسيد البيت . . فأجدر بهذا الحق ذلك الصاحب بالجنب . . على الأقل . . كنوع من الوفاء . . فى مرحلة يعز فيها الوفاء .

وإذ نلفت النظر إلى هذه المرحلة الاستثنائية . . فإن ذلك لا يلغى حق الزوجة أبداً . . فى التكريم :

فإذا تأزمت الأمور يوما . . فلا ينبغى أن يغضب عليها . . وإذا غضب . . فلا يليق به أن يجرفه الغضب فى الرمال الناعمة . . ليضربها . . أو يشتمها . .

وإذا كان ولابد من هجران . . فليكن بين جدران البيت . . ولا داعى للتشهير بها بعد هذا العمر الطويل . .

وإذا كان هناك بديل للعقاب . . فلا داعى لهذا العقاب :

كان « **لعلى بن هشام** » زوجة . . بدأته بالهجران . . فترضاها . فلم تستجب له . فقال لها :

الإدلال . . داعية الملال

(١) أخرجه أبو داود - كتاب النكاح .

والتغضب . . مقدمة التجنب

ورب هجر يدعو إلى صبر

وإنما سمى القلب قلبا لتقلبه . .

وما أرانى إلا سأهجر من ليس يرانى أقوى على الهجران .

لقد كانت مبادرة الهجر من الزوجة . . ومع ذلك فقد صابرها . .

حتى فرض عليه التحدى أن يثبت على هجرها . . فلعله أن يفل حدها :

ولكن . . لا بأس أن يسعى الزوج إلى المرتقى الأفضل . . ليكون هو صاحب مبادرة الصلح . .

وإذا كان هناك من يفضل الموت على أن يبدأ زوجته بالصلح من حيث كان ذلك خدشا لرجولته . . فإن العقلاء لا يرون فى ذلك بأسا :

فما دمت أنت سيد البيت . . فلا يضيرك أن تكون صاحب مبادرة الصلح . . لا سيما إذا كان هناك من يريد أن يوسع شقة الخلاف بالنميمة . . وما أكثر الصائدين فى الماء العكر :

وقع بين الأعمش وزوجته وحشة . فوسط بعض أصحابه من الفقهاء أن يصلح بينهما .

فدخل الصديق إليها قائلا لها :

«إن أبا محمد شيخ كبير . .

فلا يزهدنك فيه عمش عينيه . . ودقة ساقيه . . وضعف ركبتيه .

وعروق كعبيه . . فقال له الأعمش :

قبحك الله . . فقد أريتها من عيوبى مالم تكن تعرفه»!!

وإذا كان الوسيط الساذج أو الماكر لم يحسن السفارة . . فإن واجب الزوج – بالدرجة الأولى – أن يحسم الموقف . . وأن يقطع الألسنة بالعفو . . عودا بالحياة إلى مجاريها ! . .

وخيرهما الذى يبدأ بالسلام .

أما ضرب الزوجة : فهو آخر الدواء . .

ونذكر هنا قوله ﷺ : «**ولن يضرب خياركم**»

إن الضرب – من الناحية العملية –غير وارد . . فالخيار لا يضربون . .

ولاحظ أنه ﷺ لم يقل : وإنما يضرب شراركم . .

وكان ذلك حسن ظن بالزوج المسلم . . ليظل محتفظا بخيرته المانعة من إهانة رفيق العمر .

احتملها .. فإن المدة يسيرة

يقـولون : إذا ظلمت رجـلا . . فقـد خسـرته . وإذا ظلـمك رجل . . فقـد خسرك . .

وعليك أن تثق بمن ظلمته أنت . . فـأنت القادر على إصلاحه بتعـديل موقفك منه . .

وأجدر من تثق به إذا ظلمته هو تلك الزوجة المسكينة . .

هذه الزوجة التى كنت معها يوما ذلك السامرى :

الذى نفخ فـيها . . فكانـت عجلا . . ثم عـبدتهـا . . فلما تقـدم بها العـمر وخطت المتاعب وشْمها وتجاعيد وجهها . . أعرضت عنها !!

ولقد جانبك التـوفيق فى الحالين . . حين صدرت فيهـما عن هوى نفسك . . ولم تقدر هذه المسكينة قدرها . .

إننا فى الاختيار نتساءل : هل هى جميلة . . أم غير جميلة

غنية أم فقيرة ؟

ولكنها قبل ذلك . إنسان . . له حق الإنسانية وإن لم يكن لنا جارا . .

فكيف وهو الجار . . الصاحب الجنب ؟!

إن بعض الأزواج يتعامل فى البيت بقيم المكتب فى الديوان العام :

يتعالى . . آمرا ناهيا . .

لكنه مطالب أن يكون فى البيت طفلا . . فإذا خرج من البيت كان رجلا !!

إن موقف الزوجة ضعيف . . ومن حق الضعيف أن تشفق عليه . .

وصحيح أن هناك نصوصا شرعية تدعو إلى الشدة معها . . فى حالة تمردها . . وعنادها . . وإلا . . فإن التسامح هو قانون التعامل . .

مسوغات التسامح :

ويدعوك إلى التسامح ما يلى :

١- أن الله تعالى سخر أفضل ملائكته يستغفرون لك .. حتى وأنت تتقلب فى فراشك نائما .. فرد الجميل مغفرة لهذه المسكينة .. لا تقطع عادتك معها .. حتى لا يقطع الله تعالى عادته معك .

٢- والسنة المطهرة تقول لك :

أ - «خيركم خيركم لأهله» [١]

ب- بل هو أكمل الأخيار :

«أكمل المؤمنين إيمانا : أحسنهم خلقا . وألطفهم بأهله» [٢]

ج - بل إن الأخيار هم بالذات من أحسنوا إلى نسائهم :

«.. وخياركم خياركم لنسائهم»

د- والإحسان إليهن دليل على ما فى باطنك من كرم أو لؤم :

«ما أكرم النساء إلا كريم . ولا أهانهن إلا لئيم» [٣]

هـ- ثم إن اهتزاز المجداف فى يدك وأنت تقود سفينة الأسرة دليل فشلك فى حياتك الاجتماعية :

فنجاح الزوج فى سياسة أهله .. دليل نجاحه فى سياسة مجتمعه .

٣- يضاف إلى ذلك كله : تصورك صعوبة ظروف الزوجة وبخاصة إذا كانت عروسا : فقد زايلها عطف الأبوين ودلالهما .

وأنت غريب .. تدخل حياتها .. ويحتاج النجاح إلى فترة حضانة يجيء من بعدها الانسجام .

---

(١) رواه الترمذى وصححه .

(٢) رواه الترمذى والحاكم على شرط الشيخين .

(٣) رواه ابن عسكر من حديث على - رضى الله عنه - .

ثم إن عملها صار مضروبا فى عدد أفراد أسرتك :

فهى وإن كانت من قبل - وفى بيت أبيها تخدم نفس العدد - إلا أن المخدوم الجديد ليس أمها ولا أباها ولا أخاها . .

يضاف إلى ذلك كله . . ذلك الوليد الجديد . . المنتظر . . والذى سيكون وحده عبئا عليها ثقيلا .

كل أولئك يشكل أحمالا ثقالا تئودها . . فلا تكن مع الزمان عليها . .

وإذا أعطاك الشرع حق التخلص منها بالطلاق . . إذا ضقت بها ذرعا . . فإن بذرة عداوتك فى قلبها ستتحول إلى رغبة فى الانتقام والكيد . . وإن كيدهن عظيم!!

احتملها فالمدة يسيرة :

جاء رجل إلى عمر - رضى الله عنه - يشكو إليه سوء خلق زوجته .

فوقف على بابه ينتظر خروجه . فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها .

وتخاصمه . وعمر ساكت . لا يرد عليها . . فانصرف الرجل راجعا قائلا :

إن كان هذا حال عمر . مع شدته وصلابته . ثم هو أمير المؤمنين . . فكيف حالى ؟!!

فلما رآه عمر موليا ناداه : ما حاجتك أيها الرجل؟ . . فأخبره القصة فقال عمر - رضى الله عنه -: إنى أحتملها لحقوق لها على : إنها طباخة لطعامى . ويسكن قلبى بها عن الحرام . . فأنا احتملها لذلك . .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : وكذلك زوجتى ! قال عمر :

فاحتملها يا أخى . . فإنما هى مدة يسيرة .

ونقول نحن :

وإذا الصديق أتى بذنب واحد ∴ جاءت محاسنه بألف شفيع

دعامة البيت

تنحصر وظيفة المسلم فى أمور أربعة :

عمل يستعد به لآخرته . .

وسعى يعينه على أمر دنياه . .

ثم فكر صائب . . يحميه من الانحراف عن هذين الخطين . .

ثم متعة حلال . تتم بها سعادته . .

وإذا كان البيت هو منطلق الرجل إلى هذه الغايات . . فلابد أن تكون قاعدة الانطلاق صلبة قوية . . وهو ما فعله الإسلام . . ليظل البيت أبدا مستراد الأمل . وجنة الإنسان فى الأرض . .

وحديثنا عن سمات البيت المسلم يذكرنا بهذا الزوج الذى حاول ترويض قلبه ليحب زوجته . . فباءت محاولاته بالفشل . .

فذهب إلى عمر - رضى الله عنه - تنكس رأسه هموم ثقال . . وشكا إليه أنه لا يحب امرأته . . فأنكر عمر قوله قائلا :

أو كل البيوت بنيت على الحب ؟!

فأين المروءة . . والتذمم ؟

إنما يبكى على الحب النساء !!

معنى الجواب :

ويعنى ذلك الجواب : أن الحب لا يصلح وحده أساسا للبيت . . وإنما هناك شبكة من الفضائل هى التى تمسك بالبيت أن يزول فى دوامة المشكلات . .

وإذا كان الحب ضرورة فى حس المرأة . . فإنه لا يشكل حاجة أساسية فى حياة الرجولة التى فرضت عليها مسئولية القوامة أن تتعلق بمعالى الأمور . . من كل ما

يبقى على البيت استقراره واستمراره . بعيدا عن العواطف أو العواصف !

قيم أصيلة :

جاء الجواب العمرى فى صيغة الإنكار . . إنكار الفهم الضيق لمعنى الأسرة . . كاشفا فى نفس الوقت عن أساس البيت المسلم . والذى ينحصر فى أمرين :

أ- المروءة.

ب- والتذمم.

فما معنى هذا ؟

معناه :

أنه لا يكفى الحب . . فقد تحب قطتك الأليفة . .

ولا تكفى مجرد الشفقة . . فأنت تشفق حتى على الحيوان . .

لكن المطلوب هو ما يليق بها كزوجة :

إنها ليست مجرد امرأة . . مجرد أنثى . . تعاملها بمنطق الغريزة كما يفيد معنى : امرأة وإنما هى زوجة . . أعنى . . ليست لإشباع غريزتك . . وإنما هى شريكة . . وهذا ما يعنيه لفظ : زوجة .

ومن حق الشريك أن يعامل شريكه بأرقى المشاعر وهى المودة : تودد كل طرف إلى الآخر . .

يتزلف إليه . .

يتقرب . .

يجتهد فى عمل كل ما يرضيه . .

حتى ولو ذهب الجمال . . والمال . .

وتلك المروءة الباقية . .

أما مجرد الحب فقط :

فقد يحمل على الغرور والطغيان . .

وقد يذهب الجمال وعندئذ فسوف يقول له الحب :

خذني معك !!

إنها المودة إذن . . وليس الحب وحده !

ففي الحب نوع من الأنانية . . لأنك تحب ما فيه متعتك . . أو مصلحتك . .

أما المودة فهي رعاية مصالح الآخرين . . لأنك تتودد إليه . . لعله يرضى !

ومعناه أيضا :

أن البيت يقوم على ركيزتين :

أ- مجموعة من خلال المكارم يتآخى بها أفراده . . وهذه هي المروءة.

ب- المحافظة على حق الصاحب . وذمته . . فلا يضره . . بل لا يسمح لأحد أن يضره . . وذلك هو التذمم.

وحين يقوم البيت المسلم هكذا :

على أساس متين : بعيدا عن وخامة السهل . . وعفونته . . بريئا من خشونة الجبل وقسوته . . جامعا بين إيجابية الفضيلة . . والوقاية مما يخدشها . . وحين يكون البيت المسلم كذلك . . فإنه يكون قد استجمع خصائص وجوده . . بل عناصر خلوده.

التكامل .. وليس التفاضل

قال ﷺ :

- «إذا دعا الرجل زوجته لحاجته . فلتأته . وإن كانت على التنور» [١]

تعليقا على هذا الحديث الشريف نقول :

قد تعتذر الزوجة لظروف هى وحدها أدرى بها . .

والرحمة بها هنا أولى . . ما دام العذر معقولا ومقبولا .

لكن الامتناع إذا كان كبرا وغرورا . . فإن الموقف يختلف ونبرة التهديد تزداد علوا :

قال ﷺ :

«والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا إذا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها» [٢]

إن الرسول ﷺ يقول هنا : **«فتأبى عليه»**

إنه الإباء . . المستكبر . . وليس الاعتذار الخاشع . . وما قد يترتب عليه من إثارة الرجل الذى قد يكون رده عنيفا . . عنفا يهدم مستقبل الزوجة نفسها .

من أجل ذلك :

أ- يقسم الرسول على ما يقول . . تحذيرا وتوكيدا لحقه .

ب- ثم إن كل من فى السماء . . وما فيها . . يسخط عليها وليس الملائكة فقط .

جـ- ولا يقول الحديث : حتى تصبح . . ولكنه يقول : حتى يرضى عنها . .

(١) رواه الترمذى والنسائى .

(٢) رياض الصالحين . باب حق الزوج على المرأة.

لتشعر باستمرار السخط واللعن الذى يتجاوز الصباح .. ليرتبط بمشيئة الزوج وحده.

من رحمة الله بالزوجة :

ومن رحمة الله بالزوجة أن يكون هذا التحذير .. أو هذا النذير لتتنبه إلى واجبها حيال زوجها .. ومن رحمته تعالى بها أيضا :

أن يعزز هذا النذير بما يثير فيها غيرتها على زوجها بما روى عن معاذ - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا تؤذى امرأة زوجها إلا قالت زوجته من الحور العين :

لا تؤذيه .. قاتلك الله ! :

فإنما هو عندك دخيل . يوشك أن يفارقك إلينا» [1]

ويعنى ذلك :

أن وراء الزوج خط دفاع قويا .. ينبغى الحذر منه .. فإن هى صبرت .. وصابرت .. ملأت الدار بالخير .. وعاد كل ذلك إليها أمنا ورخاء وسلاما.

وإذا كنا نسمع من تشكو الوحدة لأنها مع زوج لا يهتم بها فلا يستحق التكريم . فإنا نقول لها ما يقول المجربون :

اعط البقرة علفا .. تعطك لبنا ..

إنه قانون المعاوضة .. والذى فهمه آباؤنا .. فعملوا بمقتضاه .. فكان سعيهم مشكورا مبرورا ..

أما بعد :

فيا أيها الناس : إن لكم على نسائكم حقا . ولهن عليكم حقا :

لكم عليهن : ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه . وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن .. فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع . وتضربوهن

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

ضربا غير مبرح.

فإن انتهين .. فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيرا :

فإنهن عندكم عوان .. لا يملكن لأنفسهن شيئا.

وإنكم أخذتموهن بأمانة الله.

واستحللتم فروجهن بكلمات الله»[١]

وبهذا التحديد الصارم لواجبات كل طرف .. وحقوقه .. لا يبقى إلا الالتزام الجاد بما أمر الله به أن يوصل ..

وإذا كان الإنصاف سمة هذا التحديد البارزة .. فإنه الرد الإلهى على الذين يرمون الإسلام بدائهم .. من الملحدين ومن يحتطب فى حبلهم ..

ولو أنك أعدت النظر فى هذا الحديث الشريف . لتأكد لك عدل الإسلام .. بلا تحيز ..

وحتى لو فرض تحيز هنا . لكان تحيزا إلى المرأة .. لا إلى الرجل .. ولكن الحق أن الإسلام ما به من حاجة إلى الترجيح بلا مرجح .. وإنما هو التكامل الذى يصير به الزوجان كيانا واحدا .. يقول أحدهما للآخر : يا أنا !!

❑ ● ❑

(١) راجع السيرة لابن هشام.

من حقوق الزوج

فى غزوة «تبوك» كانت التضحية قاسما مشتركا بين الرجال والنساء :
ففى الوقت الذى حمل الصحابة فيه أرواحهم على أكفهم .. فداء لدين الله..
كانت المرأة :
تجرد عنقها .. من العقد
وأذنيها .. من القرط
وصدرها.. من القلادة ..
ثم تجود بكل هذا فى سبيل الله تعالى ..
إن باطنها قد ازدان باليقين .. لما حبب الله إليها الإيمان . وزينه فى قلبها .. فاكتفت بزينة الباطن .. ولم يعد للظواهر فى قلبها مكان .. ولا مكانة .. وهكذا قال الأدباء !

ولقد كانت الفلاحة البسيطة تتوضأ للصلاة .. فلا تتغير بالوضوء ملامح وجهها .. فقد كان خاليا من الأصباغ ..

واجب الزوجة :

وإذا كان التعاون بين الرجال والنساء على هذا المستوى ..
فأحرى أن يكون تعاون الزوج والزوجة أقوى .. وأهدى ..
وإذا طالبت وافدة النساء بمثل ما تميز به الرجال من الأعمال ابتغاء الثواب ..
وإذا عادت مجبورة الخاطر بما منحها الله تعالى من أوضاع توفر لها من الثواب ما لا يعد ولا يحصى .. فإن ذلك كله مع ايقاف التنفيذ .. حتى تحسن تبعل زوجها .. والذى يعدل كل ما تفرد به الرجال من أعمال
ومن حسن تبعل الزوجة :

أ - أن تحفظ نفسها من الزنا حتى لا تختلط الأنساب .

ب- وأن تصون أسراره عن الإفشاء .

جـ- وماله عن الضياع .

د- ومنزلها . . عما لا ينبغى .

الحق الأساسى :

وحق الزوج الأساسى هو ما يبقى به النوع . وما يلبى الحاجة الفطرية لك الطرفين وهو أصعب مجالات التبعل كلها :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

«لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه . ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه»

فانظر كيف ترجح رغبة الزوج عبادة الصوم تطوعا؟ . . بمعنى أن الشرع يتناز عن حقه تقديرا لهذه الرغبة . . لأن تلبيتها من الشرع أيضا . .

ثم كيف تصون الزوجة كرامة زوجها وسمعته؟ . . فلا تجعل بيته مفتوحا لك طارق . . وما يترتب على ذلك من القيل والقال .

فإذا حدث ودعاها إلى فراشه . . فلتكن رهن إشارته :

يقول ﷺ :

«إذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه . . فلم تأته . . فبات غضبان عليها . . لعنته الملائكة حتى تصبح»[1]

وتأمل : إنه يدعوها . . ولا يأمرها . .

يدعوها . . والدعاء تلطف . . وتودد . . يثير الرغبة التى تنبعث تلقائيا . . وليس هو الأمر الضاغط المتجاهل ظروف الزوجة حين يدعوها .

فاذا امتنعت . . فإن سامحها تقديرا لظروفها . . فلا ضير عليها . .

وإن لم يتنازل عن حقه وبات مؤرقا . . مسهدا . . غضبان عليها . . فإن

(١) متفق عليه . واللفظ للبخارى .

الملائكة تلعنها . .

الملائكة كلهم . . تلاحقها باللعنة طول الليل . . وحتى تصبح .

ومهما تكن مشاغل الزوجة فإن لرغبة الزوج أولوية ينبغى مراعاتها :

قال ﷺ :

«إذا دعا الرجل لحاجته .. فلتأته .. وإن كانت على التنور»[1]

والفلاحون فى قرانا يعرفون حساسية الموقف . . إذا كان العجين معدا للإنضاج فى الفرن :

فالعجين معرض للفساد . . لو تأخر إنضاجه .

بالإضافة إلى حالة الطوارئ المعلنة فى البيت فى مثل هذا الظرف :

فكل طاقات البيت مجندة . .

والبنت تقعد فى البيت . . ولا تذهب إلى المدرسة . .

والجارات مستعدات للعمل مع جارتهن . .

وإذن . . فخسارة البيت فادحة . . لو توقف ذلك كله . .

ولكن الشارع الحكيم يؤكد بهذا الحديث أن تلبية حاجة الزوج .

أهم من ذلك كله . . تقديرا لحاجته . . ولما قد يترتب على إهمالها من مضاعفات .

حين لا يذهب الإهمال بالعجين وحده . وإنما بأمن البيت كله !

❑ ● ❑

(١) رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حديث صحيح .

حق الزوجة فى الشكوى

إحسان العمل .. كالإحسان إلى العاملين : كلاهما أدب عال . نزل به جبريل عليه السلام من لدن الحق تبارك وتعالى .. على محمد ﷺ .. تمكينا لهذا الخلق العالى فى قلوب المسلمين ..

فإذا كان العمل هو قيادة الأسرة .. وكان العامل هو الزوجة .. فقد تأكد ذلك الحق .. وأجدر بالزوج أن يكون معها على غاية ما يكون الإحسان ..

لأن ثمراته سوف ترتد إليه طاعة .. وإلى ولده حنانا .. ومع الجيران سلاما .. ومع العشيرة ودا ..

إن رب الأسرة مسئول عن البيت .. حتى الحيوان .. حتى الطائر الأليف الذى يدرج بين يديه .. فكيف يكون حق الزوجة مصونا وهى الإنسان الذى يرعى ولدك وشئون بيتك ؟

ومن أهم هذه الحقوق : حقها فى المتعة الحلال ..

فإذا قصر الزوج .. فهو الملوم حتى لو كانت العبادة حجته فى يده ..

فإن من صحيح هذه العبادة الإرواء الجنسى .. الذى يعف به الزوج زوجته .. وهو حق النفس .. التى تستقر به لتواصل طاعتها لله تعالى .. ثم لزوجها بنفس راضية .. وفى صحبة إحساس بالرضا بعد مانالت حظها كزوجة .

أجل .. من حق الزوجة أن يعفها زوجها .. وأن تعفه .. فإن قصر الزوج فى هذا الحق هروبا من الدنيا بحذافيرها .. فكيف تتصرف الزوجة والحالة هذه ؟

يجيب عن هذا السؤال ذلك الموقف :

جاءت امرأة إلى عمر - رضى الله عنه - ومعه«كعب»- رضى الله عنه - .

فقالت : يا أمير المؤمنين : إن زوجى لم أر رجلاً أصلح منه :

نهاره كله صائم . ولايخطئ في شدة الحر . وليله كله قائم . قال عمر :
مثلك من يثني على زوجه خيرا . جزاك الله خيرا . . !!
فاستحيت ورجعت .
فقال كعب : يا أمير المؤمنين : المرأة جاءت تشتكى !؟
فدعاها . . فقال : هذا الرجل يقول : جئت تشتكين ؟
قالت نعم !
إذا كان نهاره صائما . . وليله قائما . . وأنا امرأة شابة .أتطلب ما يتطلب النساء .
فأرسل إلى زوجها . فجاء . فقال عمر لكعب : اقض بينهما . . قال :
لا . . أمير المؤمنين حاضر . . وأقضي ؟!! قال :
أنت فهمت شكواها . فأنت أولى بالقضاء فيها .
قال كعب لزوجها :
ما الذي يمنعك أن تؤدى حق زوجتك ؟ فقال :
والله خوفتنى سور القرآن الكريم : أخاف من النار . وأرجو الجنة .
قال كعب : أقضي بينكما :
لك ثلاث ليال من أربع . ولها ليلة من أربع «وهو نصيبها لو تزوج أربعا»
فقال عمر : والله لا أدرى : أأعجب من فهمك للقضية . . أم من قضائك فيها؟ . . قم فأنت قاضى أهل الكوفة»

ولاحظ فى المشهد ما يلى :

١- أنها لم تشتك إلابعد أن طفح الكيل . . وعيل الصبر . . بل عجز الاصطبار عن مغالبة النفس الأمارة .

ومعلوم أن لها جارات ولها كذلك زميلات . تراهن فى بحبوحة من المشاعر الطيبة وتكاد نفسها أن تذهب حسرات

٢- ثم إنها لم تجأر بالشكوى . . وما زال الحياء سمتها . . فأشارت ولم تصرح . . فأغنت الإشارة عن العبارة

٣- وفهمها كعب وغابت عن عمر - رضى الله عنهما - الذى أحال إليه القضية برمتها . فحكم فيها بالعدل . .

ثم عادت المياه إلى مجاريها عودا حميدا التأم به الشمل . .

وتوحد الصف . . وأخذت العبادة حدودها الحقيقية :

تعظيما لله تعالى . .

ثم شفقة على الخلق

أما بعد :

فإنه إذا كان الزوج مأمورا - إذا أبصر فى الطريق ما أثار شهوته - أن يعود إلى بيته . . قاطعا رحلته مهما كانت أهميتها . . ليشبع رغبته مع زوجته . . فإن معها مثل ما رأى عبر الطريق . . إذا كان هذا حال الرجل . . فماذا تفعل المرأة إذا وضعت فى نفس المأزق ؟

إن لها نفس الحق . . بل ربما كان حقها فى مثل هذا الظرف آكد . . من حيث عرامة شهوتها . . وضآلة صبرها . .

فليتق الله أزواج يبذلون فى مجالات الحياة مالا يطالبون به . .

ثم يقصرون فيما هم مطالبون . ويصيبهم كفلا من آثاره ؟

وأظلم الناس من : يعمل مالم يكلف به . . ثم لا يعمل ما كلف به !!

حقوق الزوجة عندنا .. وعندهم

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[1] .

يقول الفخر الرازى فى معنى الدرجة :

«حصول المنافع مشترك بين الجانبين .

لأن المقصود من الزوجية السكن والألفة . والمودة واشتباك الأنساب .

واستكثار الأعوان والأحباب .

وكل ذلك مشترك بين الجانبين .

بل يمكن أن يقال : إن نصيب المرأة فيها أوفر .

ثم إن الزوج اختص بأنواع الحقوق الزوجية وهى :

التزام المهر والنفقة . والذب عنها . والقيام بمصالحها . ومنعها من مواقع الآفات . . فكان قيام المرأة بخدمة الزوج آكد وجوبا .

ورعاية لهذه الحقوق الزائدة .

فتبين بهذا التفسير : أن الدرجة لا تعنى تفاضلا فى الخلق والملكات بين الرجل والمرأة .

وإنما تعنى : مطالبة المرأة نحو زوجها بمزيد من الخدمة والطاعة»

وبهذه الخدمة وهذا الالتزام . عاشت المرأة المسلمة فى كنف الإسلام أسعد حظا من غيرها فى أمم لا تدين بالإسلام .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

والثمن المدفوع من قبل المرأة نظير هذه السعادة أن تعاونه ليظل قائما بحق الرجولة التى تمسك بالمجداف ليقود السفينة بنجاح . .

واستقرار الأوضاع تحت سقف البيت على هذا النحو لا يعنى استئثار الرجل بالسعادة دونها . .

فإن هذا الاستقرار سوف يعود عليها أمنا وسلاما وقرارا .

بما قدمت أيديها من تضحية لا تتم سعادة البيت إلا بها .

ولقد عاشت المرأة المسلمة أمجد عصورها فى ظل المجتمع الإسلامى الذى كفل لها حقوقها إلى الحد الذى قال فيه ابن عباس - رضى الله عنه - :

"إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى"

وهذا حق قد يبدو للوهلة الأولى يسيرا . . لكن له فى الواقع أثرا خطيرا ظهر فى المجتمع اليهودى . الذى أهمل الزوج فيه حق زوجته فى التزين لها . . فرغبت الزوجات عنهم . . إلى غيرهم .

فتفككت أواصر المجتمع هناك . .

بل إن شخصية المرأة هناك ضاعت بمجرد الزواج . . من حيث تصير تابعا للزوج . . بعد أن ألغى القانون الوضعى حقها فى الحياة الكريمة .

وفى الوقت الذى تستطيع الزوجة فى ظل الإسلام أن تطلب الطلاق إذا لم يكن علاج سواه . . فإن المرأة فى أمم أخرى محرومة من هذا الحق . . ويتخلى عنها القانون فلا يعطيها حق إنهاء علاقة مقضى عليها بالفشل .

ومن المفارقات العجيبة أن هذا القانون نفسه يعطى للمرأة هناك حقها فى :

أ - هجران بيت الزوجية . . والعيش فى أحضان صديق .

ب- ثم تسمح للزوج استضافة عشيقته . . التى تعاشر الزوج تحت سمع الزوجة وبصرها . . وعلى فراشها !

فانظر الفارق الهائل بين المرأة فى ظل الإسلام . . وبين غيرها . .

وكيف تعيش الزوجة المسلمة مصونة كالجوهرة المكنونة؟ . .

وكيف ينعكس على الذرية من هذا الصفاء .. تحت إشراف أم عزيزة كريمة .. تمنحهم عزتها وكرامتها ما يجعل منهم رجالا صالحين؟

وإذن .. فلا عجب إذا سمعنا أن هناك .. فى أوروبا .. جمعيات نسائية فى مقدمة رغباتها المساواة بالمرأة المسلمة .. ثم تلح فى طلب أن يبقى للزوجة هناك اسمها الذى ولدت به .. وعرفت به .. بدل أن تذوب شخصيتها فى كيان زوجها الأنانى المتسلط .

والحمد أولا وأخيرا ..

الحمد لله سبحانه وتعالى على نعمة الإسلام .. التى من حقها علينا أن نذكرها فنشكر واهبها سبحانه ..

ومن ذكرها : أن نباهى بها الدنيا .. فى زمان تدعو كل أمة إلى كتابها ..

إن من حقها علينا أن نشكرها .. معتزين بهذا التاج الذي وضعه الإسلام على رأس الأسرة المسلمة .. حتى لا تفرط فيه يوما . ذاكرة من آثاره ذلك الوفاق الذى عمر البيوت . وإن خلت من الدقيق .. والثوب الرقيق .

ولقدسجل الشعر العربى هذا الاعتزاز بالزوجة الوفية التى كانت فى حياة الزوج .. روح هذه الحياة ..

يقول ابن الرومى مؤكدا أن هناك فوق لذة الجنس لذة الوفاق فى بيت كانت فيه الزوجة ملكة متوجة . وكان الزوج فيه فارس الأحلام :

أعانقها والنفس منى مشوقة
إليها .. وهل بعد العناق تدانى ؟!

وألثم فاها كى تزول صبابتى
فيشتد ما ألقى من الهيمان

كأن فؤداى ليس يشفى غليله
سوى أن يرى الروحين .. تمتزجان

الوفاء للزوج .. ميتا

عن زينب ابنة «أم مسلمة» عن أمها :

«أن امرأة توفى زوجها . فخشوا على عينيها .

فأتوا على رسول الله ﷺ . فاستأذنوه فى التكحل . فقال :

«لا تكتحل .

فقد كانت إحداكن تمكث فى شر أحلاسها . أو شر بيتها . فإذا كان حول فمر كلب . رمت ببعرة ..

فلا .. حتى تمضى أربعة أشهر وعشر» [1]

من صور الوفاء للزوج إذا رحل : الإحداد .. وهو :

امتناع الزوجة عن الزينة والخضاب بعد وفاته أربعة أشهر وعشرا . .

وهذه المرأة التى توفى عنها زوجها احتارت بين عقلها وقلبها . .

ماذا تفعل ؟ وكيف تخرج من هذا المأزق دون أن تخدش قيمة الوفاء للزوج الراحل؟ . .

وينوب عنها الأهل والجيران فى رفع أمرها إلى رسول الله ﷺ . . قبل أن تفقد بصرها . .

ولم يسمح واحد لنفسه أن ينفرد بالقرار إشفاقا على الزوجة التى أصيبت فى زوجها . . وتوشك المصيبة أن تكون مصيبتين !

لأن قيمة الوفاء لم تكن قضية الزوجة وحدها . . وإنما كان الحفاظ عليها معلوما من الدين بالضرورة . . والقرار هو :

(١) فتح البارى . كتاب الطلاق . ج٩ / ٤٩٠ .

ما يقره ﷺ . . والذى أعلن أنه لا مساومة على الوفاء للزوج بعد مماته . .

لقد كان من حقه فى حياته أن الزوجة لو استطاعت أن تنتزع مقلتيها . . لتضعهما أحسن مما هما . . إرضاء لزوجها . .

إذا كان من حقه ذلك لو كان حيا يملك الدفاع عن نفسه . . فلأن تصبر الزوجة على مرض عينيها بعد مماته . . أولى !

إن الرسول ﷺ هنا يعلم الناس ما جهلوه .

ويذكرهم ما نسوه . .

ولكن الحكمة النبوية تسفر عن **سر الإحداد هذه المدة الطويلة** . . على الرفيق الراحل :

إن الإحداد على القريب لا يتجاوز ثلاثة أيام . .

ذلك بأن مساحة الحزن عليه . . محدودة . . لأنه لم يكن يشكل فى وجدان الزوجة حاجة أساسية . . ثم هناك من الأقارب ما ينوب عنه فى ملء فراغه فى دوحة العائلة . .

أما الزوج الراحل . . فإنه ذلك الفارس الذى ترجل . .

وترك فراغا لا يملأه أحدا . . حتى الوالد . . والإخوة جميعا . .

من أجل ذلك ولما كان الحزن عليه : واسعا . . وعميقا . . فقد كان من حكمة الإسلام أن تطول مدة الإحداد :

وفاء له أولا . . وإعلانا بأن ما كان يربطه بزوجته لم تكن حاجة الجسد التى رحلت معه . . وإنما هو الوفاء الذى نعلن عنه بالتجرد من زينة الدنيا . . وحتى يفهم الجيل الجديد أن هناك أمورا تربطنا أعز علينا من كل مظاهر الدنيا .

ومن الناحية النفسية : فإن هذه المدة كافية لتسرب طاقة الحزن . . رويدا . . حتى إذا انتهت . . كانت النفس مستعدة لعش جديد . . مع زوج جديد !!

ولقد كان للمرأة العربية وفاؤها لزوجها الذى يغيب . . والذى صاغته شعرا . . كاشفا عن شعورها بفقدانه . .

قالت :

طاف يبغى نجوة من هلاك فهلك
ليت شعرى - ضلة - أى شيء قتلك
أمريض لم تعد أم عدو ختلك
أم تولى بك ما غال فى الدهر السلك
والمنايا رصد للفتى حيث سلك
أى شيء حسن لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
طالما نلت فى غير كد أملك
إن أمرا فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذا لم تجب من سألك
ليت قلبى ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسى قدمت للمنايا بدلك

ولقدكان بكاؤها حارا . . وكانت عواطفها متأججة . . إذا كانت عروسا تنعى «عروسها» قبل أن يلتقيا : فقالت :

أبكى على سيد فجعت به أرملنى . قبل ليلة العرس
أبكيه : لا للنعيم والأنس بل للمعالى والرمح والفرس
بل إنها قد تلبس أجمل ما لديها ثم تذهب لزيارته فى قبره فتقول :
يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى بالا .. ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلى وفى حلل كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى غيرى مولهة عجيبة الزى تبكى بين أموات

وإذا كان من أرامل اليوم من تنفض يدها حتى من صغارها . .

إيثارا للزوج الجديد . . ولهفة إلى العش الجديد . .

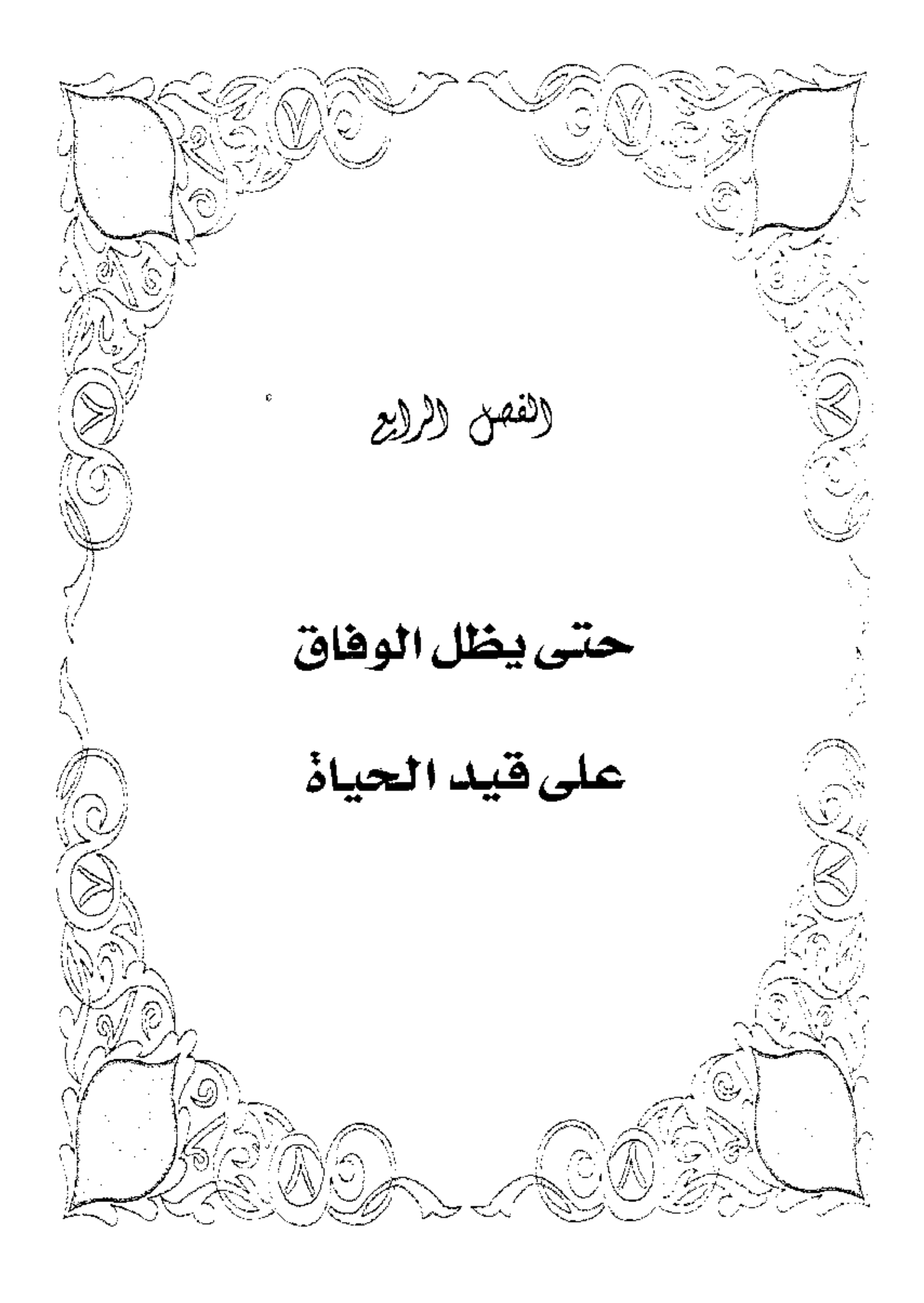
فقد كان للمـرأة من قبل رافدان للوفاء الذى يظل مورقا مـثمرا فى شخص أولادها . وهما :

العروبة

والإسلام . .

وبهما تظل قيـمة الوفاء حية تمشى على الأرض . . حتى إذا قامت قيـامتها . . أو شكت أن تزاحم الرسـول لتـدخل الجنة قـبله . . جزاء مـا قـدمت يداها . . من تضحية . . وما قدم قلبها من عواطف . .

❑ ● ❑



الفصل الرابع

حتى يظل الوفاق على قيد الحياة

من أى باب تهب رياح التغيير؟

يقول المجربون :

لابد من المشكلات . . من العقبات التى تعترض طريقنا . .

وهذا أمر مسلم به مفروغ منه .

لكن المشكلة الكبرى تكمن فى مدى الإحساس بهذه المشكلات . . ثم مدى قدرتنا على التصدى لها :

فإذا فقد الزوج أعصابه . وعجزت يداه عن أن تمسك بالمجداف . . بينما السفينة تترنح فوق الأمواج الغاضبة . . فليس من الحكمة أن يقفز مساعده - وهو الزوجة - فى الماء . . لتنتهى المشكلة !

لكن الحل أن يتقدم الشريك . . أن تتقدم الزوجة . . وفى اللحظة الحرجة . . لتمسك بالمجداف . . واصلة بالأسرة إلى لحظة سوف تجيء . . ليكون فيها الحساب . . ولكن فى وقت يتحمل العتاب أو الحساب .

ولكن . . ما هى الأبواب التى تهب منها رياح المشكلات؟ :

إنها باختصار :

١- موقف الحماة .

٢- إخلال الزوجة أو الزوج بالواجب عليهما .

٣- الغيرة .

٤- الزوجة الثانية . أو الضرة .

أما عن السبب الأول :

فنتأمل من سنته صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة -رضى الله عنها- قالت :

قال رسول الله - ﷺ - :

«أعظم الناس حقا على المرأة : زوجها .

وأعظم الناس حقا على الرجل : أمه» (١)

ونبدأ التعليق على هذا الحديث الشريف بما يقول البصراء بخبايا المجتمع :

«أيام قليلة بعد الزواج . . وتبدأ المشكلة فى الظهور :

يرتفع صوت النفير معلنا بدأ معركة قديمة قدم البشرية . طرفاها :

الحماة . والزوجة .

تبدأ كل منهما بالاستعداد للمواجهة . وتحقيق النصر ! والفوز بالغنيمة الكبرى وهى : الابن . . أو الزوج !

لكن المعركة لا تنتهى أبدا . . ولواء النصر لا ينعقد لأى منهما .

وتستمر الحرب قائمة . . طالما بقيت هناك حماة . . وزوجة !

وزوج ، لا يدرك كل منهما ما له وما عليه .

إنها قضية قديمة . وعلى الرغم من ذلك . . فإن رياح الزمن لم تنجح فى تبديدها . كما فعلت بكثير من القضايا القديمة .

إنها قضية تتحكم فيها طبيعة المرأة . ورغبتها الشديدة فى التملك فهى تندفع بحكم غيرتها تكسب الرجل . .» (٢)

وإذا كانوا يقولون : يموت الفتى من عثرة بلسانه . . فإن الأسرة تموت تحت مطارق الأم والزوجة . . التى يعنى انتصار إحداهما ضعفا فى بناء الأسرة . . من حيث إن المعركة هنا تدور على حياة الزوج نفسه . .

إنها معركة منتهية حتما بهزيمة البيت بكل ما فيه ومن فيه . .

---

(١) كنز العمال جـ ٢١٦/٣٣١ ط مؤسسة الرسالة (٤٤٧٧١)

(٢) مجلة العربى مارس ١٩٩٠ .

هذا البيت الذى تتخلخل لبناته تمهيدا لسقوط المعبد على أدمغة المهزوم والمنتصر على سواء !

ذلك بأنها معركة وقودها الغيرة العمياء . والغيرة كما يقولون :

وحش ضار . يعمى البصر والبصيرة .

وإذا انفلت من عقاله .. فإنه لا يرجع إلى مكمنه إلا بعد أن يخلف من ورائه أشلاء وجماجم وضحايا .

والضحية الأولى فى هذه المعركة الأبدية هو الزوج الحائر .. والذى تضعه الخيرة بين شقى الرحى :

بين أم ربت وتعبت .. كان ثديها له سقاء .. وحنانها له شفاء .. وزوجة فارقت أهلها .. ومرابع صباها من أجله هو .. ولتكون معه محضنا لجيل المستقبل ..

وكل منهما يريد إقصاء الآخر .. لينفرد بالفريسة ..

وقد تشتد المعركة ضراوة إذا انضمت أم الزوجة فزادت نار الحرب ضراما .. يمثل ما وصت به والدة ابنتها ليلة زفافها فقالت :

«اختبرى زوجك قبل الإقدام . والجرأة عليه :

وانزعى زج [1] رمحه . فإن سكت على ذلك .. فقطعى اللحم على ترسه . فإن سكت فقطعى العظام بسيفه . فإن سكت .. فاجعلى الإكاف - البرذعة - على ظهره .. فامتطيه .. فإنه حمارك»!!

وإذ تحاول الأم هنا إدارة بيت الزوجية من دارها .. فإن على الزوج أن يتقدم ليحبط هذه المحاولة .. ممسكا بالزمام من أجل مصلحة الزوجة نفسها .. ومصلحته أيضا :

---

(١) الزج : الحديدة أسفل الرمح جمع زجاج - يعنى ذلك : امتهان الرجولة والشجاعة بامتهان آلة الحرب .

ولا يعنى ذلك أن يكون متسلطا مستبدا . . وإنما هى القسوة الحازمة أحيانا على من يرحم . . لكنه كل حين على ما يقول الشاعر :

أمـازحـتهـا .. فـتـغـضـب . ثم ترضى

وكـل مقـالهـــا حســـن جـمـيـــل

فـــإن تغضـــب : فـأحســـن ذات دل

وإن ترضــى .. فليـس لهـــا عــــديل

□ ● □

حتى يظل الوفاق على قيد الحياة !

تبدأ المشكلة الأسرية عند غياب هذه الحقيقة وهى : أن كل شيء قابل للتغيير :

لقد كان الخاطبان يسرحان عبر المستقبل يبنيان قصور الأمانى . .

يتصور أن عش المستقبل كأنه تلك «المدينة الفاضلة» التى تخيلها الفلاسفة قديما . .

لكن ما أسرع ما تصطدم الأحلام الهائمة بالواقع الصارم . .

ويصبح كل شيء قابلا للتغيير . . حيث تتراجع الأحلام الوردية . .

لنواجه الحقائق التى تقلب الموازين . . ويصير الأمر على ما قال المتنبى :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا

فلما حمدنا . . لم تدمنا على الحمد

ويبقى أن يتكيف كلا الزوجين بالأوضاع الجديدة . .

وأولى مظاهر هذا التكيف حسن إدراك طبيعة الإنسان نفسه . . وأن لحمتها وسداها : التغير :

وما سمى الإنسان إلا لنسيانه

ولا القلب .. إلا أنه يتقلب

ثم اليقين بما قرره القرآن الكريم من أن حبنا وكراهتنا لأمر ما . . ليس مقياسا . . فقد تكون المصلحة حيث لا نحب . .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ [1] .

(١) البقرة : (٢١٦).

فما أسرع ما تستهوينا القشرة البادية . هذا السطح الهادئ الأملس . .

ثم لا ندرى المخبوء هناك فى الأعماق . .

وما دمنا لا نعلم . . والعليم هو الله تعالى فلنسلم وجوهنا إليه . . ولنسلم بما رزقنا من زوجة قد يكون نصيبها من الجمال أو «الذكاء» ضئيلا . . لكن نصيبها من «الزكاء» من الأخلاق جزيلا .

بل إن ما يخيل إليه من عيوب الزوجة قد يكون من ورائه الخير كل الخير . يقول تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(١).

ولاحظ أ ن الحق تعالى لم يصف الخير بالكثرة إلا هنا . . وعند الحديث عن علاقة الزوجية وضرورة إنصاف الزوجة من أنفسنا

والذين أتاح لهم القدر الزواج من الفاتنة الجمال يعرفون جيدا كم جرت عليهم الغيرة من وراء هذا الجمال صنوف الوبال . . بينما زوج متوسطة الجمال راض بما قسم الله . . قانع بعيشه .

تجرى به سفينة العمر بعيدا عن العواصف .

فى الوقت الذى قد تعصف الغيرة الشموس بصاحبه . . فينقض على زوجته فيقتلها . . ثم يبكى على جثتها . . التى تقول له :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى

وفى حياتى ما أعطيتنى زادا

ما هو الحل ؟

الحل إذن هو الفهم العميق لطبيعة الإنسان المختلفة الطعوم والألوان . . وضرورة التكيف مع غيرنا . .

---

(١) النساء: (١٩).

إنك حين تتأمل شجرة التوت .. فماذا ترى ؟

لن ترى ورقتين متفقتين تماما ..

لكنهما متكاملتان ..

ومن مجموعهما يكون الظل .. والثمر .. والكل مشدود

إلى جذع واحد ..

يضاف إلى ذلك تصور الشيطان المريد الذى يحاول دائما قطع ما أمر الله بـه أن يوصل .. ونقرأ معا هذه القصة الرمزية فلعل فيها تبصرة وذكرى :

كان الزوجان يختلفان حول أمـر من الأمور ، وبدأ الخلاف يتطور إلى شجار ، بسبب همس يسمعه الزوج ، ولا يرى صاحبه يقول له : هل ترى كيف تهين زوجتك كرامـتك ؟ ألا تلاحظ أنها تمس رجـولتك ؟ كيف تسكت ؟ كـيف ترضى ؟ أتغلبك امرأة ؟!

وكان هذا الهمس ينتقل إلى الزوجة ، ولا ترى صاحبه أيضا ، يقول لها : لقد تمادى زوجك ! صبـرك عليه أطمعـه فيك ، حلمك جعله يهـينك ويجرح أنوثتك ! عليك أن تضعى حدا لهذه الإهانات المتكررة منه .

واسـتمـر الهمس فى نفس كل من الـزوجين ، يشعل فـيهـما نار الغـضب ، ويؤجج جمر البـغضاء ، ويؤلب كلا منهـما على الآخر . وفيمـا الزوجان كذلك ، ظهر صاحب الصوت الذى كان مختبئا خلف الستار ، بعد أن هبت ريح من النافذة ، واكتشف الزوجان أن صاحب الصـوت هو الذى أوقع بينهما ما أوقع ، وأنه هو الذى زاد خلافهما اشـتعالا واحتداما وتأزما ، يطاردانه وهمـا يضربانه حتى خرج من باب الدار . وعادا يضحكان بعد أن أدركا أن الخلاف مـا كان يصل بينهما إلى ما وصل إليه من حدة وشجار وعنف .. لولا هذا الذى كان متـواريا يهمس فى نفس كل منهما ما لم يكن سمعه الآخر . عزيزى الزوج ، عزيزتى الزوجة ، أردت بهذه الحادثة الرمزية أن أنبه كلا منكما إلى أن هذا ما يحـدث فى كل خلاف حاد يقع بينكما ، لكنكما لا تريان الذى يهمس فى أذن كل منكما مما يشعل الخلاف بينكما .

بالحيلة وليس بالأسلحة الثقيلة

روى الدارقطنى عن عكرمة قال :

" كان ابن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته . . فقام إلى جارية له فى ناحية الحجرة . فوقع عليها.

وفزعت امرأته فلم تجده في مضجعه .

فقامت فخرجت . فرأته على جاريته .

فرجعت إلى البيت فأخذت الشفرة . ثم خرجت .

وفرغ . فقام . فلقيها تحمل الشفرة . فقال : مهيم ؟ - كلمة يمانية يستفهم بها . معناها : ما وراءك ؟!

لوأدركت حيث رأيتك لوجأت - ضربت - بين كتفيك بهذه الشفرة . قال : وأين رأيتنى ؟ قالت :

رأيتك على الجارية . فقال : ما رأيتنى !! وقد نهى رسول الله - ﷺ - أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب .قالت :

فاقرأ . . وكانت لا تقرأ القرآن .

فقال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه
كما لاح مشهور من الفجر طالع
أتى بالهدى بعد العمى . فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت : آمنت بالله . وكذبت البصر .

ثم غدا إلى رسول الله ﷺ . فأخبره . فضحك حتى بدت نواجذه[١]

تمـهيد

إذا كان الزوج مأمورا بألا يصف أمام زوجته حسن امرأة أخرى . .

رعاية لشعورها . . فكم تكون مسئوليته . . لو أنه استفزها بمواقعة أخرى . . هي ضرتها بالذات ؟!

سوف تنفجر . . لتفجره معها . . ولا يخفف من حدة غضبها أنه يواقع حلالا . . لأن جرح الكرامة أشد إيلاما . . ومن ثم تكون عاقبته وبالا !

وفي ضوء هذا المعنى ندرك **أبعاد هذا الموقف المثير :**

إن الجلسة هنا عائلية . . تلقائية : جمالها في بساطتها . . بلا تكلف . .

فالزوج . . مضطجع . . وإلى جانبه «امرأته» . .

ولا تقول الرواية «زوجته» . . وما يشي به اللفظ من أنس ووئام . . وهيام . .

وإنما كانت هذه اللحظة مجرد «امرأة» :

يراها . . ويسمع كلامها . . فلما ظهرت الجارية على الشاشة . .

سلبته قلبه وحسه . . فوقع عليها . . «وقع» عليها . . بلا تفكير . .

مدفوعا بالغريزة الغالبة . . وكان عليه أن يتخير الوقت المناسب . . حتى لا يثير أعصاب زوجته . .

ولكن الجارية لم تترك له فرصة الاختيار . .

موقف الزوجة :

لقد فزعت الزوجة لما رأت زوجها في مشهد تأباه . .

ولكن . . كانت هناك وسائل أخرى للاحتجاج ، ومنها :

أ – أن تشد عليها ثيابها . . ثم تذهب إلى أمها .

ب– أن تعاقبه بهجره تحت سقف البيت . .

ولكنها استبعدت الحلول السلمية .. مؤثرة هدم العش بالسكين .. تقتل بها مستقبلها .. ومستقبل أولادها ..

والزوجة هنا معذورة :

لقد استعملت حقها في الغيرة على من تحب .. وإن لم تحسن التعبير عن هذا الانفعال .

ويا للغيرة القاتلة :

إنه لو كان العقل مصدر الغيرة .. إذن لأمكن التفاهم مع الزوجة فى مثل هذه الظروف .. وقد نحتويها ..

لكن الغيرة تنبع أساسا من حبة القلب .. وهذا سر صعوبتها .. وصعوبة التفاهم معها !!

وسوف تندفع كالعاصفة .. تكنس السلام من البيت ..

وإذا برصيد الزوج من الحب فى قلب زوجته .. إذا به مسحوب كله .. أو جله !

وفى غياب الحب .. تضيع فرص التفاهم ..

وقد يكون الإشفاق على الزوجة بديلا .. يلجأ إليه الزوج خروجا من ضيق الأزمة الخانقة ..

ولكن البصراء يقولون :

«إن الشفقة ألد أعداء الحب .. لأن الزوجة حتى لو كرهت زوجها .. فقد يبقى الأمل فى استئناف حبه قائما ..

أما فى حال الشفقة .. فلا أمل فى أن تتحول الشفقة حبا ذات يوم»

مانعة الصواعق :

ولقد نجح الزوج أن يكون مانعة صواعق بهذه الحيلة التى أثبتت أن السكين فى يد الزوجة حالة استثنائية وأن فى قلبها حملا وديعا .. ورغبة فى أن تعيش .. ومفتاحها فى يد الزوج الذى يؤثر الكياسة .. على الرياسة ..

الكيـاسة التى تحسن إدارة الأزمة بحكمة الملاح الذى يتـرنح به السفين أمـام الأمواج ..

والذى يؤكد صحة مقولة الحكماء من قبله : نعم .. لقد أخطأت .. ولكنها : مخلصة .. فلا تفرك - تكره - ، ولها أولاد .. فلا تترك !!

أما بعد :

فـإذا خف وزن الزوجـة هـنا «علمـيـا» حين لم تدرك الـفـرق بين القـرآن .. والشعر .. إذ بدت الزوجة أمية ..

لكن رصيـدها الأخلاقى .. كـان أثقل فى ميـزانها من كل«شـهادة» ومن كل منصب !!

□ ● □

نصائح إلى الأطراف المعنية !

عندما تنفرد الغيرة بتشكيل علاقات من فى البيت . . فقل على البيت السلام . . ذلك بأن الغيرة تندفع بالضحية المعصوبة العين . . إلى غير هدف . .

بل إلى تدمير من تحت . . باسم هذه الحب المفترى عليه !

ومن صور هذه الغيرة مانقل عن غيرة «ديك الجن» الشاعر :

لقد غار على صاحبته إلى درجة الجنون . . حتى إنه قتلها . . ثم راح يرثيها أحر الرثاء قائلا :

رويت من دمعها الثرى . ولربما
روى الهوى من شفنى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها
ومدامعى تجرى على خديها
ما كان قتلها لأنى لم أكن
أبكى إذا سقط التراب عليها
لكن بخلت على العيون بحسنها
أشفقت من نظر العيون إليها

وحماية للبيت من هذا الانفعال الفائر الثائر . . يضع الإسلام الخطة المثلى مؤكدا حق الأم وحق الزوجة معا . . حتى لا تتداخل الحقوق . . ثم يكون الخصام . . فالصدام .

هذا الصدام الذى قد تتحمل الأم كبره . . إذا استبدت بها غيرة من هذا اللون الطاغى . . والذى تقتل فيه الدبة صاحبها زاعمة أنها تدافع عنه . . ليكون الأمر علي ما قال الشاعر .

أتبكى على ليلى .. وأنت قتلتها ؟! ... لقد ذهبت ليلى .. فما أنت صانع ؟!

ونعود إلى الحماة الغيرى .. لنناقشها الحساب : صحيح أن زوجة ابنك قدخطفت ولدك . ولكن بعض الوقت .. لتنجب لك أحفادا يمتعونك كل الوقت ..

وهذا الحفيد الذى تضمينه إلى صدرك في شوق وحفاوة .. كان بطن الزوجة له وعاء.. وثديها سقاء.. ثم .. كذلك كنتم من قبل :

لقد جئت من قبل إلي بيت الزوجية تحت جناح زوج ..فهل كنت خاطفة له .. أم هذه هى سنة الحياة التى تحملنا إلى مايراد بنا .. ولا يبقى إلا أن نفعل مايراد منا ..بالنظرة الشاملة العاقلة..

وبالمعاملة التى تحبين أن تعامل بها ابنتك مع زوجها .. الذى لم تخطفه باعترافك أنت !!

وأمامك على الطريق حموات عاقلات :

عاقلات .. لأن لهن من حسن التفكير والتدبير ما هيأهن للتكيف مع الأوضاع الجديدة بما يريح أعصاب كل من فى البيت .

ومنهن تلك الأم التى كانت تتحرق شوقا إلى إنجاب بنت ..

لكن الله تعالى لم يشأ أن يهبها إلا ولدا واحدا ذكرا.

ولأنه الابن الوحيد ..فقد كان نصيبه من الحب أوفى : تعلقا به ..وخوفا عليه..

ولقد فاض هذا الحب على زوجتة .. حين تصورت أولا :

أنها تحب ولدها .. ثم هى تحب من تحبه . وفى طليعتهم زوجته ..

ثم ترقت فى سلم التوفيق حين أقنعت نفسها بأن زوجة ابنها تلك .. لم لا تكون هى ابنتها التى كانت حلماً طالما راودها ! ..

ولقد عاملتها على هذا الأساس : فصار حبها لها أضعاف حبها لولدها :

لأنها تحب ولدها مرة واحدة .. ثم احبت زوجته مرتين :

مرة .. لأنه ابنها .. من ترائبها ..

ومرة لأن الزوجة تحب ابنها .. والشاعر يقول :

يكفى من الحب أنى لما تحب .. أحب !

إن الأم التى دفعت دم قلبها ثمنا لهذا الزواج لا ينبغى أن تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثا ..

ثم .. قد يكون للزوج أخت فاتها قطار الزواج .. أو كاد ..

وإذن .. فما أحوج البيت إلى الرجولة التى تحسم القضايا في المواقف الصعبة .. هل هناك أصعب من جبهة تضم الأم والبنت معا ؟

ذلك بأن البنت تنضم إلى جبهة الأم تلقائيا .. فيما يشبه الحزب المعارض .. وخطورة الأخت هنا تكمن فى أن الأم قد تغضب على ولدها ..

لكنها تكره من يقول : آمين .. حين تدعو عليه !

إن لها من شفقتها وحنانها ما يحول بينها وبين ضربه . ونقض غزله..

أما الأخت : فنسبة الشفقة فى قلبها أقل .. وبالتالى فليس لها من حب الأم ولا من شفقتها عاصم يمنعها من أن تضرب وبقوة !

وهنا يجيء دور الزوج الحازم .. الحكيم فى نفس الوقت . ليكون ذلك الرجل الذى من سماته .

«أنه أحلم عن فتنة . وأسرع الناس إلى إفاقة ، بعد مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة» وخيرهم لأمه .. وزوجه .. وأخته .

ألا إن الرجل القادر على إدارة الأزمة فى بيته بنجاح .. لهو القادر على أن يقوم بدورة الاجتماعى أيضا .. بنجاح .

❑ ● ❑

○ من تجـــاربـــى ○

يقول الخبراء :

فى الزواج الطبيعى . . قد تتأثر العلاقة الزوجية ببعض الأمور الصغيرة . . فتتعثر . . فلا تمضى على السنن المعهود . .

وقد يحدث أن يكون هناك طرف ضعيف . . ومن ثم تتحرك فى كيانه عقدة النقص . . التى تفجر فيه قوة فى أعماقه مدخرة . . تعينه . . لينطلق بها متجاوزا هذه الصغائر . . متى سنحت له الفرصة .

وقد يكون الطرف الضعيف هنا هو الزوجة . . والتى قد تعكر الجو بتصرف قد يبدو يسيرا لكنه جد خطير . وهو : أنها تتطوع بنقل أسرار بيتها إلى أمها . .

بمعنى أنها تحيطها علما بهذه الصغائر أولا بأول . . فيتقلب قلبها إزاء زوج ابنتها . .

والذى يحدث فى مثل هذه الحال : أن الزوجة قد تنسى كل الذى حدث من زوجها فى لحظة من لحظات الصفاء . . لكن تبقى الأم على موقفها المتحيز لابنتها لأنها ليست طرفا فى لحظات هذا الصفاء.

إن الرجل قد يقول لصاحبه : أقرأنى جالسا . . أى لا تتسرع فى الحكم على . .

هذا إذا كانت هناك قراءة . ورغبة فى الحكم السديد . .

ولكن الحماة المعبأة بما أحفظها على الزوج لا تبنى موقفها منه على قاعدة : الحكم على الشيء فرع عن تصوره . . وإنما تبنيه على مقولة :

الحكم على الشيء فرع عن مجرد سماعه !! وقد سمعت من ابنتها . . وصورته فى خيالها لا تتغير بما يحملها على التماس المعاذير لاستدعاء ابنتها إلى بيت . . غاضبة عاتبة . . !

وهنا يجد المصلح الاجتماعى نفسه أمام قضيتين :

فأقارب الزوجين يشكلان حزبين متناحرين . .

لكن العلاقة بين الزوجين على أوفى معانى الود . .

ومن ثم يجب التفريق بين أمرين :

علاقة الأقارب . . وعلاقة الزوجين . . فلا نخلط هذه بتلك . . فمتى كان هناك وفاق بين الزوجين . . فلننح عواطفنا تجاه الأقارب جانبا . . لأنها قضية أخرى . . لا يجوز أن تجور على القضية الأم . وهى : علاقة الزوجين .

هذا ما يقوله الإنصاف . . وما تفرضة الرغبة فى إسعاد البيت الذى قد يكون فيه أطفال ينالهم .كفل من هذا العذاب . .

لكن الواقع يقول : لقد انقطع مدد الوفاق بين الزوجين أو كاد . . بسبب من هذا الشجار المفتعل . . بين فريقين يختصمان . .

والضحية هو : من نزعم أنهم أجدر بحبنا .

من تجاربى

وقد دعيت إلى مجلس صلح من هذا النوع . . وكان مقالتى : أنه لابد من التفريق بين القضية . . فإذا تأكدنا من حسن العلاقة بين الزوجين . . فالأمر بعد ذلك يهون . .

وأنا فى الطريق إليكم . . توقفت السيارة فجأة . .

وكان لنا عجبا أن الطاقة موجودة داخل السيارة . . بدليل تحرك «الماكينة» . . ولكن السيارة واقفة لا تتحرك خطوة إلى أمام ، وتساءلنا عن السبب . . فقال المجربون:

إذا كانت الطاقة موجودة . . ومع هذا فالسيارة لا تتحرك فذلك راجع إلى واحد من سببين :

إما أن الوقود لا يمر من خلال التروس . .

أو أن هناك عطبا بالتروس نفسها . .

وأقول لكم بنفس القوة :

إن الحب بين الزوجين موجود . .

ولكن المدد قد انقطع . .

لقد هبت أعاصير الخلاف بين الأقارب . . فأعشت العيون برمالها . . فعز عليها أن تتبين ملامح الحق . .

والحق هنا : أن حاميها . . حراميها . .

إن الزوجين كليهما راغب فى العيش . . لكن الكرام من الأهل لا يفسحون لهما الطريق . .

ولمثل هذه اللحظة الحرجة فليعمل العاملون :

الزوجة . . والزوج . . معا . . فعنهما تصدر شرارة الخلاف الأولى . ومعظم النار من مستصغر الشرر !

ومعهما . . ومن حولهما يعمل الآباء . . والأمهات . . والأخوال والأعمام . .

يغذون جميعا شجرة الحب بين الزوجين . . فهم مسئولون أمام الله تعالى مسئولية مباشرة عن تنامى هذا الحب . .

إن عاطفة الحب المدفونة فى ضباب من الاجتهادات والتأويلات . . لا قيمة لها . . فلا فائدة هناك من وراء عروق الذهب مضمورة فى الأرض؟!!

إن غاية الحياة الأسرية ليست هى الإمتاع فقط . . وإلا . . فإن العاهر تحقق هذه المتعة . . ولكنها بالدرجة الأولى انسجام ووئام . لا يتم إلا فى مناخ ملائم . . تنبت فيه الحبة . . فإذا هى سبع سنابل .

❑ ● ❑

الزوجة عند حسن الظن بها

ما دام الربان الماهر قابضا على المجداف .. ماخراً بالزورق عباب الماء..
فإنه على رجاء الوصول ..
أما إذا نوزع هذه السيادة .. هذه القوامة .. فسوف يضطرب المجداف في يده ..ثم يغرق الجميع .
وبنفس القوة نقول :
مادامت قوامة البيت في يد الرجل .. فسوف تمضى الأمور على السداد..
أما إذا استنوق الجمل .. فلن تكون فى البيت ناقة .. ولا جمل !
ولقد كانت أم الدرداء تقول :
«حدثنى سيدى أبو الدرداء»[1]
منطلقة من يقينها بأن سيادته .. وقوة شخصيته .. عائد عليها كفل منها .. عزة ومنعة ..
وإلا .. فإن سلبه هذا الحق ضياع لأسرة فقد عائلها العزة .. وفاقد الشيء لا يعطيه .
وعندما سمع الأمير من يدق بابه تساءل : من بالباب ؟
فلما قالت زوجته الطارقة ..: أنا الأميرة .. تركها لدى الباب .. ولم يفتح لها إلا عندما كان جوابها : أنا زوجتك !
ذلك بأن الأميرة .. تشى بالكبرياء .. والتسلط .. وهو ما يحبط معنى

(١) النهاية لابن الأثير.

الزوجية الودود المأنوس . . ويخدش فيه معنى السيادة كزوج . . فلما تراجع معنى الاستعلاء . . تفتح باب القلب . . قبل أن يفتح باب القصر!

ولقد كنت أعرف من أخلاق ربة البيت فى القرية أنها فى بيتها الآمرة الناهية . . بعدما تخلى زوجها عن دوره كسيد للدار . .

لكنها . . كانت جد حريصة إذا ماكان فى البيت أضياف أن تشعرهم بأنه سيد البيت الحقيقى . . حفاظا على السمت المقبول . . علي الأقل . لتوهم نفسها بأنها تحت رجل قوى . . وتلك أمنية كل زوجة تعرف أن عزها فى رجلها . . الذى تقول عنه: ظل رجل . . ولا ظل حائط !! ولا بأس أن يظل «خيال المآتة» فلسوف تهابه الطيور الجارحة !

صورة من الماضى :

ولقد كانت هذه «الفلاحة» أذكى من أختها الحسيبة النسيبة» فاطمة بنت عتبة بن ربيعة» والتى واجهت زوجها «عقيل بن أبى طالب» بما أبهته :

«تصير إلى . . وأنفق عليك»؟!

ثم كانت حريصة على أن يظل الجرح غائرا فى شعوره بما كانت تواجهه به كلما دخل عليها البيت مفتخرة بالعظام النخرة :

«أين عتبة بن ربيعة . وشيبة بن ربيعة» تعنى : أباها . وعمها اللذين ماتا كافرين . ويصبر «عقيل» عندئذ ذلك الأسد المجروح . . ولا ينبئك مثل خبير ببطش الأسد المجروح . . والذى رد كبرياءها بعنف قائلا:

«هما على يسارك فى النار إذا دخلت»!

وتجيء اللطمة شديدة . . فلم يسعها إلا أن تشد عليها ثيابها . ولكن حكمة الزوجة العربية الأبية المسلمة أبت عليها أن تذهب إلى أمها حتى لا يتسع الخرق على الراقع . .

بيد أن قدميها حملتها إلى «عثمان» - رضى الله عنه - . . والذى ضحك من غرابة الموقف . . مقررا إرسال حكم من أهلها «معاوية» وحكما من أهله «ابن عباس».

وتأبى المرأة العربية المسلمة إلا أن تكون عند حسن الظن بها .. فلقد ذهب الحكمان .. لكنهما وجدا الباب مغلقا عليها .. فعادا سالمين .. شاهدين بدور الزوجة التى مهدت بحكمتها للصلح .. فكانت هذه «القمة» الثنائية بينها وبين زوجها .. والتى انتهت بالوفاق .. بعد الشقاق .. وبعدما رفضت الزوجة اتساع الهوة بالعودة إلى بيت أبيها .. وفضلت أن تدير الأمر تحت سقف البيت .. فوفرت على الحكمين عناء حوار قد يطول .. ثم لا نحقق المأمول .

وذلك هو المعنى الذى نلفت النظر إليه اليوم .. بضرورة حصر الخلافات الزوجية بين الشريكين .. قطعا لدابر الفتنة .. وإسكاتا لنيران حساد يتربصون بنا الدوائر ..

وقد يستفحل الخلاف .. فتذهب الزوجة الغضبى إلى أمها ولكنها لا تفقد أبدا بقية من حكمتها ..

وذلك ما فعلته زوجة «أبى الفرج بن الجوزى» :

والتى كان يحبها حبا جما .. تعرض يوما لخلاف عائلي .. لكنها- وهى عند أمها - كانت حريصة على أن تحضر درسه فى المسجد .. وكان هو يتمنى أن تكون قريبا منه !

وذات يوم حضرت درسه لكن حجبها عنه امرأتان سميتان .. فقال :

أيا جبلى نعمان : بالله خليا ∴ نسيم الصبا يحمل إلى نسيمها !

فأدركت المرأتان .. فتزحزحتا .. فهب عليه نسيمها ..

وفى المساء .. عادت إليه .. عادت بلا شروط مسبقة .. وإنما حملتها الأشواق إليه .. محطمة تقاليد وأعراف تكبل العقول والقلوب .. جاعلة من عودتها الميمونة رسالة موجهة إلى كل امرأة غضبى قابعة فى أحضان أمها :

إن زوجة لا تنظر إلي السماء .. لا تصلح لشيء على الأرض ..

أما هى .. فقد عاشت بقيم السماء .. فصلحت .. وأصلح الله بها بال زوج كريم .

❑ ● ❑ الأسرة المسلمة .. زمان ❑ ● ❑

على مدى قرون متطاولة .. حاول المربون الأجانب الوصول إلى مستوى مثالى للأداء داخل الأسرة .

وفى النهاية تمخض الجبل .. فلم يوجد مفقودا .. وإنما أظهر موجودا .. بدا من خلال توجيهات الأمهات .. والجدات .. زمان !

كانت الأم - الأمية - تقول لا بنتها لدى الباب وهى خارجة تلعب مع صديقاتها :

العصفورة ستخبرنى بكل ما فعلت !

وكان من توجيهاتها : من كسر شيئا .. ثم اعترف .. فله مكافأة.

ومن سرق شيئا حول الله وجهه وجه حمار !!

وحدث أن البنت راودتها نفسها أن تسرق درهما من جيب أمها ..

لكنها ردته إلى حيث أخذته ..

والعجيب أنها تحسست وجهها لتتأكد من أنه لم يصر وجه حمار !

ولما وسوس إليها الشيطان بأن تغير الوجه يكون بعد الشراء بما سرقت ..

وافت أمها فى لحظة التمزق هذه ..

فأنقذتها من ورطتها !!

أنقذتها أمها التى ضربت والحديد ساخن ، حين قالت لها :

الحمد لله الذى لم يجعل وجهك وجه حمار !!!

مسئولية الآباء :

لا يجوز لك أن تفرض على ابنك بنتا معينة .. كما أنك لا تفرض عليه طعاما يكرهه ..

مع أن الثانية مرارة لحظات . .

أما الأولى : فمرارة العمر كله !

وقد اشتكى ابن للإمام أحمد أن أباه يفرض عليه فتاة .

فقال له : لا تطعه !

فقال الفتى : أليس عمر أمر ولده بتطليق زوجه؟

فقال له الإمام : حتى يكون أبوك عمر .

والذى كان ينزل الوحى برأيه !!

زمان . . كانت حياة الزوجة والزوج «صغيرة» متداخلة . . متشابكة .

أو كانت عقدة لا تنفصم عراها .

لم يختلفا يوما . .

وإذا اختلفا . . فالعتاب الرفيق :

شريطة أن يكون بالليل . . والصغار نيام !

إنه العقاب: لا على التقصير فى شراء الثوب الغالى . .

وإنما تعاتبه لأنه مرض فى غربته البعيدة ولم يزعجها . . وكان الواجب أن يخبرها لتكون إلى جانبه !

وحدث أن ضربها مرة . . وللمرة الأولى ، فلما أراد مصالحتها بتقبيل رأسها . . رفضت وبشدة . .

لأنها لا تريد أن تراه ضعيفا . . وأمامها بالذات !!

يحدث كل هذا والصغار نيام . . لا يشعرون . وبينما الأسر من حولها يصخبون . . كشجرة فى الغابة تسقط ليكون لها دوى . . بينما يحدث ذلك ترى الأسرة الوفية .

هذه كالفراشة : إنها تنقل اللقاح من زهرة إلى أخرى . . ثم تسقط . . فلا يسمعها أحد .

○ الوفـــاء .. وسعادة البيت ○

كانت الأسرة آمنة مطمئنة .. يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ..

رزقها المادى .. ورزقها المعنوى ..

ومن هذا الرزق المعنوى : توفيقها إلى طاعة الله عز وجل ..

فكانت البركة «إكسير» حياتها التى خلت من المشكلات ..

ومن أين تهب رياح المنغصات على بيت عامر بقيمة الوفاء . التى يجمع الله بها الشمل .. ويحقق الأمل ؟

ومازلت أذكر ذلك البيت الذى رحل عائله ..

فكانت الأم ومعها ولداها .. كانوا يحيون الليل كله بالصلاة ..

لقد اقتسموا الليل ثلاثا :

الأم تحيى ثلثـه . والولد الأكبر يحيى ثلثـه .. والكبير يحيى ثلثـه الأخير .. فلما ماتت الأم .. اقتسـم الولدان قيام الليل ..

فلمـا رحل أخوه .. قـام الليل كله .. طاعة لله أولا .. ووفـاء للأم و الأخ ثانيا!

ألا وإن الأم لأحرى بوفائنا وأخلق :

فإن لها فى عمارة البيت وتعميق الروابط باعا طويلا :

لقد كـانت تدفع رأس طفلهـا - وهو فى مهـده - إلى أسفل .. فى حـضور أبيه .. وأخيه الأكبر .. احتراما لهما ..

وعندها .. نلتقي كلنا : بنين وبنات .. فهى صخرة النجاة :

إن هارون - عليه السلام - لا يقول لموسى : يا أخى :

ولكنه يقول له :

«يا ابن أم . . »

ولما جاءت أم هانئ تشكو عليا للرسول - ﷺ - وقالت :

«إن ابن أمي . . »

أجل . . إنها أحق بالوفاء . . وفي حياة الأب :

أ- بما قدمت يداها من رعاية وعناية . وما أنفقت من أعصابها وراحتها .

ب- ولأنها أنثى . . فهي ضعيفه (والنساء : حاملات . مرضعات . رحيمات بأولادهن ، وأنهن خلقن من ضعف وعورة)[1]

جـ- ثم لكبر سنها .

فإذا مات الوالد الذي كان يحميهـا . . فنصيبها إذن من الوفاء يكون إربا نملأ به فراغها بعد غياب الصاحب . .

ويتأكد الوفاء لها والرحمة بها إذا تصورت حساسية وضعها :

فلو مات أبوك وخلفها عجوزا . . فلن ترضى أن تتزوج . .

ولو كانت دون ذلك . . فلن ترضى أنت أن تتزوج ! .

فارحـمهـا على أم رأسك بارا وادا بها . . وعلى أرض ملتـهبـة تنضج اللحم الطرى . . ما وفيتها أجر طلقة واحدة !!

ومن دواعي الوفاء : الصبر على حدتها :

ذلك بأنها قبل كل شيء : امرأة . .

وما دامت امرأة فهي تحمل في كيانها طبيعة المرأة :

لقد خلقت من ضلع أعوج . . وإذن فـعوجها ضروري لأداء مهـمتها . . ولو حاولت أن تعدل الضلع فسوف تكسره . . يعني سوف تحبط وظيفتها !

أما عن وفاء الإخوة . . فنحن نذكر الخنساء :

لقد بكت أخاها صخرا . . حتى أعماها البكاء . وأضناها الأسى .

(١) رواه مسلم (ج ١٥/ ٨٠).

فلما قيل لها :

لقد مات مشركاً . . فلم البكاء عليه ؟ قالت :

وهذا مما يزيد بكائى عليه :

فلقد كنت أبكى عليه للقتل . . واليوم أبكيه من النار !!

ولم تكن علاقة الأخوة حادثا فـرديا . . ولكنها - وفى ضوء الإسلام - كانت متميزة :

قيل لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - :

أنت أفضل . . أم أخوك هشام ؟

فقال : عـرضنا أنفسنا - فى اليرموك - على ربـنا . . فقبله الله تعـالى . . وتركنى !

لقد كان سؤال الصحاب محرجا . . لكنه - رضى الله عنه - أحرجهم . .

وكأنما يقول لهم :

إذ كنت أنا - إعلاميا - أشهر منه . . لكن ذلك لا يغنى عن الحـقيقة شيئا . . والحقيقة هى :

أن الله -تعالى- قد اخـتاره شهيدا . . بينما خلفنى من بعـده أموت على فراش كما يموت العير .

ورحم الله أم حبيبة زوج الرسول - صلى الله وعليه وسلم- والتى تمنت أن لو شاركتها أختها «عزة» فى رسول الله - صلي الله عليه وسلم - لتكون ضرة لها تشركها في خير الرسول - ﷺ - وياله من وفاء . فى حاجة إلى أن يدوم . .

ولا يدوم إلا بأم رأوم ثم بزوجة تأتى من بيت أبيـها ، وقد ترى الإخـوة حزمة واحدة . . فتذبل فطرة الشر فيها . .

وفى سبـيل أن يبقى زوجهـا لها وحدهـا . . فإنها تقطع مـا أمر الله بـــه أن يوصل . . وهيهات أن تصل إلى ما تريد . .

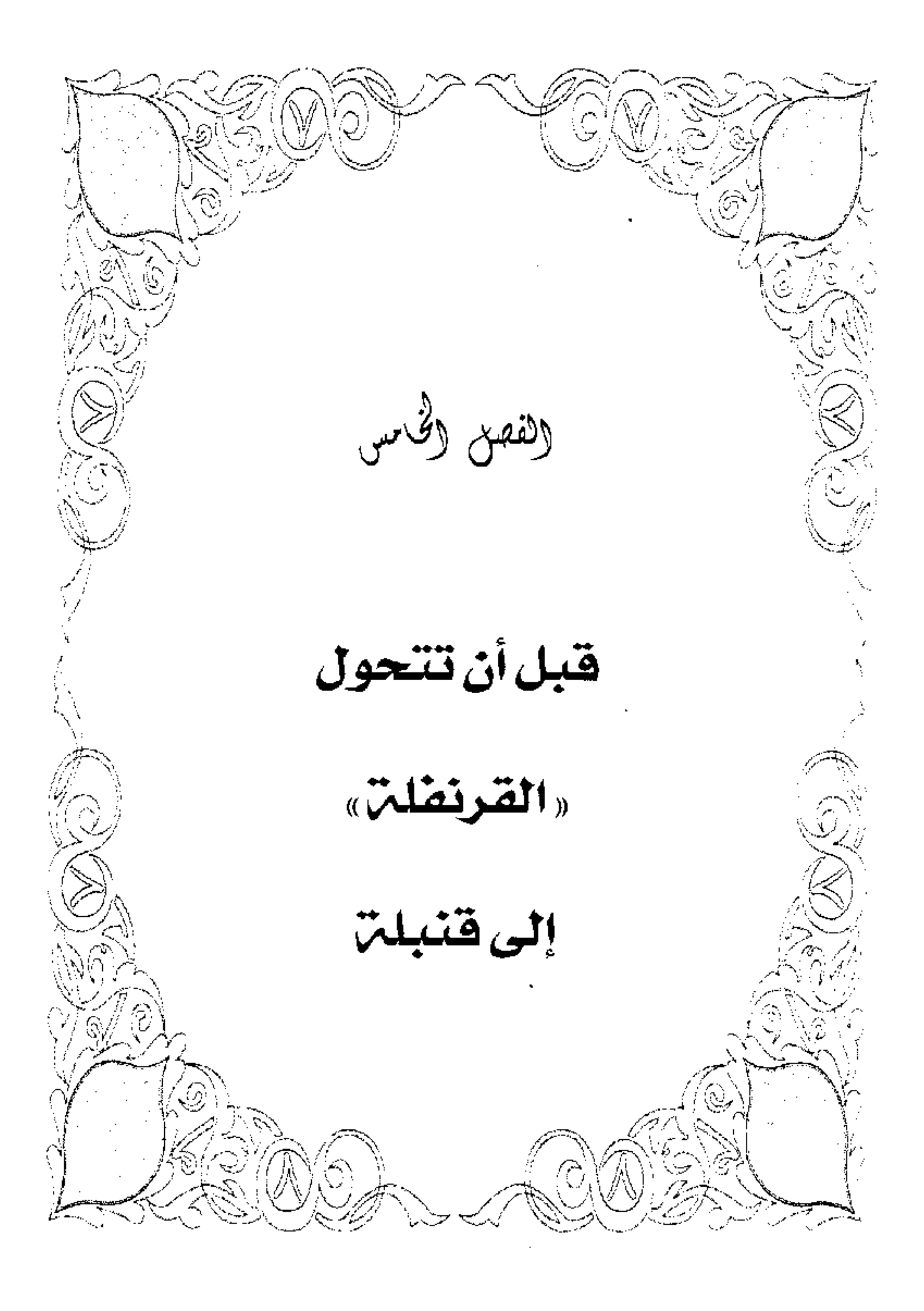
وسقى الله أياما كان الوفاء فيها إدام البيت . .

مما يحملنا على التساؤل :

أين صور الوفاء تلك . . لتعيد إلى الأسرة صفاءها ؟ والجواب :

نسيت كلهـــا فذا زمـــــن ∴ كل شـــــيء فيـه ينسى بعد حين !

□ ○ □



الفصل الخامس

قبل أن تتحول «القرنفلة» إلى قنبلة

قبل أن تتحول «القرنفلة» إلى قنبلة !

يقول ﷺ :

«من رزقه الله امرأة صالحة . فقد أعانه على شطر دينه . فليتق الله في الشطر الباقي» [١] .

تمهيد :

نتخطى مراحل العمر . . فننمو . . ثم تنمو معنا أمانينا . .

ولو أننا أسلمنا لها زمامنا . . لمزقتنا . . وضاعت حياتنا سدى .

ولقد كان من رحمة الله تعالى بنا أن جعل من الشرع سياجا لهذه الأمانى . . حتى لا تنطلق على غير هدى . . وواجبنا يفرض علينا أن نرضى بما قسم الله تعالى لنا . .

وإذا عجز الإنسان أن يمنع أمانيه من أن تناوشه من قريب أو من بعيد . . فإنه قادر على التصدى لها . . قبل أن تعشش فى رأسه !

فإذا كان هذا «المقسوم» زوجة وفية . . فإن مسئولية الرضا بها تكون أعظم ما تكون :

ذلك بأنه - قبل الزواج : تكون العواطف - كما قيل - تكون ملتهبة . . والطريق مفروشا بالأزاهير . . وتبدو المشكلات كأنها القطن المندوف . . تطير بنفخة واحدة . . ولكن سرعان ما تصطدم بصخور الواقع . . لتصل فى النهاية إلى طريق مسدود !

وهنا تتأكد مسئولية رب الأسرة - لا سيما إذا كان فيها صغار زغب الحواصل-

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط.

تتأكد مسئوليته من حيث كان تفككها ضربة موجعة لكل من فى البيت .

الأسرة : الشعب مصغرا

إن رب الأسرة هو القائد . .

والأولاد هم الشعب مصغرا . .

وإذن . . فمسئولية الأسرة منوطة " بربانها " الذى ينبغى أن يظل قابضا على المجداف . . حتى لا يبتلعه اليم . . هو ومن معه .

لكن ناسا يبتهلون هذه المسئولية . . يحاولون اختلاق المعاذير .

ليسوغوا لأنفسهم الخروج على هذه النعمة المسداة . . ليصير غزلهم من بعد قوة أنكاثا .

من الاعجاب الى التعجب :

ومنهم ذلك الشاب فوق الأربعين :

إن زوجته تقول : إنها تعشقه :

معجبه بسلوكه الشخصى .

مفتونة بالمنظومة الأخلاقية التى تقف من وراء حركته العملية الناجحة . .

ولكن إعجابها به صار تعجبا منه ؟!

إنه يفاجئها بأنه قرر الزواج .

١- لأن التعدد سنة .

٢- ولأن هناك عانسات ، بائسات ، ونحن مكلفون بجبر خاطرهن بالزواج منهن!!

يقرر ذلك : متجاهلا . . وجاهلا :

أ- متجاهلا أن زوجته جميلة . . ومطيعة . .

ب- وأن الدار آمنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . .

ح - وأنها أنجبت له بنين . . وبنات . .

ثم كان جاهلا بتلك الحقيقة ، تنطق بها الطبيعة من حوله ، وهى :

إن الحمامة الوادعة هناك فوق غصن الشجرة .. هذه الحمامة .. لن تمنعها وداعتها من التصدى .. وبعنف .. لكل من تحوم حول عشها .. لترده مجروحا مهزوما !

وقد تكون الرجولة قادرة على اقتحام العش الهادئ لتصنع لنفسها مرقدا جديدا .. لكنه سوف يكون عرشا من الأشواك : تملكه .. نعم .. ولكنك لاتحكمه .. لأنك لا تستطيع الرقاد عليه !

وإذا كانوا يقولون : إن الرجل حين يقوى .. يشفق على المرأة .. فإن المرأة حين تضعف ... تقسو عليه !

وقد تعطف أحيانا .. لكنها- تحت الإحساس بوطأة الظلم - لا تنسى الإهانة أبدا.

ولنترك الأسوياء الأتقياء يضربون فى الأرض .. يستكملون نصف دينهم .. جاعلين من بيتهم جنة الدنيا التى يفيئون إليها .. لنجادل بالحسنى أولئك الذين لم يتقوا الله .. حتى فى النصف الأول .. حين يحاولون تجديد الفراش .. غافلين عن شكر رزق ساقه الله تعالى إليهم .. مؤثرين أن يبحثوا عن المتاعب .. التى سوف تهب عليهم من زوجة : أحبت بكل قلبها .. وتوشك اليوم أن تنتقم لنفسها .. بلا قلب .

□ ○ □

عندما تخطب الزوجة .. لزوجها!

قد تتنازل الزوجة عن حقها فى الطعام والشراب .. لكنها لا تقبل أن تقاسمها امرأة أخرى عواطف زوجها .

وقد تسمح لها فطرتها يوما أن تحصن زوجها على أن يتزوج عليها ..

لكنها - وإن حدث ذلك - هى التى تختار له .. ولا تتركه أبدا حتى يختار لنفسه ما يحلو له .

أى أنها ترضى نفسها أولا .. قبل أن يكون اقتراحها إرضاء لزوجها .

ولعلها كانت أول مبادرة فى التاريخ أن ترشح الزوجة لزوجها امرأة أخرى .. تشاركها عواطفه .

«قالت «أم حبيبة» - رضى الله عنها - لرسول الله - ﷺ - :

انكح أختى عزة .

قال رسول الله - ﷺ - :

«أتحبين ذلك؟» قالت : نعم . يا رسول الله فلست لك بمخيلة [1] . وأحق من شركنى فى خير : أختى .

قال رسول الله - ﷺ - :

«فإن ذلك لا يحل لى» .[2]

لقد كانت لأم حبيبة - رضى الله عنها - ضرات .. مؤمنات قانتات .

مغمورات بكرم رسول الله - ﷺ - .. فأرادت أن تكون لأختها عزة الشرف

---

(١) اسم فاعل من الإخلاء... أي: لست بمنفردة بك، ولا خالية من ضرة.

(٢) ابن ماجة كتاب النكاح (١٩٣٩).

العظيم بصحبة رسول الله - ﷺ -.. تعب من النعيم رزقاً حلالا ..

ولكن .. ما كل ما يتمنى المرؤ يدركه ..

لقد اصطدمت رغبتها بالشرع الحكيم .. والذى يحرم الجمع بين الأختين !

ولاحظ من حكمته - ﷺ - أنه لم يفاجئها بالرد القاطع ..

وإنما يسألها «أتحبين ذلك؟»

وهو سؤال يكشف عن غرابة الاقتراح .. من قبل زوجة تسمح لها نفسها أن تزاحمها فى بعلها زوجة أخرى ..

وكأنما يؤذن - ﷺ - فى الناس صدق «أم حبيبة» فى رغبتها.. وأنها لم تكن فقط للاستهلاك المحلى .. وإنما هى الرغبة . وعلى مستوى الحب .. تنويها بموقفها .. ثم هو لفت للأنظار . لكى تدرك حكمة الإسلام الذى أبقى على علاقة الأخوة هكذا .. تتنامى مع الأيام .. فرارا بها من الدمار .. الذى سوف تتعرض له .. لو اجتمعت الأخت مع أختها .. أو عمتها أو خالتها .. تحت رجل واحد :

إن علاقة القربى .. ووشيجة الدم .. كافية للترابط والتراحم .. ولذلك .. لم يعرضها الإسلام لهذا الامتحان العسير .. حين تصطدم الرغبات .. رغبات الأخوات.. فإذا البيت ساحة للقتال تأكل الأخضر واليابس .

ألا إن الرغبة فى تجديد الفراش قد تستبد بالإنسان يوما .. وقد يوسوس له شيطانه أن للزواج الجديد مذاقا متميزا .. ومشاعر مختلفة ..

ثم ماذا ؟

سوف يواجه بما لم يكن فى حساب :

إنها قصة .. قارورة النظافة والتى تسكب منها على الثوب فى «المغسلة» إرادة تنظيفه ..

ونعم ، سوف تنظف الثوب القديم .. ولكن بعد أن تقطع خيوطه !؟

وهكذا يتمازج الضرائر .

ونحن لا نحرم ما أحل الله .. ولكننا فقط .. ننبه إلى ما وراء النزوة الطارئة

من ويلات .. وخلافات .. حتى فى لحظات المداعبة .. بينما الزوج حاضر .. لا يملك إلا أن يبتسم .. لأن الموقف أكبر من الكلام :

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :

كان عندى رسول الله - ﷺ - وسودة بنت زمعة - رضى الله عنها- .

فصنعت «حريرة. جئت به «ربما كان ما نسميه : عصيدة».

فقلت لسودة : كلى .

فقالت : لا أحبه !

فقلت : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك!!

فقالت : ما أنا بذائقته .

فأخذت بيدى من الصفحة شيئا . فلطخت به وجهها . ورسول الله - ﷺ - جالس بينى وبينها .

فخنص لها رسول الله ركبتيه . لتستقيد منى .

فتناولت من الصفحة شيئا . فمسحت به وجهى .

وجعل رسول الله - ﷺ - يضحك .

وفى رواية :

كانت رجل له فى حجر واحدة . والأخرى فى حجر الأخرى . وإذا عمر يقول : يا عبد الله بن عمر . يا عبد الله بن عمر . فقال لنا - ﷺ - لما سمع صوت عمر : قوما فاغسلا وجوهكما .. فلا أحسب عمر إلا داخلا [1].

□ ○ □

(١) الهيثمي باب عشرة النساء.

نحو أسرة مستقرة .. مستمرة

لو كانت الزوجة مريضة .. أو مشاكسة .. لكانت فكرة الزواج من أخرى .. واردة ..

لكن الزوجة هنا : فتية .. ودودا .. ولودا ..

فلماذا الإصرار على الزواج بأخرى ؟

إن بعض الرجال يصعدون درجات السلم .. فإذا ما وصلوا إلى الدرجة العليا .. يزدرون الدرجات التى حملتهم إليها !

وقد يرغب فى زاهدة فيه .. فيذل نفسه ..

ويزهد فى راغبة فيه .. فيظلمها !

وعلى فرض أن الزوجة القديمة مريضة .. أو حتى عقيم .. فهناك زوجات سعد بهن أزواجهن مع فقرهن ومرضهن وعقمهن !

وتبقى الذكريات المشتركة .. والكفاح المشترك .. يبقى كل ذلك وقودا يدفع إلى أمام .. ومهما لقى الزوج من وجوه .. فزوجته أجمل .. وأكمل :

وذو الشوق القديم إذا تسلى

مشوق حين يلقى العاشقينا

وقد يتحول الرجل إلى «دكتاتور» يقول لك : صدق .. وإلا .. بدل أن يكون صديقا يقول لك : صدق .. أو لا تصدق ..

ولقد رأيت ذلك الذى انتزع من زوجته الوفية موافقتها على أن يتزوج عليها .. فكان جزاؤها أن سكن بالجديدة فوق سكن القديمة .. بالذات !

إنه «التحدى» ومحاولة بناء الذات على أنقاض الآخر .. ولو كان هنا الآخر زوجته .. وأم أولاده .. وصار الأمر على ما يقول الشاعر :

ولم أر ظلما مثل ظلم ينالنا

يساء إلينا .. ثم نؤمر بالشكر !

عاصفة الإنسان
وعاصفة الأكوان :

إن الزوجة الثانية . . والتى تبدو اليوم طفلة صغيرة وادعة . .

سوف تكون فى المستقبل شيئا آخر : ستكون زوجة أب يصفها واحد من الأدباء فيقول :

«فى البداية : كانت غرسة صغيرة

فلما مرت الأيام . واستقرت فى الأرض . ومدت فيها جذورها . صارت يابسة كجذع الدوحة .

وإن كانت تخدع الرائين بورقها الطرى . وزهرها الجميل .

ولكن الطبيعة تكذبها :

ألا ، وإن الطبيعة أكرم منها :

ذلك بأن العاصفة تمر بالحقل مرة فى الشهر . فتكسر الأغصان وتقصف الفروع .

ثم تجيء الأمطار : فتروى الأرض . . ثم تطلع الشمس فتنمى الغصن الذى انكسر . وتنبت معه غصنا جديدا .

وعاصفة الدار : تهب كل ساعة . فتكسر قلب اليتيم . .

اليتيم . . الذى ماتت أمه . ومات معها ضمير والده الغشوم . ثم لا تجبر الكسر أبدا .

فكأن عاصفة الحقل أرحم وأرق وأكثر إنسانية . من هذه المرأة التى يرونها جميلة تسبى القلوب . . وما هى إلا الحية فى لينها ونقشها ، وفى سمها ومكرها»

ولا نقصد بهذا الاستشهاد تعميم الحكم . . فكم من زوجات وفيات كن لأبناء

الزوج أما رءوما .. ولكننا فقط نذكر المتسرعين بالجانب السلبى .. لعلهم يتريثوا .. قبل أن يواجهوا بمثل هذا الموقف :

تزوج رجل امرأة تركية .. - وكانت له ضيعة هناك فى تركيا-

وكان طبعيا أن تغضب زوجته الشامية ..

ولكن .. لم يكن طبعيا تلك الخطة التى حبكتها للانتقام من زوجها ليظل لها أبدا .. فماذا فعلت ؟

أرسلت إلى صديق له . ليخبره أن زوجته التركية .. انتقلت إلى رحمة الله ..

ولم يكد يسمع «النبأ» الهام .. حتى تجهز للسفر .. للإشراف على دفنها .

وحينئذ تقدمت الزوجة الشامية لتكمل الخطة :

لقد أمسكت بعنان فرسه قائلة له :

أنت تسافر إلى تركيا كثيرا .. لقد علمت بأنك تزوجت .

وأقسم الرجل بالنفى .. فقالت له :

احلف أن كل زوجة لك غيرى طالق !!

ولما كان يعلم أن زوجته التركية قد ماتت .. فقد أقسم لها كما أرادت .

ثم كانت المفاجأة لما علم بأن زوجته التركية - ما زالت حية ترزق .. -

وأن زوجته الشامية : ما زالت "حية .. تسعى "!!

ونقول نحن : وهكذا : لما كان كيدهن عظيما .. فإنهن يضربن بشدة .. يضربن ضربا موجعا .. وإن لم يسل دما ولم يكسر عظما ، لكنه يكسر سلام النفوس ويذهب بحكمة الرءوس .

○ عندما يعبر الشعر ○

عن عذاب الشعور

يقولون : إن المعرفة القليلة شيء خطير :

فإما أن تشرب بعمق . . من النهر . . وإما أن تبتعد عنه .

وقد نرى بعض المتسرعين إلى تجديد الفراش . . تستحوذ عليهم أوهام من خداع النفس . . فينطلقون على غير هدى . . بلا أثارة من علم . . وبلا حصيلة من التجارب . . تكتمل بها عقولهم .

ألا وإن الألفة قد تميت فيهم الإحساس بجمال البيت . . تعمره زوجة وفية . . وأكباد تمشى على الأرض .

إنه ليوم «عقيم» لا يلد خيرا . . ذلك الذى ننقض فيه غزلنا . . وننفض فيه أيدينا من اليقين الذى جربناه . . مهرولين إلى أوهام أو أضغاث أحلام . . ثم تبدأ المتاعب التى لا ينجو منها فى البيت أحد .

وفى طليعة هذه المتاعب :

تآكل جهاز المناعة تحت مطارق الأحزان التى تحطم الأبدان . . وتعكر صفو النفوس . .

إن فكرة البحث عن زوجة ثانية بلامسوغ ضاغط . . شاهد صدق على رسوخ معنى الأنانية الباحثة عن المتعة . . ولو على أشلاء الضحايا !

وإنسانية الزوج - مع إيمانه- قاضية بضرورة قيمة التضحية ببعض ملذاتنا . . من أجل حياتنا . .

لقد قيل لرسول الله - ﷺ -:

إن فى نساء الأنصار جمالا . . فلم لا تتزوج منهن ؟

فقال :

إن فيهن غيرة شديدة .. وأنا عندى ضرائر .. ولا أريد أن أسوءهن !

إن قيمة الجمال أصيلة فى الفكر الإسلامى .. لكن جمال القيم أولى ..

والإحساس بمعنى التضحية ، أوقع فى النفس من تفردها بمتعة عابرة .. مخصومة من حساب الآخرين ..

إن السماحة بين الزوجين سهلة .. من حيث إن الطبع يعين عليها استجابة لغرائز :

الجنس

والأبوة والأمومة

والاجتماع .

أما فيما يتعلق بالضرائر .. فكل ما فى الطبع داع إلى التنافر ..

فلا حياة للضرة إلا فى غياب غريمتها ..

ومن ثم .. فالزواج الجديد مؤذن بحرب خفية .. تعقد فى سماء البيت سحبا من الهموم .. أو هو أمر عارض يمطر البيت بما لا تحمد عقباه :

ويروى فى ذلك أنه كان لرجل زوجتان ..

أما إحداهما .. فولدت بنتا .. وأما الأخرى .. فولدت غلاما .

وعندئذ بدأت المعركة بين الضرتين :

قالت أم الغلام تعير ضرتها :

الحمد لله الحميد العالى

أنقذنى العام من الجوالى

من كل شوهاء كشن بالى

لا تدفع الضيم عن العيال

والشن البالى : القربة البالية

ولم تكن أم البنت لتسكت على هذا الهجوم .. فردت لطمتها شعرا تغيظ به شانئتها :

وما على أن تكون جاريه تغسل رأسى . وتكون الغاليه
وترفع الساقط من خماريه حتى إذا مابلغت ثمانيه

أزرتها بنقبة يمانيه

أنكحتها مروان .. أو معاوية :
أصهار صدق .. ومهور غاليه
ولا يهمنا من التى انتصرت فى معركة التنافس هنا ..
لكن الذى يهمنا هو مشهد هذا الزوج .. زوج الاثنتين ..
حتى يعود إلى البيت ترهقه مكابدة الحياة ..
البيت الذى يراه مشحونا بالتوتر .. والقلق .. والتوجس ..
وكان الظن أن يكون جنة ونعيما ..
هذا الزوج الذى يقول بلسان حاله . إن لم يكن بمقاله :

تزوجت اثنتين لفرط جهلى وقد حاز البلا .. زوج اثنتين
فقلت: أعيش بينهما خروفا أنعم بين أكرم
نعجتين
فجاء الأمر عكس القصد دوما عذاب دائم .. ببليتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى نقار دائم فى الليلتين
رضا هذى : يهيج سخط هذى فلا أخلو من إحدى السخطتين !

❐ ● ❐

امتحان الرجولة

يقولون :

فى المآزق . . ينكشف الطبع .

وفى الفتن . . تظهر أصالة الرأى .

وفى المال . . تمتحن دعوى الورع .

وفى الحياة . . تنكشف معادن الرجال .

وفى الشدة . . يظهر معنى الأخوة .

وبنفس القوة نقول للفتى الراغب فى الزواج للمرة الثانية . . بينما بيته - لو شاء - جنة ذات قرار معين ، نقول له : أنت قادم على امتحان عسير :

إن«أم أولادك» كائن حى . .«وكل كائن حى - ولو كان جروا صغيرا- يتوهم أنه مركز الكون ومحور العالم» .

فإذا كان ذلك الكائن زوجة . . جميلة . . ولودا . . ودودا . . وفية . . فإنها سوف تضرب بشدة كل من يحاول أن يسرق منها الأضواء !

وتجارب الحياة تؤكد لنا :

أنه ليس بالقوة . . أو بالقدرة وحدها، يسعد الانسان . .

وإنما يسعد بدفء المشاعر فى قلوب المخلصين حوله . . وفى طليعتهم زوجة وفية . . وهى فى نفس الوقت : أم رءوم . .

وكما قيل : «إن الود جزء من الطبيعة الإنسانية: كالطعام. والشراب . والنوم.

وقد يرقب أحدنا ذات يوم شروق الشمس الجميل . . وهو وحيد . . فيقول لنفسه :

لا طعم لهذا الجمال . . لأنه لا أحد يشاركنى فيه»

وواقع الحال يؤكد أن زوج الاثنتين .. هو ذلك الذى يرى الجمال ، ولكنه لا يحس به !! بعد أن راحت السكرة .. وجاءت الفكرة !

وإذا كانوا يقولون : إن العاقل يعرف ما سيكون .. بما قد كان ..

فإن راغب تجديد الفراش أولى الناس بهذه التضيحة .. والتى تفرض عليه مراجعة نفسه قبل أن يتخذ القرار الصعب .. لتبدو له الصورة الكئيبة لمستقبله القريب .

فليس أقسى فى حس الإنسان من خسارة مَنْ توسلوا إلينا يوما مخلصين .. فرفضناهم .. ظانين أنها زوبعة فى فنجان ..

وأنها كانت نزوة حسبناها قطعة من الجليد سوف تذوب .. ثم تبين لها أنها الجزء البادى من جبل الجليد !

وقد تسفر التجربة الجديدة عن قمة المأساة .. حين نكتشف - وبعد فوات الأوان - أننا كنا مخدوعين : نحب من لا يحبنا .. ويحبنا .. من لا نريده !

ثم يكون أمرنا على ما قال الشاعر :

رب يوم بكيت منه .. فلما ... صرت فى غيره بكيت عليه

ولكن هل يجدى البكاء .. وأنت الجانى ؟

بكيت على ليلى .. وأنت قتلتها ! ∴ لقد ذهبت ليلى .. فما أنت فاعل؟

وهكذا لا نعرف قيمة النعمة إلا عندما نفقدها .. ونشعر بالفراغ الهائل بعد زوالها :

نقمت على عمرو.. فلما فقدته ∴ وجربت أقواما .. بكيت على عمرو!

وما أكثر الذين تسرعوا .. ثم تجرعوا .. تجرعوا الكأس المرة ..

ثم عادوا إلى العش القديم .. الذى فتح لهم أبوابه .. ليجدوا ما افتقدوا ..

لقد كانت العواطف بين جنباته هادئة .. لكنها مستمرة .. تسير ببطء .. لكن فى ثقة ..

لقد كان هناك «سوء فهم» مع الزوجة القديمة .. ثم صار مع «الجديدة» عنادا .

والفرق هائل . . بين المحاور . . والمجادل :

إن «المعاندون» متأكدون من صحة آرائهم . . فهم قليلا ما يرجعون . .

أما الآخرون . فهم فقط «يشكون» . . فهم كثيرا ما يرجعون . .

أما بعد :

فـإن القرارات الخطـيرة فى حـيـاتنا . . لا بدلهـا من تفكير عـمـيق . ونفس طويل . . قبل أن نسقط فى «وهم» أن غيرنا أسعد منا . .

وقد يؤلمك ضـرسك يوما . . فـتظن أن غيرك ممن لم يؤلمه ضـرسه أكـثر منك سعادة . . ولكن الواقع غير ذلك . .

وفى إمكانك أن تكون سعـيدا ، حتى ولو كنت مظلوما . . كـهذا الزوج الذى قال عن زوجته المشاكسة العابسة :

اللهم اقدرنى على من ظلمـنى . . حتى أجعل من عفـوى عنها . . شكرا لك . . على قدرتى عليها !

ولا بد للطرف الآخر من إيجابيات . . وإن طفا كيل السلبيات . .

فلا تركز على العـيوب . . وإلا كنت ذلك التاجر الذى يحـاول أن يتهرب من الضرائب . . فحاول تضخيم الخسائر !!

❑ ○ ❑

الحائرون

بين «اللامع» و «الساطع»

يقول الفتى -رب الأسرة المستقرة - والراغب فى تجديد الفراش مع زوجة ثانية:

الزواج . . حتى الرابعة . . حلال . . فلماذا تضيق واسعا ؟

لماذا تحرمه على ؟!

وقلت له :

إن القضية هنا ليست قضية تعدد الزوجات . . فما يجادل فى شرع الله أحد .

ولكنها قضية أمانينا التى نحاول تسويغها . . فنغطيها بالأعذار الواهية . . والتى نريد بها أن نسكت صراخ ضمائرنا . .

أو على الأقل : نشوش بها على أنفسنا حتى لا تسمع دوى هذا الصراخ .

إنها «ليلى» الأخيلية التى تطاردنا بشبحها . . ونوشك بالاستسلام أن نقع في شركها .

ورحم الله أيام زمان :

لقد كانت عاطفة الحب توضع فى نقطة الضوء . . وتحت المجهر . . ثلاث سنوات . . حتى نتبين صدقها . . ثم تستقر . . لتستمر . .

أما اليوم : فإنها تطير جفاء . . بعد دقائق معدودات . . ومع ذلك نحاول إقناع أنفسنا زورا بأننا جادون . . مخلصون . . سنيون

ويا سنة رسول الله : كم من الظلم يرتكب باسمك ؟!

ثم دعنى أسألك :

إذا كنت ترغب فى زوجة ثانية . . لأنها «حلال» . . فهل أنت تفعل كل حلال . . ولم يبق إلا هذه الثانية ؟!

ألا إن للحلال هنا وجها آخر وهو :

أن تنشئ جمعية تساعد العاجزين عن إتمام الزواج . لتحقق بكل زواج أمل اثنين : فتى . . وفتاة . . يوشك أن يفوتهما قطار الزواج .

وذلك خير . . أم أن تنوب أنت عن هذا المحروم فى تزوجها ليصير لك اثنتان . . ويظل هو محروم ؟

إنه لون من الأنانية التى تزين لصاحبها أنه «عصفور الكناريا» والذى لم يجد حتى الآن أليفة . . فحلق فى الجو بحثا عن النصف الضائع .

ولو حدث ذلك . . فماذا تنتظر ؟ :

لن تظل . . أم أولادك قانعة بحياتها . . مع رجل لم تتعود أن تغضبه . . ولكنها سوف تنفجر يوما . . ليطيح الانفجار بالصالح والطالح معا . .

إن مائة صديق . . شيء قليل . .

لكن عدوا واحدا . . شيء كثير . .

ولو كان هذا العدو هو الصاحب بالجنب . . فسوف يكون الانفجار أشد دويا .

وإذا كان الإشفاق على المعذبين فى الأرض هو الذى يحملك على أن تتزوج بعانس فاتها قطار الزواج . .

فهل ستتزوج هذه العانس فعلا . . أم هى أنفسنا تضحك علينا . . فنبحث عن الأجمل . . إرضاء لنزوة تنطلق . . ثم نحاول نحن سترها بثوب الرياء الذى يشف عما تحته ؟

وإذا كان إشفاقك على المعذبين من خلق الله يفسد عليك حياتك . . فلماذا لا تشفق على الفقراء الذين تراهم كل يوم فى حلك وترحالك . .

لماذا لا تشفق عليهم بإعطائهم نصيبهم من الزكاة أيضا؟ :

مثنى . . وثلاث ورباع ؟!!

لماذا تكرر السنة فيما يستجيب لمتعتك . . ثم تستدبرها فيما يكلفك . . ويمتع الآخرين ؟

إنك يا بنى . . . تبحث عن الأجمل !

وأطمئنك على جمال زوجتك التى معك :

إن جمالها لا يخرج من البيت . .

ونسبة الجمال التى تراجعت منها . . انتقلت لتضاف إلى أولادك . .

إلى أكبادك . . الذين يرون فى عين أمهم شيئا يقلقهم ، إن جمالها لم يخرج من البيت !

وما تراه من وراء الحكم الجديد ، إنما هو جمال الزهر فى سفح الجبل . .

أما زوجتك فهى الأعشاب الخضراء فى قمته . .

والنحل الذكى بما فضل أعشاب الجبل . . لأن فيها عناصر طبيعة تنقذ الحياة . . بينما الزهور فى السفح . . تعطيك عسلا . . حلوا . . لكنه لا تمنح الحياة !

واقرأ إن شئت قوله تعالى :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ﴾[1] .

فكان عسل نحل الجبل أتقى . . وأنقى . . وأبقى . . وإذا لم يكن فى الأعشاب رواء زهور الهضاب : إذا لم يكن فيها «لمعان» الدنيا . . فإن فيها «سطوع» الحق!

والحق أحق أن يتبع .

❑ ○ ❑

(١) النحل : (٦٨).

تبديد .. لا تجديد ..

يقولون :

إن عبد الرحمن الناصر . . حكم البلاد حكما راشدا مدة خمس سنين وثمانية أشهر . .

ولقد راق له يوما أن يحسب أيام سروره . . فما زادت على أسبوعين !

وصحيح أنه كان كادحا إلى ربه فى خدمة أمته كدحا . . ما ترك له أن يتذوق السرور إلا أياما معدودات . .

ولكن تكفيه متعة الملايين الذين أسعدهم من أبناء شعبه . .

وفى استطاعة الزوج الذى زحف الملل إلى قلبه يوما أن يسعد أسرته . . له فى طعم الكفاح بديل هو أشهى من كل نجاح . .

وقبل أن يقع فى وهم «التجديد» الذى هو فى الواقع «تبديد» نقول له :

إذا أردت أن تعرف مقامك من الله تعالى . . فانظر ما أقامك - سبحانه - فيه . .

ولقد أقامك مع زوجة تحبك . . وتحترمك . .

وهذا الحب وهذا الاحترام هما السالب والموجب فى دنيا الأضواء . . والوفاء . . والصفاء . .

ألا وإن الطلاء سيذهب يوما . . والنزوة الطارئة . . هذا الزبد ، سوف ينحسر . . ولا يبقى إلا الماء . . الذى يشفى الله به غلة الظماء .

إنه البيت «منزل» . . هو "نزل" الضيف الذى نعده لاستقباله . .

وأنت - وبعد خمس قرن من الزمان - تريد أن تطرد الضيف . . أو أن تبنى

بالأخرى على أم رأسها . . لتموت كل يوم مائة مرة . .

وأنت يا بنى طبيب جراح .

تعد غرفة العمليات . . ثم تجرى الجراحة سبيلا إلى حياة المريض . .

لكن القلب الوحيد . . قلب زوجتك هو الذى تهوى عليه لتدمره . . وتدمر به أولادك . . فلذات أكبادك . . إنك قاتل . . لكن لا تطولك يد القانون !

إن أجمل مكان فى الدنيا هو البيت . . فلماذا لا يظل كذلك ؟!

إنها امرأة . . فلتكن زوجة بحسن العشرة . .

ألا وإن الله تعالى ناظر إليك . . فلا تجعله - سبحانه . . أهون الناظرين

ماذا تريد من زوجتك ؟!

ونستعير الجواب من فم الأدباء الذين قالوا :

«ماذا تريد أن أفعل يا زوجى :

أهدل كالحمام . . لأرضيكم ؟

أم أزمجر كالأسد لأرضى نفسى ؟

لقد غنيت لكم . . فلم تطربوا .

ونحت أمامكم . . فلم تبكوا

فهل تريدون أن أترنم وأنوح . . فى وقت واحد ؟

إن خبز المعرفة أوفر من حجارة الأدوية . . ولكنكم لا تأكلون .

ونفوسكم تختلج عطشا . . ومناهل الحياة تجرى كالسواقى حول منازلكم . .

فلماذا لا تشربون ؟

للبحر مد وجزر .

وللقمر نقص وكمال .

وللزمن صيف وشتاء . .

أما الحق : فلا يحول . . ولا يزول . . ولا يتغير . .

فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق؟»

اسمع صوت رفيقة دربك التى أتخيلها تقول :

لقد سعد بى هو . . مرة واحدة . . يوم أن تزوجنى . . فوجد فى ضالته المنشودة . .

لكننى ما زلت أسعد به ثلاث مرات :

١- لما رأيته من عمله وخلقه .

٢- ولأننى كنت أتوقع ذلك .

٣- ولأننى أحتسب ذلك عند الله .

فلا تكن قرعان :

لقد كان قرعان قويا غشوما . . وجاءه صاحب الجمل الذى سرقه - وكان أضعف منه - فجبذه جبذة سقط فيها . .

فلما قيل له : والله كبرت يا قرعان . . قال :

لا . . ما كبرت . . ولكنه جبذنى جبذة محق !!

فليحذر الذين يخالفون عن أمر الحق . .

ليحذروا ضربة الأسد الجريح . . فإنها:

أشد وجعا !

❑ ● ❑

من رحمة الله بالزوجة :

ومن رحمة الله بالزوجة أن يكون هذا التحذير .. أو هذا النذير لتنتبه إلى واجبها حيال زوجها ..

ثم يعزز هذا النذير بما يثير فيها غيرتها على زوجها بما روى عن معاذ -رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

«لا تؤذى امرأة زوجها إلا قالت زوجته من الحور العين :

لا تؤذيه .. قاتلك الله !

فإنما هو عندك دخيل . يوشك أن يفارقك إلينا»(١)

ويعنى ذلك :

أن وراء الزوج دفاعاً قويا .. ينبغى الحذر منه .. فإن صبرت الزوجة .. وصابرت .. ملأت الدار بالخير .. وعاد كل ذلك إليها أمنا ورخاء وسلاما .

وإذا كنا نسمع من تشكو الوحدة لأنها مع زوج رديء ..

لا يستحق التكريم . فإنا نقول لها ما يقول المجربون :

اعط البقرة علفا .. تعطك لبنا ..

إنه قانون المعاوضة .. والذى فهمه آباؤنا .. فعملوا بمقتضاه .. فكان سعيهم مشكورا مبرورا ..

وهو نفسه القانون الذى كان يحكم علاقة الزوج بزوجه .. حين تعطى الزوجة أنبل ما عندها .. ليكون رد الفعل فى قلب الزوج حبا وتقديرا .. تصبر فيه علاقة الزوجين «ميثاقا غليظا» أو «عروة وثقى» لا تنال منها أحداث الزمان .. إلى الحد الذى تطول بين الزوجين المعاشرة الزوجية .. لكن الحياة تحت سقف البيت جديدة دائما .. فى حراسة الحب المتبادل .. والذى عبر عنه «امرؤ القيس» حين تغزل فى زوجته «أم جندب» معلنا حبه لها . بل ولهه بها .. كفاء ما قدمت يداها :

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

قال :

خليلى : مرابى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدهر .. تنفعنى لدى أم جندب
ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا .. وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها .. لا دميمة ولا ذات خلق إن تأملت جانب

سوية الخلقة والخلق

وأبو العتاهية . على ذات الطريق . يشبب .. لا بليلى .. ولا عزة .. ولكن بحليلته :

يقول :

من لقلب متيم مشتاق شفه شوقه وطول الفراق؟
طال شوقى إلى قعيدة بيتى ليت شعرى فهل لنا من تلاق ؟
هى حظى : قد اقتصرت عليها من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلا بك شملى عن قريب .. وفكنى من وثاقى

حول تعدد الزوجات

أحاول اليوم أن أتخطى الزمان . . عائدا إلى الماضى . . يوم أن سعدت بالجلوس طالب علم بين يدى أستاذى الموحوم الدكتور محمد الغمراوى ، وهأنذا أعتصر ذاكرتى فى محاولة للحصول على بعض قطرات من علمه . حول موضوع «تعدد الزوجات» وغيره مماله صلة بسلام البيت :

تمهيد :

القرآن الكريم يشرع للأغلبية . . ثم يبدأ يشرع للشواذ ، فمن الخطأ أن نحكم الثانية فى الأولى :

مثلا :

قول تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن ﴾[1] هذا قانون عام .

أما قوله تعالى ﴿ فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ﴾[2] فهذه حالات شاذة .

ولا حظ فى قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾[3] .

لقد أضاف البيت إلى ضميرها . وذلك من شأنه أن يجعل أحقيتها فى البيت عند الطلاق آكد من حقها حالة الزواج .

وفيما يتعلق «بالوعظ» و«الهجر» و «الضرب» و" الحكم من أهله أو أهلها " ثم «بقاؤها فى البيت» فلا تخرج إلا بشهادتين . .

وكل ذلك لا يجوز على إطلاقه :

---

(١) البقرة : (٢٢٨).

(٢) النساء : (٣٤).

(٣) الطلاق : (١).

فلا يجوز الضــرب . والوعظ . والهجر . . لا يجوز مع كل امـرأة لا تستأهل ذلك .

لأن هذا حكم للشواذ .

وليس قاعدة عامة .

بدليل قوله تعالى :

﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾[١].

فضرب المرأة إذن مغيا بالطاعة . . ولذلك يشتد الضرب لو لم تحدث الطاعة .

التعدد:

والأصل أن تكون الزوجـة واحـدة . . وتلـك هى القـاعـدة ، والتـعـدد هو الاستثناء.

والتعدد يقطع الأرحام . قال تعالى :

﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾[٢].

والتحذير من التعدد وارد من فحوى قصة يوسف - عليه السلام -:

لأن الفرقـة التى حدثت بين يوسف - عليـه السلام - وإخوته . كـانت بسبب التعدد.

ولكن التعدد مرتبط بكثره النساء بعد الحرب .

والحرب ضرورة . كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - فى سورة الحج :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾[٣] الآية .

أما قوله تعالى :

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٤].

فهو خطاب لمن تزوج . ولكن لم يوفق فى زواجه . . فتزوج ثانية .

---

(١) النساء : (٣٤). (٢) النساء : (١).

(٣) البقرة : (٢٥١). (٤) النساء : (١٢٩).

فقيل له . لن تستطيع تعدل بينهم . .

ولكن . . على قدر ما تستطيع . .

واليتم أيضا :

واليتم أيضا مشكلة من إفرازات الحروب . .

والمطلوب فيما يتعلق باليتم هو :

رعايته أخلاقيا .

ورعاية ماله أيضا .

والمطلوب من أولياء اليتامى : تربيتهم تربية صحيحة .

فإن خيف عدم تربيتهم . . والتقصير فى رعاية مصالحهم . وخاصة إذا كن إناثا . . فانكحوا اليتامى . . إذ يصبحن عندئذ مشكلة اجتماعية عامة . فليتحمل كل فرد من أفراد المجتمع نصيبه .

ويعنى ذلك : أن التعدد : ضرورة . .

ولأنه ضرورة . . فلا ينبغى أن يؤخذ على أنه قاعدة عامة .

ثم يقول تعالى :

﴿ انكحوا ما طاب لكم ﴾[1] .

ومعنى الطيب هنا أنه الزواج الذى لا يسبب قطيعة الرحم ، وجاء الأمر عاما هنا . . حتى لا يكون هناك ضغط على من لا يريد التزوج من اليتيمة . . فله حريته .

وقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[2]، يحمل الشباب الأعزب مسئولية أن يتزوج الشاب فى حالة الحرب . .

وذلك ﴿ أدنى ألا تعولوا ﴾[3] .

ولو فهم قوله تعالى «فواحدة» على منع التعدد . لكان معنى ذلك :

منع التعدد مطلقا . . وذلك ما لم يقل به أحد.

(١ ، ٢ ، ٣) النساء : (٣).

من مآثر زوجات النبي ﷺ

تزوج محمد - ﷺ - خديجة - رضى الله عنها - .. وهى التى اختارته .

وكان زواجا إسلاميا صرفا ..

وقدمت فى هذا الزواج رغبته - ﷺ - على رغبتها . حفاظا على حياء المرأة .

يقول الغمراوى ردا على من قال : إن من أسباب زواجه - صلى الله وعليه وسلم -

أن يتقوى ظهره بالقبائل ..

وحاشاه - ﷺ - أن يكون كذلك :

بدليل قوله تعالى :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (١).

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ (٢).

فالحفاظ عليه - ﷺ - مبلغا .. قويا .. مهيمنا .. أمر ثابت بنص الآيات الكريمة .. فكيف يقال بعد ذلك : إنه يطلب القوة فى : امرأة ؟!

ولوكان زواجه للتقوى .. لكان أحوج مايكون إلى ذلك فى العهد المكى .

وكل زواج فى المدينة . إنما هو تشريع . وقد تم العدد الأكمل فى تسع : منهن الصغيرة والكبيرة .

والتى كانت يهودية . ثم أسلمت ..

وكان من حكمة الله عزوجل أن يكون ذلك .. ليتم التبليغ بدقة وشمول ..

---

(١) المائدة : (٦٧).

(٢) التوبة : (٤٠).

وقد يقال :

إنه من الممكن أن تقوم العمة والخالة بذلك . .

لأنا نقول :

إن بين المرئ وزوجه أسرارا لا يطلع عليها إلا زوجته .

وخاصة : ما يتعلق بالجنس . . لا سيما، وهو يقضى فى البيت وقتا أطول . .

وإذن فالزوجة هى المرشحة لنقل هذه الدقائق دون غيرها من قريباته .

سـؤال :

وهنا سؤال يفرض نفسه :

كيف تبلغ المرأة . . مع أن التبليغ أقوى من الشهادة .

ولا تصح الشهادة إلا فى الضرورة القصوى .

«فرجل وامرأتان؟»

ولأن التبليغ بهـذه المثابة من الأهمية . . فـقد قضت حكمتـه - عزوجل - أن يصطفى من النسـاء . . زوجات قانتـات طاهرات معصـومات . قـادرات على البلاغ مؤتمنات عليه .

ودليل ذلك : مظاهرة النساء . . والتى حكتها سورة «التحريم»

فالله تعالى يقول :

﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** ﴾ [1] .

لكنه - سبحانه - لم يبدله . . فدل ذلك على أنه ليس هناك خير منهن . .

أما «ناقصات عقل ودين :

فإن نقص العقل يساوى : الأنوثة . . .

أما نقص الدين : فعليه تدور عمارة الكون :

فالحيض والنفاس . وإن حرمهن من عبادة لا تجوز فيهما . .

---

(١) التحريم : (٥).

فإنه فى الـوقت نفسه سـبب : ولادة . . تقدم للحـياة القـوة البشـرية اللازمة لعمارة هذه الكون . »

بين التفضيل والخيرية :

هناك فرق بين التفضيل والخيرية :

فأنا أفضل أن أكون كذا . . لكن الخير شيء آخر .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ اصطفاك وطهرك ﴾[١].

أما فيما يتعلق بأمة محمد - ﷺ - فيقول عز وجل :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[٢].

إن مريم البتول : صديقة . . كأبى بكر ، رضى الله عنه .

وامرأة فرعون : مثل للإيمان يلفت إليه الرجال والنساء جميعا.

أما بالنسبة لزوجاته - عليه السلام - فهم كما وصفهن ربهن :

﴿ لستن كأحد من النساء ﴾[٣].

و يعنى ذلك :

أن زوجـاته - ﷺ - جنس آخر : فهن فوق النساء جـميعا . مثل : «كنتم خير أمة . . . »

ولاحظ أن الحق تعالى يقول لمريم عليها السلام :

﴿ وطهرك واصطفاك ﴾[٤].

والتعبير هنا : بالماضى .

---

(١) آل عمران : (٤٢).

(٢) آل عمران : (١١٠).

(٣) الأحزاب : (٣٢).

(٤) آل عمران : (٤٢).

أما بالنسبة لزوجاته - ﷺ - فقد عبر بالفعل المضارع . وذلك قوله تعالى:
« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[١].
فقد جاء التعبير هنا : بالمضارع .

□ ○ □

(١) الأحزاب : (٣٣).

□ ○ □ من خصائص أمهات المؤمنين □ ○ □

بهذا . . نكون قد ختمنا تبسيط بعض أفكار المرحـوم الدكتور محمد الغمراوى . حول التعدد . وخصائص أمهات المؤمنين :

يقول تعالى :

﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾[1] .

يعنى : أمتعكن متعة عميقة شاملة .

ولم يقل - سبحانه وتعالى : وإن كنتن تردن محمدا . . أزوجكن . . مثلا . . ولكنه تعالى يذكره بوصف كونه رسولا . .

ولقد كانت عائشة - رضى الله عنها - صغيرة . . وقد يحملها صغرها على أن تنطق بكلمة . . فتطلق . .

ولكن الله سلم . .

فقد نجحن كلهن فى هـذا الامتحان العسير . . والذى كـان من عسره أن كانت الدنيا كلها متاحة لهن . . وفي هذا العرض السخى من الإغراء ما فيه . .

وبهذا النجاح . . أخذن لقب «أمهات المؤمنين»

وأصبحت عائشة . . أما لأبى بكر .

وأصبحت حفصة . . أما لعمر !!

جنس .. فوق الجنس :

وتأكد بذلـك أن زوجاته - ﷺ - : جنس فوق كل الأجـناس . . حتى من فضلهم الله تعالى على العالمين :

---

(١) الأحزاب : (٢٨).

فمريم البتول .. ستحاسب حساب الصديقين .. ومع كل الناس ، وطبق قوله وسنته تعالى :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (١).

أما نساء النبي ﷺ .. فلهن حساب آخر :

فالله تعالى يقول عنهن :

﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ﴾ (٢).

ومغزى ذلك :

أن العذاب ضعفان ..

والضعف مكرر المثل مرتين ..

فحساب الغير : عشرون .

أما بالنسبة لزوجاته - ﷺ - :

فيضرب في ٢ ليصير : ٤٠ !

وإذ يقول - تعالى - لمريم البتول :

﴿ يا مريم اقنتي ﴾ (٣).

فإنه يقول لهن :

﴿ واذكرن ما يتلى ﴾ (٤).

وهذا تبليغ .. ومنصب التبليغ أعلى .

(١) الأنعام : (١٦٠).

(٢) الأحزاب : (٣٠ ـ ٣١).

(٣) آل عمران : (٤٣).

(٤) الأحزاب : (٣٤).

وإذن : فأمهات المؤمنين مصطفين من الصديقات . .

أما قوله تعالى :

﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾[١] فهو تنزيه لهن على أوفى ما يكون التنزيه .

تميز خديجة رضى الله عنه :

وتأخذ خديجة - رضى الله عنها - لقب «زوجة» قبل الامتحان الآنف لأنها تحملت . . وبمفردها من الآلام ما يساوى تعب الكل .

بعـد الهـجرة :

﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾[٢].

وقد فرض الله تعالى عليهن : "وقرن فى بيوتكن "

وفرض لهن على الرجال : الحجاب ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾[٣].

ثم فرض على النبى بالنسبة لهن : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾[٤] .

ولقدكانت حياتهم جهادا موصولا :

فقبل الامتحان كان هناك صفات : ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات ﴾[٥]. ثم ومن بعده كانت هناك عشر صفات :

﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾[٦].

---

(١) الأحزاب : (٣٢).

(٢) الحديد : (١٠).

(٣) الأحزاب : (٥٣).

(٤) الأحزاب : (٥٢).

(٥) التحريم : (٥).

(٦) الأحزاب : (٣٥).

خصوصية عائشة :

طلب الرسول - ﷺ - يد عائشة . . فأرسلها أبوها بإناء من تمر . لتقول له عليه السلام : هذا ما عند أبى !!

ويمسك - ﷺ - بثوبها . وكان سنها ثمانى سنوات ، ولقد بكت حزنا . لأن أباها يرسلها إلى رجل يمسك بثوبها . .

ثم بكت بعد ذلك فرحا لما علمت بأمر الخطبة .

وهذه طبيعة البنت . . العربية . . المسلمة . . التى تعصمها عروبتها - وإسلامها . . معا . . من تقبل . . حتى لمسة الثوب . فكيف بمن تكشف لحمها اليوم للهرالجائع . . ورضى الله عن أمهات المؤمنين . .

لقد كان «حديث الإفك» حولها . . تمهيدا لكل امرأة تتعرض مستقبلا لمثل ماتعرضت له .

وكانت عفتها دليلا على الطريق . . لكل راغبة فى الخلق الوثيق .

◻ ○ ◻

ذلك الوفاء .. لاريب فيه

«هذا الموقف : رسالة إلى الزوجة التى كان زوجها غنيا فتيا ، فلما مرض اعتزلته . فأماتته قبل أن يموت»

قد يجمع الحب بين قلبين . . ثم يتوج فى النهاية بالزواج . . ولكن يبقى العقل فى شك من هذه العلاقة . . على نحو تضمر فيه قيمة الوفاء بين الزوجين . .

وعندما كان الفيلسوف الكبير يحتضر . . رغب إلى زوجته لتحضر إليه حتى يلقى عليها النظرة الأخيرة !

لكنها رفضت قائلة :

قد رآنى قبل ذلك مرات !!

أما فى الإسلام . . فإن «الود» يجمع بين القلبين : على ما يقول سبحانه : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [1].

هذا الود الذى يظل وقود العلاقة الزوجية . . يمدها بالقرار والاستمرار . . مهما تعقدت الأمور . .

بل إن الود ليزداد عمقا واتساعا . . كلما كان الخطر شديدا .

والأمواج عالية . وعندما يفقد الرفيق قدرته على العطاء :

وهذا واحد من المواقف الشاهدة بذلك .

قالت أم ذر رضى الله عنها : [2]

«لما حضرت أبا ذر الوفاة . . بكيت . فقال :

ما يبكيك ؟ قلت :

أبكى . أنه لابد لى من تكفينك . وليس لى ثوب من ثيابى ، يسعك كفنا .

---

(١) الروم : (٢٢). (٢) القصة فى : « أنساب الأشراف » و«نثر الدرر » و حلية الأولياء»

قال : فلا تبكى . . فإنى سمعت رسول الله - ﷺ .

يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين .

وليس من أولئك النفر رجل إلا وقد مات فى قرية . وجماعة من المسلمين .

وأنا الذى أموت بفلاة !

والله ما كذبت . ولا كذبت . فانظرى الطريق . فقلت :

أنى وقد انقطع الحجاج ؟!

فكانت تسند إلى كثب . تقوم عليه . ثم تنظر . .

ثم ترجع إليه فتمرضه . ثم ترجع إلى الكثب . فبينما هى كذلك . . إذ بنفر تخب بهم رواحلهم .

فألاحت بثوبها . فأقبلوا . حتى وقفوا عليها . . فقالوا :

مالك ؟ قالت : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا :

من هو ؟ قالت : أبو ذر !

ففدوه بآبائهم . . ثم هرعوا إليه . . حتى جاءوه .

فقال : أبشروا . فحدثهم ، وقال :

إنى سمعت رسول الله «وذكر الخبر»

إنه لو كان عندى ثوب يسعنى كفنا لى . أو لامرأتى . . لم أكفن إلا فى ثوب لى . أولها .

أنتم تستمعون إلى ؟

إنى أنشدكم الله والإسلام . . أن يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا .

فليس أحد من القوم إلا قارف بعض ماقال .

إلا فتى من الأنصار فقال:

ياعم : أنا أكفنك : لم أصب مماذكرت شيئا :

أكفنك فى ردائى هذا الذى علي . . وفى ثوبين في عبيتى .

من غزل أمى ، حاكتهما لى . قال أبو ذر :

أنت فكفنى .

فكفنه الأنصارى فى النفر الذين شهدوه . »

وعلى ما يحفل به الموقف من دروس . . لكننا نركز الأضواء على موقف الزوجة الوفية التي تحملت أعصابها هذا الموقف على ما فيه من ما فيه من رهبة . .

ثم ما يتجلى فيه من قيمة الوفاء يجمع الله به شمل الزوجين حتى إذا أدبرت الدنيا . . وراح كل شيء . . بقى الوفاء حارسا على الود القديم فلا يذهب أبدا . .

وإذا كان هناك من الأزواج من يترضى زوجته بإعداد كوب الشاى على نار الدراهم المشتعلة . . متجاهلا المحاويج من حوله . .

إذا كان فى الأزواج من هو كذلك . . فإن المودة التى صنعها الإيمان باقية حتى والرفيق يلفظ آخر أنفاسه . .

لقد كانت العلاقة الزوجية تمضى وراء العقل . .

ومن وراء العقل قلب يشد من أزره . . فعاش الوفاء . . فى لحظات يموت فيها الوفاء . .

لم تعش الزوجة بعقلها فقط . . لأن العقل كما قيل :

«فيلسوف أعمى . وحكيم معقد :

ينادى بصوت خافت ضعيف . . أما العاطفة فهى القوة وهى النشاط وهى الحياة . .

إنه الحب العاقل :

والذى لا ينحط حتى يتمرغ بين أقدام الحبيب . .

ولكنه حب مترفع . . ودود . . يبقى خلف الضلوع . . وفى ساعة العسرة ليلتقى بحبيبه غدا . . وفى روضات الجنات».

○ بالعمل نطرد الملل ○

قيل لأعرابى : ألك صديق ؟ قال : صديق . . فلا ! . ولكن نصف صديق !
فقيل له : هل تنتفع به ؟ فقال :
انتفاع العريان بالثوب البالى !
وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها . . فإننا نذكر هنا علاقة زوجية فى الإسلام . وكيف كان كل من الزوجين «لباسا» لصاحبه :
﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس ﴾ (١)
لباس : يستره . . ويحميه من تقلبات الزمان . .
ويبدو ذلك فى مستهل الحياة الزوجية كما يقرر البصراء :
فأجمل ما فى الدنيا فى نظر الزوج هو : الزوجة . . وهى كذلك ترى زوجها أجمل ما فى الحياة.
وتمضى الأيام . . ثم تتراكم المشكلات التى تحاول أن تسكت وجيب القلوب .
ولكن الطفل الأول يجيء . . ليجدد العواطف قبل أن تمزقها الأحداث . .
فإذا رحت تسأل عن أجمل ما فى الدنـيا . . ينسى الزوجان نفسيهما ليكون الجواب :
أجمل ما فى الدنيا هو ذلك الطفل . . الوافد الجديد . . الذى يجدد ما تعنى به ما بلى من الحب . . أو كما قالوا !
ولكن الطفل يشب عن الطوق . . ويكبر همه . . مع كبر سنه . .
وإذن فلم يعد هو أجمل شيء فى الدنيا . .
لكن الأجمل والأكمل حقا هو : أن يتعاون الزوجان على البر والتقوى

(١) البقرة : ١٨٧ .

متجاوزين هموم العيش .. والله تعالى من ورائهما :

«فمن اتقى الله وقاه . ومن اتكل عليه كفاه .

ومن شكر له زاده . ومن اقترضه جزاه»

وفى غياب التقوى .. تتفاقم المشكلات .. التى تسمم منابع الفكر بالشبهات .. وتعكر صفو القلوب .. بالشهوات ..

وقد تحتوى البيت أمواج من الملل تجعله قبرا لا بيتا ..

وهذا ما حدث بالفعل .. هناك .. فى بلاد لا تدين بالإسلام : حين يقول الزوج الملول هناك .. يقول لزوجته :

يا زوجتى :

أخرجينى من إناء الصمغ ..

أوقفى جهاز التبريد !

افتحى النوافذ للشمس .. لعل بذور الحب القديم أن تحيا من جديد .. قبل أن يأكلها العفن ..

حطمى «الأسمنت» المسلح ..

أذيبى الثلج .. حطمى أوانى الزهور الصناعية .. وشمس زهور الطبيعة الفيحاء !

أما فى الإسلام .. فإن الحياة الزوجية لا تعرف الملل .. ويظل الجمال فيها يتنامى .. بين الزوجين .. متجاوزان ما يتنافس فيه المتنافسون على حطام الدنيا ..

وصار الأمر على ما يقول سليمان بن عبد الملك :

«لقد أكلت الطعام .. حتى ما أبالى : أأكلت حلوا .. أم حامضا؟ .. وأتيت النساء .. حتى ما أبالى : أأتيت امرأة .. أم جدارا؟ .. ولم يبق لى فى اللذات إلا الحديث الحسن»

وهل هناك حديث أشهى وأنقى من حديث زوجين يجمعهما هدف مشترك .. وتدفعهما إليه دوافع نبيلة .. فى حياة خصبة غنية بالصالحات؟ .. فلا تعرف الملل

وتعشق الجمال سبيلا إلى الكمال :

ونختار اليوم هذا الحوار بين زوجين . . نقدمه شاهدا على أن الظفر بذات الدين هو الأبقى :

فى خلافة عثمان - رضى الله عنه - . فتح المسلمون بلاد القوقاز . . وكان القائد العام لجيوش المسلمين فى هذه الجبهة هو : المجاهد «حبيب بن سلمة الفهرى» . الذى كان يحارب تحت لوائه أمثال : عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما .

وكانت زوجة القائد «أم عبدالله بنت يزيد» تشاركه فى جهاده . ولما قصده القائد الرومى بثمانين ألفا . . أراد «حبيب» أن يباغته فى مقر قيادته . .

وفى ساعة العسرة هذه . . أحست زوجته بخطورة ما يفكر فيه . فقالت له : أين موعدك ؟! فقال :

سرادق القائد الرومى . . أو الجنة .

فلما اقتحم معسكر العدو . . وبلغ سرادق القائد . . كانت المفاجأة : لقد وجد زوجته المؤمنة . . قد سبقته إلى هناك !!

ويا لها من لحظة فى حياة زوجين : تعلقت همتهما معا بالثريا . . فأين منها الثرى ؟!

لقد ظفر القائد «حبيب» بعدوه حقا . . لكن ظفره الحقيقى كان بذات الدين . . التى تصبح اليوم تاجا يزين الجبين .

□ ● □

□ ○ □ نرضى بحكمه لثقتنا بحكمته □ ○ □

تتعامل الأسرة مع البنت بقانون : الرحمة فوق العدل . .

بل إن «عين الرضا» عن كل عيب كليلة . . هناك فى بيت أبيها . . فإذا انتقلت إلى بيت الزوجية : تغير كل شيء :

إن أفراد أسـرة الزوج . . بل والزوج نفسـه . . لا يعاملـونها بهذا الـقانون . . حتى ولو أنجبت الولد الذى تظن أنها بإنجابه . . أتت بما لـم تستطعه الأوائل !

وإنما القانون هو :

العدل . . فوق الرحمة !

وعندئذ يبـدأ التغيـير فى نظرتهـا إلى الناس والأحداث . . عن طريق مـحاولة التكيف مع الأوضـاع الجـديدة . . وإذا كانت بـالأمس فى بيت أبيـها صـغيرة لهـا «رغبات» تتحقق . . قبل أن تطلبها . .

فإنها اليوم كبيرة لها «أهداف» نبيلة . . ينبغى أن تعمل على تحقيقها من أجل : الزوج . . والولد . . والمستقبل الواعد .

إنه من السهل على الإنسان أن يحب البشر جـميعا . . ولكن الصعب أن يحب واحدا . . فقط . .

فإذا كان هذا الواحـد هو الزوج . . فقد بدأت الأسرة تأخـذ سمتهـا إلى مرفأ السعادة .

لقد كان تدليل الوالدين لها من قبل . . كان متوافقا مع طبائع الأشياء . .

أما اليوم . وهى تأخـذ مكانها فى البيت الجديد . . فـإن الدلال يخالف طبائع الأشياء . ومن أجل ذلك . . فإنه أبدا لا يدوم.

وإذا مارست هذا الدلال أيامـا . . فسوف يعلن الطرف الآخر يومـا عن رفضه . . فيما يشبه السيل يندفع . . أو النار تندلع .

وقد يكون التوفيق حليف الزوجين حين يعرفان ذلك . . ولكن القذيفة تأتى من زوجة الجار !!

وكيف ؟

لقد رزقت ذكرا . . بينما «رزئت» هى . . بالأنثى ؟!

لقد كانت بالأمس القريب فى بيت أبيها . . وما أكثر من رزقن بالذكور . . فما تعقدت عندها الأمور !

بل ربما قاسمت أم «الذكر» فرحتها !

أما اليوم :

فإن المرزوقة ذكرا هى : جارتها . . «ضرتها» غير الشرعية !!

وإذن . . فهى طرف فى القضية . . والمقارنة بينها وبين جارتها - فى حس الزوج على الأقل - لن تكون لصالحها ؟!

وكان عليها أن تفهم قوله تعالى :

﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾(١)

وكأنما يقول الخالق للمخلوق :

إذا كنت تضع الأنثى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى . . فإن خالقك وخالقها . . يضعها فى المقدمة . . فى ذروة سنامه . . وما رفع الله . . لا يضعه إنسان.

ويتقدم العقلاء ليقولوا لها . . فى ضوء الآية الكريمة :

«إذا كان الرجل رمز القوة . . فإن المرأة هى رمز الجمال . وكما أن للقوة جمالها . . فإن للجمال قوته.

وهى قوة غلابة . . تتداعى أمامها قوة الرجل».

كتب «الثعالبى» إلى صديق له رزقه الله بمولودة كان يريدها ذكرا : قال :

---

(١) الشورى : ٤٩.

والدنيا مؤنثة : والناس يخدمونها ويتعلقون بها.

والأرض مؤنثة : ومنها خلقت البرية.

والسماء مؤنثة : وقد زينت بالكواكب . وحليت بالنجوم الثواقب.

والنفـس مؤنثة : وهى قوام الأبدان.

والحـياة مؤنثة : ولولاها لم تتصرف الأجسام . ولا تحرك الأنام.

والجنـة مؤنثة : وبها وعد المتقون . وفيها يتنعم المرسلون.

ثم ختم الثعالبى رسالته بقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

ومن طريف ما يروى هنا :

أن امرأة تبرمت بإنجاب البنات . ثم بثت الشيخ الشعراوى حزنها قائلة : أريد ولدا .

فقال لها مازحا : لقد رزقت الولد «لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى»

ثم واصل حديثه معها بجدية قائلا :

رجال بناتك يأتونك طائعين . . أما الذكور ، لو كان لك ذكورا فتأخذهن زوجاتهم منك ! . . فارضى بقضاء الله :

ومن رضى بقدر الله . . أعطاه الله على قدره !

ألا ما أقل الثمن . . ثم ما أعظم الجزاء !

عندما نصنع المشكلات ثم نشكو منها

من قوانين الحياة الزوجية :

أن يكون الزوج حاكما . . فى عدل . .

وأن تكون الزوجة مطيعة له . . فى احترام . .

ولكن بعض الأزواج يتصرف مع زوجته على أنها خلقت من الرجل . . فهى نهمة به . . من أجل ذلك يستغل تعلقها به فطرة . . فيحاول أن يستغلها .

وقد يصل الاستغلال إلى حد الإذلال . . وذلك فى مثل ما قال العقاد :

زرقة عينيك .. لا صفاء — فيها .. ولكنه اشتهاء

قوامك الرمح .. لا اعتدال — فيه .. ولكن اعتداء

يا حيرة القلب في هواه — يا غاية العمر فى مناه

وجهك : سبحان من جلاه — ولوث النفس بالطلاء !!

وعندئذ تتحرك النسمة العليلة البليلة . . لتكون إعصارا . . وتبدأ الثقة تتسرب من قلبين كانا بالأمس حبيبين !

كل واحد من الزوجين يعلن أنه لم يحسن اختيار صاحبه !

ثم تكون المقارنة قاسية من قبل الزوجة . . التى تنظر إلى جارتها فتراها أحسن منها حالا ومآلا :

وعلى حد تعبير أديب ساخر :

«ترى نفسها أتعس زوجة فى الوجود».

وأن حظها الأسود هو الذى ألقى بها بين أحضانه لتكون عند رجليه : كرة يلقى بها خارج الملعب . . أو فى شبكة الغم والمرض.

أى : أن السعادة عند الجيران .. والتعاسة عندنا ..

.. والحقيقة هنا :

أن هذا الوهم له انتشار المرض .. وهو الهـواء الفاسد فى كل بيت . وفى كل علاقة.

فالشيء الحقيقى هو ما أنت فيه :

فكل الناس مـثلك .. وكل الزوجـات مثل زوجـتك ، وأن العقل والواقـعيـة والمرونة تحتم عليك أن تساير . وأن تتوافق .. وأن تمضى فى حياتك»

وقد حاول أزواج أن يتكيفوا .. قبل أن تنتقل المعركة من بيت الجيران إلى بيت الزوجية ..

ومن بين اللائى تكيفن .. تلك الزوجة التى قالت[٩] :

لقد أسـاء إلى زوجى فعـلا .. لكن إساءتـه من جهة عـقله .. لا من جـهة قلبه!!

إنه قصور فى الفهم .. وليس قصورا فى العاطفة ..

وبهذا المنطق الذكى امتدت جسور المودة من جديد ..

وكان الزوج على ما قيل :

ويبيت بين جوانحي حب لها   لو كان تحت فـراشهـا لأقلها
ولعمرها لو كان حـبي فوقها   يوما وقد ضحيت إذن لأقلها

إنه الحب الذى يتنامى ولا يتورم ..

ولكن تناميه لا يأتى من فراغ .. وإنما بمزيج من :

١- تفاؤل معتدل.

٢- الخوف .. ولكن بقدر قليل.

٣- ثم واقعية كافية للتمييز بين :

مايمكن أن نتحكم فيه . . وما لا نستطيع . . لنكون بعد ذلك أكثر ودا .

وإذا كنا قد جئنا للبيت بطباع الماضى . . فلنكن مهندسين للمستقبل . . الذى بدا فى صورة لنا .

•

٤- ترى الزوجة . . ويرى الزوج فى الآخر ما لا يرونه فى أنفسهم . . وإذن ففتح باب المقارنة ينتهى بنا إلى ما لا يسرنا !

٥- بعض الزوجات يلقين بالزوج فى الماء مكتوفا . . ثم يقلن له :

إياك . . إياك أن تبتل بالماء .

وكيف ؟

لقد نهى الإسلام الزوجة أن تصف لزوجها امرأة أخرى . . حتى لا يتخيل الأجنبية جنية ساحرة !

ولكن بعض الزوجات يصفن زميلاتهن فى الديوان :

يصفهن : وبدقة . . ثم لا يركزن على ذوات الكمال . . مثلما يصفن ربات الجمال ! . . ثم تكون النتيجة : محاولة المقارنة بين ما نملك . . وما لا نملك !! . . وكلنا فى الوهم شرق !

ويا لروعة الإسلام الذى يجدد بآدابه ما أبلت الألفة من نسيج عواطفنا : هذه الآداب التى تناسيناها . . فذقنا وبال أمرنا . .

لقد نصح الزوج :

ألا يرى زوجته : نائمة . . ولا فى ثياب تبذلها . . وأعمالها . .

ولكننا تجاهلنا آداب الإسلام . فوكلنا الله إلى أنفسنا ، فكان أن صنعنا المشكلات . . ثم رحنا نشكو منها !!

▫ • ▫ بين الحب والاحترام ▫ • ▫

كانت القرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . . وذات يوم يؤذن عمدتها فى أهلها : أن هناك أزمة فى «العسل» . وعلى كل فرد أن يصعد إلى قمة الجبل فى المساء . ليضع فنجانا من عسله فى الحوض الكبير هناك . ليكون رصيدا يواجهون به الأزمة الطارئة .

وعندما أتى المساء خرج الناس وحدانا . . كل يحمل فنجانه المملوء ليصبه فى الحوض الكبير .

وانتهزها النفعيون فرصة أكدوا فيها للعمدة أن قبضته الشديدة على القرية آتت أكلها . . بدليل أنهم جميعا ذهبوا إلى الحوض . .

إن أهل القرية جميعا رهن إشارته .

وفى صباح اليوم التالى يخرج العمدة فى كوكبة من حاشيته ليسعد بما يراه . .

وعندما وقف على حافة الحوض الكبير . . حدثت المفاجأة : لقد رأى وجهه فى الحوض الكبير . . ويعنى ذلك أنه كان ضحية خديعة كبرى . . عندما نفذ الناس أمره شكلا . . لا موضوعا . . عندما حملوا معهم ماء . . لا عسلا !!

وعندئذ يتقدم المخلصون ليقولوا له :

لم يخدعك الناس . . ولكن نفسك هى التى خدعتك . . حينما لم تغرس فى قلوب الناس بذور حبك . . وحاولت أن تفرض عليهم احترامك . .

ولقد احترموك فعلا . . لكنهم خالفوك . .

ولو أحبوك . . لأطاعوك !!

ذكرت هذه القصة لهذا الزوج المتسلط . . والذى بدأ تسلطه من ليلة زفافه عندما اصطحب معه «العصا» . . لينشئ بها فى وجدان عروسه هيبته . . حتى تظل كذلك خائفة منه . . حريصة على رضاه . . ليبقى وحده على مسرح البيت

كالطاووس يختال عجبا !!

فالآمر الناهى . . هو . . وحده . .

أما الزوجة فـهى تابع أمين : يحمل الإبريق فى ذلة وخضـوع لتصب الماء على يديه !

إنها فقط مسئولة عن نظافة البيت . . لا عن ثمنه !

مسئولة عن إعـداد القهوة . . لا عن مدى إضرارها بصحة العـائل . . وميزانية البيت.

مسئولة عن نظافة الحذاء . . لا عن مقدار ثمنه !؟

إنها ظل لهذا الجدار الصامت : الزوج !

والإســـلام الحكيم يرفض هـذا النشـــاز فى لحن الكون الذى يـجب أن يكون متناسقا.

لأنه فضــلا عن كونه حـرمانا للزوجـة من حقهـا فى السعـادة . . يكون كبـتا لغرائزها وحجرا على فكرها :

لقد جـاءت إلى بيت زوجهـا وفى كيانهـا «براعم» تريد أن تتفـتح لينعم الزوج بثمرها وظلها . .

لكن القسوة الهاجمة جمدت هذه البراعم . . فلم تتفتح . . فإذا جاءت الذرية . . لا تتفتح أيضا فى هذا الجو الخانق الذى يجعل البيت خرابا . .

والنتيجة المتوقعة هى :

أن الزوجة سوف تحاول التعبير عن مكنون نفسها ولو بطريقة غير شرعية . . أو يكون الانفجار الذى يبيد خضراء البيت . .

وقد تظل مع هـذا «تحترم» زوجـها خوفـا منه . . لكنها أبدا لن تحـبه مـتوددة إليه . .

وسوف يذهب يومـا إلى قمـة الجبل ليرى الحـوض وقد امتـلأ . . ماء . . لا عسلا!

لقـد كان من سنتـه - ﷺ - أن يفتح البـراعم فى قلوب الصغـار .. حتى يتحول المجتمع بهم حديقة غناء.

وها هو ذا - ﷺ - يداعب أبا عمير قائلاً :

يا أبا عمير .. ما فعل النغير ؟

ما فعل طائرك الأثير لديك ؟..

وإنها لدعابة تختزل المسافة بين الأجيال .. لتتواصل هذه الأجيال ..

وهو درس لبعض أزواج يجـعلون من تقطيب الجبين .. مقيـاس الرجولة . أو الفحولة !

وما أجمل ما قاله الأدباء :

«إن الجهـامة غـير الحزن .. الحـزن جميل يـستشف .. أمـا الكآبة والجهـامة والعبوس : فحالات نفسية . متوترة . متشائمة : تقبض الصدر .. وتغتال المشاعر.

ولو كان فى وسـعى لافتتـحت «بقالة» خاصة ببـيع الابتسام .. بالمجـان» وما أصدق ما قيل :

قال : السماء كئيبة .. وتجهما ∴ قلت : ابتسم .. يكفى التجهم فى السما !!

نحو «تطبيع» العلاقة بين الرجل والمرأة

من بين ما ترويه الأساطير :

أن الإله «بروميثوس» تجرأ وسرق سر المعـرفة على حين غفلة من «زيوس» كبير الآلهة ؟!

وعلى غير ما يشتهى كبير الآلهة . يبوح السارق بهذا السر للإنسان .

ويفقد كبير الآلهة صوابه ! . . حين يجد سر المعرفة فى متناول الإنسان الجاهل . . والذى يصبح مثله عالما بالأسرار !

من أجل ذلك :

يوقع كبير الآلهـة بمن أذاع السر أقسى العقاب . . ثم يتعـقب غريمه الجديد . . وهو «الإنسان» بالويل والثبور . وعظائم الأمـور . . فيرسل إليه «باندورا» كأول أنثى تدب على الأرض . . ومعها صندوق سحرى يحتوى على بذر الشر فى هذا العالم!

وهكذا صارت المرأة فى تصور الناس كائنا شريرا . . ساقته الأقدار لتكون سوط عذاب يلهب ظهور البشر . .

وتبدو المرأة من خلال هذه الأسطورة إعـصارا مدمدما ينسف العـمران . ويدمر الإنسان .

وعن هذا التصـور السقيم نشأت فكرة العـداوة بين الرجل والمرأة . . وما ترتب على ذلك من كراهية شديدة لها . . هذه الكراهية التى عـبر عنها كاتب فرنسى بقوله فى إحدى رواياته على لسان أحد أبطالها :

«ولكنه كان يكره المرأة . . يكرهها من وراء وعيـه . ويحتقرها بمحض غريزته . وكان كثيرا ما يردد قول المسيح :

أيتها المرأة : «هل بينى وبينك شركة؟»

ثم يعقب بقوله :

كان الإله نفسه ساخطا على هذا المخلوق :

إنها التى أغرت الإنسان الأول ولا تزال تواصل عملها فى بنيه.

وهى الكائن الضعيف الذى يكدر صفو هذا العالم.

وتذكرنا الأسطورة وما ترتب عليها بواحد من صناع الأوهام هو : أشعب .. والذى تعقبه صبيان الحى فأراد أن يصرفهم عنه بإخبارهم أن هناك وليمة على مشارف القرية ..

فلما أسرع الصبيان إلى حيث أملهم .. قال لنفسه :

ولم لا تكون هناك وليمة فعلا .. فمضى خلف الغلمان مسرعا .. إلى .. لا شيء!

ولقد كان المتوقع أن تظل الأسطورة تعمل عملها هناك بين قوم لا يؤمنون ..

ولكنها انتقلت إلى مجتمعاتنا بالعدوى .. فسمعنا من يقول :

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

بيد أن الإسلام يصحح هذا المعنى الخاطئ ..

فالمرأة لم تكن أبدا وراء النكسات .. ولا صانعة لها .. إنها ريحانة .. لاشيطانة :

إن النساء رياحين خلقن لنا ... وكلنا يشتهي شم الرياحين

وقد كانت آيات القرآن الكريم وراء حملة التصحيح هذه فى مثل قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [١] .

---

(١) البقرة : ٣٥ - ٣٦.

إن ها هنا مجموعة من الأوامر تتجه إلى الرجل والمرأة معا :

أ- اسكن أنت وزوجك الجنة.

ب- كلا منها رغدا . .

جـ- اهبطوا بعضكم لبعض عدو .

ثم هذا النهى المتجه إليهما معا :

﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾

فماذا حدث ؟

الذى حدث أن الشيطان هو الذى ضحك عليهما . . معا . . «فأزلهما» ولم تكن المرأة شريكا فى المؤامرة وليس موقف الرجل هنا بأفضل من موقف المرأة . . بل الكل سواء. أمام عدد مشترك هو : الشيطان الرجيم . بل إن الوسوسة وصلت إلى الرجل ابتداء . . ومنه انتقلت إلى المرأة . . كما يشير قوله تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾ [١].

أما بعد : فليس هناك شيطان . . إلا الشيطان نفسه . . والذى يريد صرف الأنظار عن مكره بالبيت . . بافتعال معركة وهمية بين الرجل والمرأة فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله

﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** ﴾ [٢].

❏ ● ❏

(١) طه : (١٢٠).

(٢) الأعراف : (٢٧).

□ ○ □ المرأة بين نظرتين □ ○ □

يقول العقاد:

«مقاييس التقدم كثيرة. يقع فيها الاختلاف والاختلال: فإذا قسنا التقدم بالسعادة . . فقد تتاح السعادة للحقير. ويحرمها العظيم.

وإذا قسناه بالغنى . . فقد يغنى الجاهل . ويحرم العالم.

وإذا قسناه بالعلم . . فقد تعلم الأمم الشائخة . وتجهل الأمم القوية.

ولكن المقياس الوحيد هو:

مقياس المسئولية . واحتمال التبعة. قال تعالى :

﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [1] أ.هـ

إن إحساس المرء بمسئوليته نابع من إحساسه بوجوده . . وأنه بين الأحياء شيء مذكور: يتأثر بالحياة . ويؤثر فيها. . إنك لا تكلف مجنونا بأمر ما . . ولكنك ترسل حكيما ولا توصيه. .

والحكيم المرجو لإنجاز أمرك سعيد بهذه المسئولية. . ولقد يضايقك طفلك الصغير يوما . . وتريد أن ينفض عنك . . دون جدوى . .

لكنك إذا التقطت شيئا ما . . ولو كان تافها . . ثم قلت له :

أعط هذا لأمك . . فإنه يخف لتنفيذ الأمر . .

إنه الإحساس بالمسئولية . . أي : الإحساس بالذات.

وبهذا المقياس كانت المرأة هناك غير سعيدة . . لأنها كانت في فترة من زمان غير مسئولة.

لقد تخيلوها تحمل صندوق الشرور . . ثم تمارس هوايتها في التدمير . . وإذن

---

(١) النجم : ٣٨.

.. فلا سعادة هناك .. ولا يحزنون !

وكان لهذا التصور المنحرف إفرازاته ، ومنها : فقدان الثقة بالمرأة على مدى أجيال طوال ..

فكونها مصدر الشرور يجعل الخطيئة فى حياتها هى الأصل .. الذى لا تسأل عنه .. كيف وهى تبذل فطرة الشر فيها :

إذا عذرت حسناء .. وفت عهودها ∴ فمن عهدها : ألا يكون لها عهد!

أما فى الإسلام :

فالنساء شقائق الرجال .. وهما معا فى خندق واحد يعمران هذه الحياة :

﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ [(١)].

وإذن : فالمرأة مسئولة مع الرجل .. ولها مما تعمل نصيب ..

إن لها عقلا .. وإرادة :

عقلا : يفهم ويوازن

وإرادة تنفذ ما يشير به العقل ..

وصحيح أنها خالفت .. فأكلت من الشجرة . ولم تتحكم فى إرادتها ،ولكن الإرادة موجودة فعلا .. لكنها غفت يوما .. وسقط منها سلاحها .. ثم صحا النائم يوما على دقات الواقع المر .. ثم واصل السير إلى ما قدر له من مصير.

مسئولية الزوج :

ويتحمل الزوج مسئولية وضع الزوجة فى موضعها اللائق بها «والمجتمع كذلك» :

إن الله تعالى يقول :

﴿ **فلا جناح عليكم في ما فعلن** ﴾ [(٢)] .

---

(١) النساء : ٣٢.

(٢) البقرة : ٢٤٠ .

لم يقل سبحانه فلا جناح عليهن . .

وإذن . . فالزوجة حيث وضعها زوجها :

قال الشاعر الكبير لصديقه :

قل كل ما أثاره فيك جمال زوجتى ؟!

إنه يعرض اللحم الطرى للهر الجائع . . فلا غيرة هناك . . ولا غيارى . .

أما فى الإسلام : فقد كانت حماية العرض قضية الحياة كلها :

فقد روى أن «موسى بن إسحاق» قاضى الرى والأهواز . جلس يوما فاصل ينظر فى قضايا الناس.

وكان بين المتقاضين سيدة . ادعت على زوجها أن عليه خمسائة دينار مهرا.

فأنكر الزوج أن لها فى ذمته شيئا.

فقال له القاضى :

هات شهودك . فقال قد أحضرتهم.

فاستدعى القاضى أحدهم ، وقال له :

انظر إلى الزوجة لتشير إليها فى شهادتك . فقام الشاهد وقال للزوجة: قومى!!

فقال الزوج : ماذا تريدون منها ؟ فقيل له : لابد أن ينظر الشاهد إلى امرأتك . . وهى مسفرة . . لتصح معرفته بها !!

فصاح الزوج : أشهد القاضى أن دعوى زوجتى صحيحة . . ولا تسفر عن وجهها أبدا . . وأكبرت الزوجة فى زوجها غيرته . . ثم تنازلت عن دعواها . . وهكذا يظل العرض مصونا . . وتظل المرأة به شخصية لها كيانها وباسم الإسلام والعروبة لن يفرط فى عرضه إنسان ، وإذا كان . . فلا مكانة له عندنا . . ولا حتى مكان !

« أ »

الطريق إلى قلب الزوجة

قال - ﷺ - لعائشة - رضى الله عنها - :

«إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى

قالت :

وكيف يا رسول الله ؟ قال :

إذا كنت عنى راضية .. فإنك تقولين : لا ورب محمد.

وإذا كنت على غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .

قالت :

أجل .. والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك» [١].

من عوامل سعادة الأسرة : ذهاب الكلفة .. لتصبح العلاقة بين الزوجين ألفة.

ألفة : تضيق بها المسافة بينهما .. بل لا تكون مسافة بالمرة .. حتى يصيرا كيانا واحدا .. يقول أحدهما للآخر : يا أنا !

وقد يحدث بين الزوجين خصام .. «وهو تجميد العلاقة زمنا» وذلك هو الغضب النبيل الذى لا يصعد الخصام ليكون قطيعة أو هجرانا.

والخصام : مثل السحاب .. قد يواكبه رعد وبرق وأمطار .. ولكن الزوج الحكيم يتدخل .. وقبل أن يحس الطرف الآخر بالألم .. وقبل أن تتحول هواجس العزلة إلى ركام يصعب التخلص منه .. يتدخل بالعتاب .. أو المداعبة .. فى الوقت الذى تكون الزوجة مهيأة نفسيا لتقبل هذه المداعبة .. التى تشعر معها الزوجة بأنها مازالت فى قلبه!

إن الذى يكرهك لا يداعبك .. لا يتبسط معك فى الحديث.

---

(١) صحيح مسلم : باب فضل السيدة عائشة - رضى الله عنها.

وقد يبادلك الكلام .. ولكن بلا وئام ..

أما الذى يحبك .. فإنه يلاطفك .. يداعبك .. ويدور حولك بالعتاب أحيانا .. لكن طلاقة الوجه تذهب بمرارة هذا العتاب.

ويعنى ذلك : أن المداعبة نوع من الاهتمام بمن تداعبه .. وحاجة الزوجة الأساسية هى ذلك الاهتمام .. قبل الشراب والطعام !

إنها إذن فى بؤرة الشعور .. وهذا وحده يكفى ، وإن كان الزوج معدما .. أو ظالما ..

لأن الزوجة قد تغفر لزوجها قسوة الظلم .. لكنها أبدا لا تغفر له إهمالها!

إن مما يقتل الود بين الزوجين هو :

شعور الرجل بأنه لا يحكم البيت ..

«وعندما تشعر الزوجة بعدم الرعاية فإنها تشعر بأنها مجهدة. بسبب تقديمها كل شئ .. دون ثناء.

وعلى العكس : عندما تشعر بالرعاية والاهتمام فإنها:

١- تشعر بالإشباع

٢- ثم تقدم المزيد»

وهذا ما فعله - ﷺ - عندما داعب أم المؤمنين - رضى الله عنها - بهذه المصارحة .. فى تلك الجلسة الوادعة .. هذه المصارحة التى تستدعى أنبل ما فى القلوب من مشاعر الود.. فإذا البيت جنة وارفة الظلال..

وعندما يسود الود .. فإن الخيل تسخر للمزرعة .. أما إذا ذهب .. فإن الخيل كلها .. توجه للمعمعة !

يقول المربون :

«ومع غلق القلب . تتراكم المشاعر السلبية . وتفسر الكلمات والإشارات فى غير محالها .. بل تفسر بعكس معانيها.

وبالمصارحة تنخفض درجة الإحباط. وتبين الناس أن العلاقة السوية ليست

بالصراع . . وتبادل الاتهامات»

. . إن رحلة العيش بين الزوجين لا تخلو من مضايقات . . ولكن كيف نتفادى آثار هذه المضايقات ؟ . .

إن التلطف بالزوجة في مقدمة ما نتلافى به هذه المضاعفات . . وعلى كلا الزوجين أن يبدأ بالعتاب لفتح القلب . .

«فتحت باب بيتى . . وأغلقت باب قلبى . . فلم يزرنى أحد .

وفتحت باب قلبى . وأغلقت باب بيتى . . فامتلأ بيتى بالزوار» !!

إن الغضب ظاهرة بشرية . . لن يفلت منه أحد . . وهذه الظاهرة تعبر عن نفسها حتى فى أطهر بيت عرفته الحياة .

ولكن القضية هى :

كيف نفلت من أسر هذا الغضب حتى لا يفسد علينا حياتنا ؟

ولقد أكدت أم المؤمنين أن غضبها لم يشل إرادتها . . إنها فقط . . لا تهجر إلا اسمه - صلى الله عليه وسلم . .

لم تغير خطتها فى معاملته :

فما زال هو سيد البيت . . وما زال قلبها مضموما عليه وحده . تهجر اسمه . . ولا تهجر البيت . . وإذن . . فسوف تظل فرص التفاهم قائمة . . وسوف تعود المياه إلى مجاريها . . لتتأكد الزوجة أنها مازالت فى حسه ملء الدنيا .

لا تقل دارها بشرقى نجد ∴ كل نجد للعامرية دار .

❑ ● ❑

« ب »

الزوجة بين حقها في الغضب

وواجبها فى التسامح

قال - ﷺ - لعائشة - رضى الله عنها - :

«إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية . وإذا كنت على غضبى.

قالت :

وكيف يا رسول الله؟ قال :

إذا كنت عنى راضية . فإنك تقولين : لا ورب محمد .

وإذا كنت على غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .

قالت :

«أجل ، والله ما أهجر إلا اسمك» (١).

تهاجر البنت من بيت أهلها إلى بيت زوجها . . مخلفة وراءها حياة الدلال . . لتجد نفسها تحت رعاية فتى تهبه قلبها وعقلها . . وقد يكون «حزب الأهل» متربصا هناك . . لم يتخلص بعد من غيرته على غصن شجرة العائلة «تستولى عليه» امرأة غريبة !!

وتبقى مسئولية الزوج عن «إدارة الأزمة» بنجاح . .

ومن وسائله «تعويض» زوجته عما تلاقيه . . قبل أن تحن إلى بيت الدلال عند أمها وأبيها !

ومن صور هذا التعويض : تلك الجلسة الهادئة الوادعة ، والتى نحس بها ونحن بين يدى هذا الحديث الشريف . . وهو يتحدث عن سنة مؤكدة من سننه - ﷺ - فى التودد إلى الزوجة بمثل هذه المداعبة التى تشعرها بأنها فى قلبه . . وإذا

(١) صحيح مسلم : باب فضل السيدة عائشة رضى الله عنها.

كان هناك بين أهلنا اليوم من يريد أن يجعل من البيت صحراء جرداء . . فإنه تلك الشجرة التى يأوى إليها الحران . . وليس هناك من أمل فى تغطيتها بالرمال . . أو نتركها للملح يأكلها!

إن غضب الزوجة قد يكون نارا تحت الرماد . . فهى قادرة على إخفاء مشاعرها . . ولكن ذلك سوف يكون استعدادا لضربة قادمة . . وسوف تكون الضربة «عظيمة» لأن كيدهن عظيم !

ولكن وجه أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها-كالمرآة : تعكس ما فى قلبها . . وليس عندها ما تخفيه . .

وبنفس القوة يصارحها - ﷺ - بكل ما عنده فإذا هما على أوفى ما يكون الوداد.

ولاحظ من حكمته - ﷺ - ما يلى:

١- إنه يقدم «الرضا» على الغضب . . ويعنى ذلك أنه «الأساس» والمحور الذى تدور عليه حركة الزوجين ، وأما الغضب فهو «الاستثناء» الذى «نوريه» بحدتنا . . فإذا سكتنا . . توارى !

٢- ثم إن تعريضه بغضبها لم يكن فى لحظة الغضب . . وإنما بعد أن تزايلها ثورته أو فورته . . حتى تحقق المؤانسة ثمرتها حين تجيء فى لحظة تكون النفس فيها أكثر قبولا.

٣- ومعنى ذلك:

أن الزوج -أحيانا- قد يغفل ما يغضب زوجته - ولكن عطاءه اليومى . . ولكن «إبداعاته» المستمرة فى «بنك الود» يحبط مفعول هذا الغضب الذى يصبح سحابة صيف عن قريب تقشع!

ومعنى رد أم المؤمنين - رضى الله عنها :

أن الزوجة بشر . . تغضب كما يغضب البشر . .

ولكن الغضب لا يذهب بالحب الجياش الذى يحتل مساحة القلب كلها . .

وليس من الحكمة أن نخسر فى لحظة ما بنيناه فى عشرات السنين ! وإذا كان ولا بد من هجر . . فهو هجر الاسم . . أما هو فما زال ملء السمع . وملء البصر .

إن الزواج ليس شركة تجارية ينفض سامرها عند الأزمة الطارئة . .

ولكنه يجب أن يتجاوز المحنة . .

والزوجة مسئولة . . كما تعلمها أم المؤمنين - رضى الله عنها - . والتى أكدت ضرورة أن تكون شخصية الزوجة ثابتة أمام الأعاصير . . ولا تدع لفورة الغضب أن تضع النهاية الأسيفة لعلاقة كتب لها أن تدوم.

وعندما طلب الإسلام من الغاضب أن يغير من هيئته . . تهدئة لثورته . . فإنه يقول للزوجين بخاصة . . ومن خلال هذا الموقف :

«على الإنسان ألا يدع لمشاعر الغضب أن تحدد له مسار حياته : إن لحظة الغضب ثورة طارئة . .

ولأنها فائرة . . فيجب التعامل معها بحذر . . لأنه من الظلم أن نصوغ مستقبلا مديدا . . بلحظة طائرة».

أما بعد :

فإذا كان غضب أم المؤمنين لم يخرجها من حق. ولم يدخلها فى باطل . . فقد كان - ﷺ - نعم الزوج المعين على أمر الله تعالى . . والذى يقول لبعض الأزواج اليوم : لا بأس . . وحال الخصام . . أن تبدأ زوجتك بالحديث . . حاول أن تكون البادئ بالفضل . . ما دمت سيدا لبيت . .

فالسيد حقا : من إذا قدر عفا!

□ ● □

« جـ »

الطيبات للطيبين

قال - ﷺ - لعائشة - رضى الله عنها - :

«إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية . وإذا كنت على غضبى. قالت :

فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال :

أماإذا كنت عنى راضية . فإنك تقولين : لا ورب محمد .

وإذا كنت على غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .

قالت : قلت

أجل . والله يا رسول الله : ما أهجر إلا اسمك».

ربما كنت فى بستان مورق ظليل . . لكن هموم نفسك تحاصرك . . فلا تشعر بهذا الجمال المنبث من حولك . . ومن فوقك . . ولكى تشعر به فلابد من تغيير ما بالنفس من هموم حتى ترى الأشياء كما هى . .

وقد ربط القرآن الكريم بين التغيير النفسى والتغيير الخارجى فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [1].

وفى مجال الأسرة . . مفروض على الزوج. وفى اللحظات العصيبة أن يعيد زوجته على أمر الله بما ينعش وجدانها . . بالعتاب الرقيق . . ينضح به قلب شفيق.

وهو بعض ما يفهم من هذا الموقف الفريد:

إنه بيت النبوة : مبنى كغيره من الطين!

ولكنه كان أسعد حالا ومآلا من القصر المنيف . .

ذلك بأن السعادة لا تنبعث من البناء السامق . أو المال الدافق.

لكنها انعكاسات نفس راضية . .

ومع أن أهل البيت يعيشون زمنا طويلا لا يوقد فى بيتهم نار . . لكنه كان أسعد

---

(١) الرعد: ١١ .

البيوت .

ولا يضائل من هذه السعادة ما قد يحدث بين الزوجين من خلاف . . ذلك بأنه اختلاف الرأى والرؤية . . وليس اختلاف الهوى !

ولاحظ هنا أن الزوج هو الذى يتودد إلى زوجته مع عظيم حقه عليها :كزوج . . ورسول . .

وما أكثر الذين يستأسدون على هذا الصاحب الضعيف . . منكرا حتى لفطرته العربية. والتى تأنف من أن ينازل الفارس إلا قرنا قادرا على منازلته.

ومن فقهه - ﷺ - أنه يعبر عن حال الرضا بالفعل المضارع «تقولين»

هذا الفعل الذى يصبح مرآة تعكس الصور الجميلة . . والذكريات النبيلة والتى ينبغى أن تظل فى بؤرة الشعور . . لا تغيب . . أما فيما يتعلق بلحظات الغضب فإنه - ﷺ - يعبر بالفعل الماضى : «قلت» . . والذى يرحل مرارتها إلى الماضى . . الذى تولى . .

فإذا تصورت أن عائشة -رضى الله عنها- لم تكن لها ذرية . . فإن إنسانية الرسول هنا تأخذ أبعادها المترامية . . والتى تستعيد مظاهر الدنيا أن يكون لها شأن فى نسيج العلاقة الزوجية . . بهذا التوافق النابع من الإيمان . . والتى تصير الأسرة به واحة ظليلة :

لا تنكسر فيها السنابل . . ولا تتفجر القنابل !!

ولاحظ -أيضا - من فقه الزوجة أنها حين تهجره فهو باق فى قلبها : تقدم له نفس الطعام . . ومزيدا من الاحترام !

وآية هذا الاحترام أنها - وهى واقعة تحت سلطان الغيرة -لا تخونها الحكمة . . وإذا كانوا يقولون : إن الغيراء ما تدرى أعلى الوادى من أسفله . . فقد كانت أم المؤمنين بكامل وعيها حين تقول له :

لا ورب إبراهيم . .

إن بعض النساء اليوم - ممن هن عدوات أنفسهن - حين يردن مغايظة الزوج

.. يذكرنه بزوج سابق .. أو خاطب قديم . كان تصرفه فى مثل هذا الظرف أفضل منه !!

وهن بذلك يضفن إلى غضبهن غضبه .. ليكون من بعد نارا تلظى ! تبدأ بتحريق مشعليها !

ولكن أم المؤمنين - رضى الله عنها - .. تذكره بحبيبه الخليل - عليه السلام .. حتى ، وهى واقعة تحت ضغوط من الغضب !!

إنها زوجة وفية .. ومن وفائها أن تدخل فى حسابها «خط الرجعة»

أعنى : تترك فى قلبها للصلح موضعا !

وتبقى صورة أم المؤمنين فى خيالنا وضاءة كما هى ..

وتبقى الحقيقة القرآنية تفرض نفسها :

﴿ الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾[1].

ورأس الطيبين : محمد - ﷺ.

وطليعة الطيبات عائشة - رضى الله عنها.

أما بعد :

فهل كان ولا بد من أن تكون هذه الصفات فى بيت النبوة ؟

أجل .. كان لابد منها :

لتظل مقياسا نضبط عليه خطانا :

بسنته : نصحح المناهج .. وبسيرته .. تستقيم المسالك.

□ ◉ □

داء العنف ودواء الابتسامة

كان حديث الرفاق حول : حق الزوج فى ضرب زوجته .. وذكر قائل منهم الحديث الذى رواه عمر رضى الله عنه . عن النبى ﷺ :

«**لا يسأل الرجل فيما ضرب زوجه**»(١)

وكأنما يريد أن يقول:

إن حق ضرب الزوج زوجته ثابت ابتداء ..

وأن هذا الحق مطلق .. وليس لأحد أن يسائله فيم ضربها ؟!

ولكن زميلا آخر يتدخل ليرفع الإصر عن الزوجة أولا ..

ثم لينصف الرجل .. بل والإسلام .. حتى لا يكون هناك اتهام بلا دليل ..

فمعنى الحديث كما جاء فى «دليل الفالحين» (٢)

«أى لا يسأل عن سبب ضربه امرأته». لماذا ؟

لاحتمال أن يكون السبب مما يستحيا من ذكره . كالامتناع من التمكين.

بل يترك ذلك إليه . وإلى مراقبته لمولاه.

إلا أن احتاج الأمر إلى جريان الأحكام . والرفع إلى الحكام . فتبين الأمر»

وقلت للحاضرين: تعالوا بنا فى رحلة إلى الماضى .. نعبر فيها السنين راجعين إلى الماضى السحيق .. إلى العهد الذى يسمونه:

«عهد الحريم» .. هناك فى القرية التى لم يكن فيها إلا «عالم واحد» :

كانت الزوجة تنادى زوجها : يا سيدى:

وكان أبوه : سيدها الكبير.

---

(١) رواه أبو داود وغيره.

(٢) جـ١ / ٢٤٦.

لم يكن يتركها تذهب وحدها لزيارة أهلها . .

ولكنه كان يزورهم معا . . وكان للزيارة عندئذ آداب .

تتقدم هي لتطرق الباب . . بينما هو منها غير بعيد . . ثم يخلعان نعليهما . . كأنما يدخلان الوادى المقدس!

وكما يقول الأدباء : كان الحب يمشى عندئذ «بينهما» .

ثم يعودان إلى العش بنسبة من الثقة تربط على هذا الحب . . بما يحملان من هدايا . . وقبل هذا يحملان من نصائح غاليات . .

وبما يحمله الزوجة بالذات من عواطف أهل زوجته الذين يعتبرونه أخا لهم . . بل إنه سيدهم لأنه يحمى عرضهم وإذن . . فلم تكن «فكرة الضرب» مطروحة فى هذا الجو الحميم . بعد ما صار الزوج أخا لأهل زوجته . . وولدا لحماته التى لم تتعب فى حمله . . ولا فى وضعه . ولا فى فصاله!

أما اليوم : فإن الحب لا يمشى «بينهما» . . ولكنه تأخر عنهما . . ثم اختفى هناك خلف الشمس !

ونابت «العصا» عنه فى تأديب الزوجة . .

لقد غاب الحب . . أو غاض . . فلم يبق إلا العنف سبيلا إلى إثبات الشخصية . . وهيهات أن يحقق العنف مطلبا . . أو ينجز مأربا !

وليت شعرى : ما دامت حياتنا قصيرة . . فلماذا لا نستثمر كل لحظة فيها . . لحسابنا ؟

ويبقى أن نستمع إلى التجربة الإنسانية على لسان المجربين ، لعلنا واجدون فى بسمة دواء لهذا الداء . . داء العنف سبيلا إلى حل مشكلاتنا :

يقرر أطباء علم النفس والاجتماع، أنك لكى تعبس، يلزمك تحريك ٣٣ عضلة فى وجهك . أما لكى تبتسم ، فلا تحتاج إلا لتحريك عضلة واحدة. كم نرهق أنفسنا ووجوهنا، فى حمل هذا الكم من العبوس والتقطيب . صحيح أن الإنسان لا يستطيع أن يقاوم مشاكله ويتجاهل متاعبه لكن لا بد من «استراحة المحارب» من حين

لآخر ، في محاولة تخفيف العبء الأكبر عن عضلة القلب، وقد ثبت طبيا، أن ديمومة الزعل ، والتفكير القاتم الضاغط على الصدر، «يشكل» القلب، ويتسبب في ارتفاع الضغط! ومن هنا كان الحديث الشريف خير نصيحة طبية نفسانية تجوهر روح الإنسان ، وتضاعف جهده وحبه للحياة «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت». وفي التجربة المعيشة ، فإن الابتسامة فعل إرادة واقتناع ورضا. إنها أصعب من «الضحكة»، تتفجر للحظة أو لحظات كما البالون وما تلبث أن تتلاشى. إن الأدب الساخر، من شعر ونثر وصحافة وكاريكاتير ومقالة مرحة هادفة ، ينزع إلى زرع البسمة الأصعب في وجه القارئ أو حتى السامع . لكن كوميديا التمثيل المسرحي - على نحو خاص - تشاغب الضحكات، وتعابثها ، من خلال مواقف تبعث على الترويح عن النفس في إطار «الضحك للضحك» الذي هو في حد ذاته فن ، وليس فلسفة ، لحظة «تنفيس» وليست لحظة «تأملات» فكرية ، كما الغوص في أعماق كتاب، أو ديوان شعر. إن العامة يضربون مثلا قاسيا ليس مستحبا أن يضاف إلينا كلقب من ألقاب غير إنسانية. هذا المثل الدارج يقول: فلان وجهه لا يضحك للرغيف الساخن! وإنك ترى، عزيزي القارئ، ومن خلال بعض تجاربك ، في علاقاتك بالناس، أو علاقة الآخرين بك، وبخاصة ممن لك عندهم حاجة أو مطلب، أو معاملة ، إن «عبوسك» يقف حجر عثرة أحيانا بينك وبين إنجازها، في حين أن بسمتك الرضية ، حتى ولو كانت طيفا يتقافز على شفتين راعشتين كأوراق الخريف، يقرب المسافات، ويحقق المنى، وتكون البسمة - عملة متداولة بين الناس- بمثابة جواز مرور إلى قلوب الآخرين ، وأكادأقول عقولهم أيضا وثقتهم.

وليست كل الابتسامات مقبولة أو مستساغة ، مالم تكن نابعة من القلب، تفترش الثغر وتعمر الوجه بشاشة.

وبعض المفسرين أكدوا على أن «ملاحة» الوجه ليست في وسامته، وإنما في انبساط أساريره الرضية ، وهل ننسى الآية الكريمة نابذة العبوس ، منددة به ﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى﴾ [عبس: ١ ـ ٢] .

ميثاق شرف

ورضى الله عن أبى الدرداء :

فقد أراد أن يضع ما نسميه اليوم «ميثاق شرف» بينه وبين زوجته فقال لها :

إذا غضبت فرضينى . . وإذا غضبت . . رضيتك . .

فإذا لم يكن هذا . . فما أسرع مانفترق !

وهو نفسه المعنى الذى حمل الشاعر الحساس الرقيق . . على أن يقول لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ... ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب !

إن صمت الزوجة لحظة انفجار الزوج . . مانع من تفاقم الأزمة . .

ومن ثم فالزوج يرجوها أن ترضى منه بما يبدو منه . . فرارا من تداعيات الوقف ووصولا إلى مودته . .

ثم محاولة تجاوز المحنة الطارئة . .

وبهذا المنهج . . تستعصى الأسرة على الانهيار . .

ولاينتهى الموقف لحساب الزوج وحده . . ولكن لحساب الأولاد، بل والزوجة، والتى ينعكس عليها من رضا زوجها ما يذهب بكل ماحدث فى الحالات الاستثنائية .

ولنا فى أمهات المؤمنين أسوة حسنة :

لقد كانت عائشة -رضى الله عنها- تلك الزوجة التى :

تحب زوجها . . والمحب لا يخفى هواه . . وإن تستر . .

ولايكبت جواه . . وإن تصبر . .

ولكنها فى الحالين حريصة على وقت الأسرة أن يذهب بددا وعلى أعصاب الزوج أن تحترق سدى . .

وكأنما تحذر الزوجة التى تعيش فى بيت ضيق عليه رزقه قائلة :

إذا كنا نجحنا فانتصرنا على الفقر .. فلم نسمح له أن يفسد دنيانا .. فكيف نسمح للغضب أن يتحكم فينا .. ليضيع ديننا؟ ..

إن بعض الزوجات اليوم .. وبعض الأزواج أيضا .. لا ينفع معهم الإرشاد .. ولا النصح المعتاد ..

وإنما الذى ينفعهم قراءة الواقع .. وتمثله بكل مضاعفاته ..

هذا الوقع الذى تملاه العارفون .. ثم عادوا إلينا بما يضع حدا لانفعالاتنا ..

إن ماننفثه من أعصابنا .. من خلايانا .. أعز وأغلى من كل من فى البيت..

ذلك بأن كل خلل فى أجسامنا أخطر من كل خلل فى جدارنا ..

وما قيمة الدنيا .. إذا نأى كل طرف بجانبه فأدار ظهره لصاحبه ..

أقل الناس فى الدنيا سرورا ∴ محب قد نأى عنه حبيبه

ثم .. إن السعادة لتنبع من النفوس السوية أولا ..

وفى بيوتنا نحن ..

وإذا لم نجد السعادة فى بيوتنا .. فأين نجدها إذن؟

فى الشارع.. فى الديوان..

وإذا لم تحرص زوجتى على ثروة أعصابى فأين هم أحبابى .. الذين يقومون عنها بهذا الدور ؟

إن هذا المخزون من الغضب لا يذهب بالعناد .. ولا بالوعظ والإرشاد .

وإنما بإشعار الطرف الآخر أنه على حق ..

ثم .. وبعد تسرب شحنة الغضب يكون العتاب .. مع الأحباب .

ترشيد الانفعالات :

وإذا كان ترشيد الاستهلاك مطلبا أساسيا فى حياة الأسرة ..

فإن الفاقهين يقولون :

هناك ترشيد أهم من ذلك هو ترشيد الانفعالات ؟

وكيف ؟

قد يكون هناك مخزون من الانفعالات بين الزوجين .. على المدى الطويل ..

وفجأة .. تتوتر الأعصاب .. وكل طرف يأخذ وضع الاستعداد :

وقد حر الهواء فقيل: هذا ∴ هوى لفظته فى الجو القلوب !

وكلمة من هنا .. وكلمة من هناك ..

وبعدها .. تدوى الانفجارات تحت سقف البيت ..

ثم تبدو بوادر التصدع .. وعلى مرأى ومسمع من أطفال يقفون حيارى أمام موقف لا يملكون تغييره .. ولا يملكون -أيضا- التفلت من انطباعاته فى قلوبهم الغضة..

وهناك لا بد من ترشيد الإنفاق ..

إنفاق الانفعالات .. إنفاق طاقاتنا ..

فى خلافاتنا.. لتبقى منها بقية نواجه بها المواقف الحرجة بما يكافئها :

من النظام .. والتخطيط .. والمصابرة .

مفارقات عجيبة

ومن المفارقات العجيبة أن يكون الزوج كريما .. مع الغرباء بخيلا .. مع الأقرباء..

متسامحا مع البعيد .. فظا مع أهله وولده..

مع أن خيركم خيركم لأهله ..

وأولى الناس بقلوبنا أولئك الذين أسكنونا فى قلوبهم .. ألا وإن وبعض الأزواج يذخر الوقت الطيب .. للأصدقاء والسماء خارج البيت ..

ولكنه يستبقى للبيت أردأ ما يملك من الوقت فى صحبة مزاج مختل .. معتل..

وكان عليه - على الأقل - أن يكون عادلا . .

لكنه ظلم نفسه . . فكان من المطففين . . الذين إذا عاملوا الأجانب يستوفون . .

وإذا عاملوا أهلهم يظلمون .

فويل لهم مما يكسبون .

❑ ❁ ❑

□ ○ □ الغيرة □ ○ □
ذلك الحارس المقيم

حين تستحضر فى ذهنك معانى : الصلاح . . والإصلاح . . والمنفعة . . والألفة . . فإنك تستحضر معنى «الغيرة» التى هى كل هذه المعانى مجتمعة . .

وإذن . . فالغيرة خير وبر .

ثم هى مع ذلك أنفة من أن يشركك فى حقك غيرك . . أو يعتدى عليه

«مشتقة من تغير القلب . وهيجان الغضب . بسبب المشاركة فيما به الاختصاص . وأشد ما يكون ذلك : بين الزوجين» [1]

وقد عرفوها فى الاصطلاح بأنها : كراهة شركة الغير فى حقه .

وقال الكفوى : «كراهة الرجل اشتراك غيره فيما هو من حقه».

«وذكر الرجل هنا على سبيل التمثيل . . وإلا فإن الغيرة غريزة تشترك فيها الرجال والنساء . بل قد تكون فى النساء أشد»

إنها إذن غريزة . . ولأنها كذلك فيستحيل التخلص من أمر مغروز فى كيانك . . لأن ذلك تكليف بمالا يستطاع . .

ومن دلائل خيريتها :

أن الله تعالى يغار :

جاء فى نضرة النعيم [2].

«جاء فى الحديث الشريف أن الله - عز وجل يغار - . وأن غيرته - عز وجل- تكون من إتيان محارمه . ووجه ذلك :

---

(١) فتح البارى / ٩/ ٣٢٠.

(٢) ج ٧ / ٣٠٧٨ .

أن المسلم الذى يطيع هواه . وينقاد للشيطان . ويقع فى محارم الله . . فكأنه جعل لغير الله فيه نصيبا .

ولما كانت الطاعة خاصة بالله عز وجل . ويأبى أن يشاركه فيها غيره . . كان ذلك سبعثا لأن يستثير العاصى غضب مولاه . وغيرته عليه .

وما ذلك إلا لأن المولى – سبحانه وتعالى – لا يرضى لعباده المعصية . كما لا يرضى لهم الكفر .

ومن ثم يكون من جانب الله تعالى غيرة حقيقية على ما يليق بجلاله وكماله.

ومن لوازمها :

كراهية وقوع العبد فى المعاصى . وإشراكه غير الله فيما هو حق المولى وحده: من التزام بأوامره . واجتناب لمعاصيه»

وقد قال المفسرون : فى قوله تعالى :

﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ (١)

قالوا : الحجاب هنا : حجاب الغيرة . . حتى لا يكون للحد سلطان على المسلم . .

والكفار ليسوا أهلا لهذه الغيرة .

إن الغيرة إذن كما قلنا خير :

يغار الإنسان على محبوبه . . حتى لا يفلت منه ليستأثر به غيره . .

ويغار القوى على عافيته أن تذهب سدى . . بل يحافظ عليها . . ليصرفها فيما خلقت له . .

وغيرة الله – تعالى – ألا تكون عبدا لغيره . . بل له – سبحانه وتعالى – دون سواه .

---

(١) الإسراء : ٤٥ .

وفى هذا المعنى يروى أبو هريرة رضى الله عنه :

أن النبى - ﷺ - قال :

«**إن الله تعالى يغار . وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه**»[١]

تلك هى «خامة» الغيرة . . كما هى . .

لكن الإنسان يفسدها عندما يسيء استعمالها . . ككل غريزة فى كيانه :

إنها سلاح ذو حدين . . والإفادة منها مرهونة بحسن استعمالها . .

وقد كان الشرع فى عون العبد ليعرف المقبول منها والممنوع . .

حتى يكون على بينة من أمره فلا يتجاوز الخط الأحمر !

عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

«**إن من الغيرة ما يحب الله عز وجل . ومنها ما يبغض الله عز وجل ...**» إلى أن يقول : «**.. فأما الغيرة التى يحب الله - عز وجل - فالغيرة فى الريبة .**

وأما الغيرة التى يبغض الله عز وجل .. فالغيرة فى غير ريبة ..»[٢]

ويعنى ذلك أنه اذا لم تكن هنا شكوك . . ولا شبهات . . فالغيرة عندئذ بلا مسوغ . . وينبغى إحباط مفعولها . .

أما إذا كانت هناك مسوغات . . فإن الغيرة عندئذ ظاهرة صحية . .

يجب أن تبقى الغيرة فى كيان الإنسان حارسة الشرف والعرض . . بدل أن نبددها فى معارك وهمية تخصم من حساب سعادتنا . .

ذلك بأنها مثل صياصى الجاموس «قرونها» :

وإذا كسرت قرونها فإنها لن تستطيع الدفاع عن نفسها . .

❑ ● ❑

---

(١) فتح البارى / ٩/ ٥٢٢٣

(٢) مسند أحمد / ٥/ ٤٤٥-٤٤٦ .

الغيرة المحروسة بالإيمان

عن عائشة - رضى الله عنها- قالت :

كان رسول الله - ﷺ - إذا خرج أقرع بين نسائه . فطارت القرعة على عائشة وحفصة .

فخرجتا معه جميعا .

وكان رسول الله - ﷺ - إذا كان بالليل . . سار مع عائشة : يتحدث معها.

فقالت حفصة لعائشة :

ألا تركبين الليلة بعيرى . وأركب بعيرك ؟ فتنظرين وأنظر ؟ قالت : بلى .

فركبت عائشة على بعير حفصة . وركبت حفصة على بعير عائشة .

فجاء رسول الله - ﷺ - إلى جمل عائشة، وعليه حفصة .

فسلم . ثم سار معها . حتى نزلوا .

فافتقدته عائشة فغارت .

فلما نزلوا . جعلت تجعل رجلها بين الإذخر وتقول :

يارب سلط على عقربا أو حية تلدغني : رسولك . ولا أستطيع أن أقول له شيئا»[1]

تمهيد :

فى موقف لأم سلمة - رضى الله عنها- قالت لأبى سلمة - رضى الله عنه- :

« . . تعالي أعاهدك ألا تتزوج بعدى . وألا أتزوج بعدك . . »[2]

---

(١) البخارى الفتح ٩/١١/٥٢ ومسلم: ٢٤٤٥ واللفظ له . (٢) الطبقات الكبرى ج ٨ / ٨٦ .

فالزوجة هنا تغار على زوجها . . حتى بعد مماتها . .

ولأنها صاحبة المبادرة فى رفض الزواج . . فإن نصيبها من الغيرة يكون أربى وأقوى . .

وهكذا قال المجربون :

إن الغيرة قاسم مشترك بين الرجال والنساء . . وهى أشد بين الزوجين . . وأعنف تكون لدى الزوجة بالذات . .

فإذا كانت الزوجة . . زوجة رسول الله - ﷺ - فإن الغيرة عليه تكون أعمق وأوسع . . من حيث جلال قدره . . وما يترتب على ذلك من الرغبة فى الاستئثار به . . والتعبير عن ذلك بالغيرة عليه حتى من هبة النسيم !

ولقد غارت حفصة - رضى الله عنها- . .

وكذلك غارت عائشة - رضى الله عنها - . . والتى كانت تملك زمام نفسها حين سمحت لحفصة رضى الله عنها - أن تستأثر به - ﷺ -فى مرحلة من مراحل الطريق . .

لكن حقها فى الغيرة الفطرية ما زال قائما !

وبهذا اعترفت - رضى الله عنها- فى هذا الحديث . .

ولكن الزمام كاد يفلت من يدها تحت ضغط الغيرة الفائرة فلا تحتفظ بالغيرة معنى فى قلبها، ولكنها كانت تعبر عنها بالكلام . . والكلام القاسى :

روت - رضى الله عنها- قالت :

«استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة- على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فعرف استئذان خديجة«لشبه صوتها بصوت أختها»فارتاح لذلك فقال:

«هالة بنت خويلد !!»

فغرت . فقلت :

(١) البخارى - الفتح ج٧ / ٣٨٢١ .

وما تذكر من عجوز من عجائز قريش . حمراء الشدقين .

«طاعنة في السن» هلكت في الدهر . فأبدلك الله خيرا منها»[١]

ولكنها في الحديث الذى معنا تشعر بأنها في غيرتها غير طبعية . .

وأنها قد تغضب بذلك رسول الله - ﷺ - .

ومن ثم . . ولأن الحمل أكبر من طاقتها كانت تلجأ إلى الله أن يخفف عنها . . وأن يتجاوز بها لحظة الضيق . . إلى الحد الذى كانت تفضل أن تموت مسمومة . . ولا تسمع النبي - ﷺ - شيئا يكرهه !

ذلك بأنها ساعة الغيرة كانت تأخذها رعدة يصعب التفلت منها . . فكانت تسأل الله العفو والعافية . بهذه الكلمات الدامعة !

ولقد كان من حكمته - ﷺ - أن يستوعب شحنة الغيرة . . محولا مجراها . . حتى لا تصيب هدفها . .

وإذا كان كسر عظم المؤمن ميتا . . ككسره حيا . . فإن المحافظة على شعوره يكون في حياته وبعد مماته . .

وتلك هي روح الإسلام السارية في تشريعاته :

فالكريم الذى يعطى . . ثم يمن ويؤذى . . خير منه ذلك البخيل الذى لم يعط . . ولم يؤذ الشعور !

﴿ **قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعها أذى** ﴾[١].

إن تحصيل المتعة الجسدية ليس هو فقط مقصود الزواج . .

ولكنها الفائدة العائدة إلى الطرفين على سواء . . والتى يكون دستورها :

دعى عد الذنوب إذا التقينا . . . تعالى . . لا نعد ولا تعدى !

---

(١) البقرة: (٢٦٣).

الغيرة
بين السلبية والإيجابية

حين يصير الجدال بين الزوجين عاصفة . . فإن الشيطان ينهض عندئذ . . لينفخ فى نار الخصام . . حتى لا يعودا إلى الوئام . . ثم يمكث غير بعيد يترقب لحظة الانفصام . .

وأكثر ما يكون ذلك بسبب الغيرة التى تجاوزت كل الخطوط الحمراء . .

لتصير الزوجة ذلك الغزال الجريح :

إنه يقفز إلى أعلى . . وحركته عندئذ أسرع، ثم يكون الزوج -أيضا- ذلك الأسد الجريح . . والذى تكون غضبته أقوى وأوجع ! . .

وهكذا تتحول الغيرة إلى وحش يفترس الحب . . ثم ندعى أننا نحميه !

ضحايا الغيرة :

كانت الزوجة جميلة . . لكن زوجة صديق زوجها كانت أجمل . .

ومن سوء تصرف الأولى محاولتها المكرورة افتعال معارك وهمية . . لتغبش الجو بين زوجها وبين صديقه حتى يفترقا . .

إرادة اختفاء الزوجة . . الأجمل . . من حياتها . .

وتتنافر القلوب . . بعد حرب وهمية تديرها الغيرة العمياء . .

والزوج آخر من يعلم !

ثم يصير الأمر على ما قال الشاعر :

نبآنى يا نخلتى حلوان ∴ واذكرا لى من ريب هذا الزمان

واعلما إن بقيتما أن نحسا ∴ سوف يأتيكما فتفترقان

واقعية الإسلام :

ومن واقعية الإسلام أن يعتبر الغيرة ظاهرة بشرية . . لا مفر منها . .

وإذا كان فى كل إنسان نصيبه من الحسد . . وعليه ألا يحقق . . فإن له كذلك نصيبه من الغيرة ما لم يتجاوز الخط الأحمر . ويدخل فى الممنوع ! :

أخرج الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

بينا أنا نائم . رأيتنى فى الجنة . فإذا امرأة تتوضأ إلى جانبى قصر . قلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا: لعمر .

فذكرت غيرتك . فوليت مدبرا .

فبكى عمر . وقال : أعليك أغار يا رسول الله»

فرسول الله - ﷺ - يعلم من غيرة الفاروق ما حمله . . لا على مجرد الانصراف . . وإنما «ولى مدبرا» . . فى حركة توحى بمدى غيرة عمر على أهله . . حتى ولو كانت القضية رؤيا منامية . .

ولم يكتف عمر بإعلان استحالة غيرته . . وإنما بكى لما قال الرسول - ﷺ - . .

وفى الموقف بعد آخر :

لقد كانت ثقة عمر -رضى الله عنه - بالرسول - ﷺ - كاملة .

ولكنه - ﷺ - يفعل ما يجب أن يكون تشريعا يحمى الأمة من عقبى التسيب فى العلاقات الاجتماعية :

فلا ينبغى للصديق أن يدخل دار صديقه - اليوم - اعتمادا على الثقة المتبادلة بينهما . .

لأن داخل الصديق «زوجا» . .

زوجا «رابضا» يخاف على زوجته . . حتى من هبة النسيم !

وإذا احترم الصادق المصدوق شعور صاحبه عـمر . . فلأن يحترم بعضنا مشاعر بعض أولى . . وأجدى .

ولقد كـان هناك زوجات عـاقلات . . على نفس المستـوى . اقتـداء بالرسول - ﷺ - :

عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما- قالت :

«تزوجنى الزبيـر . ومـاله فى الأرض من مـال . ولا مملوك . ولا شئ غـيـر ناضح . وغير فرسه .

فكنت أعلف فرسـه . وأستقى الماء . وأخرز غـربه -دلوه - وأعجن ولم أكن أحسن أخبز . وكان يخبز جارات لى من الأنصار . وكن نسوة صدق .

وكنت أنقل النوى من أرض الزبير - التى أقـطعه رسول الله - ﷺ - علـى رأسى .

وهى منى على ثلثى فرسخ .

فجئت يومـا والنوى على رأسى . فلقيت رسول الله - صلى اله عليـه وسلم- ومعه نفر من الأنصار . فدعانى . ثم قال :

إخ إخ [1] ليحملنى خلفه .

فاستحـييت أن أسير مع الرجال . وذكرت الزبير وغيـرته - وكان أغير الناس- فعرف رسول الله - ﷺ - أنى قد استحييت . فمضى . فجئت الزبير فقلت :

لقينى رسول الله - ﷺ - . . وذكرت ما حدث فقال :

والله لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه . قالت :

حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفينى سياسة الفرس .

فكأنما أعتقنى»[2]

---

(١) كلمة تقال للبعير لينيخه .

(٢) الفتح ٩/ ٥٢٢٤ .

والزوجة هنا تحافظ على زوجها غائبا . . كما حافظ رسول الله - ﷺ - على مشاعر عمر . . غائبا . . في موقف يجعل من الغيرة حقا طبعيا . . وإسلاميا . شريطة أن تظل في حجمها . . لا تمن ولا تؤذى .

□ ● □

الغيرة
من الأماني .. إلى كسر الأواني

عن عائشة - رضى الله عنها - زوج النبى - ﷺ . حدثت :

أن رسول الله - ﷺ - خرج من عندها ليلا . قالت :

فغرت عليه .

فجاء . فرأى ما أصنع . فقال :

«**مالك يا عائشة .. أغرت ؟**» فقلت :

وما لى لا يغار مثلى على مثلك ؟

فقال رسول الله - ﷺ - :

«**أقد جاءك شيطانك ؟**» قالت : يا رسول الله :

أو معى شيطان ؟ قال : «نعم» : قلت :

ومع كل إنسان ؟ قال : «نعم» . قلت :

ومعك ؟ يارسول الله ! قال : «**نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم**»[١]

تمهيد :

يقولون : إن الغيرة دليل الحب . .

لكنها مشروطة بأن تبقى على من نحب !

ويعنى ذلك : ألا نتجاوز الخط الأحمر فى غيرتنا على ما نحب . .

ولقد غارت أم المؤمنين هنا . . وهذا حقها . .

ولكن يبدو أن الانفعال كان ملفتا للنظر . فلما تساءل - ﷺ - عن سر ما

---

(١) مسلم : ١٥/٢٨ .

يرى . . دافعت هى عن نفسها .

مسوغة ما حدث منها : بأن امرأة كعائشة . . من حقها أن تغار على رسول الله - ﷺ - ليظل قلبه لها . . وحدها !

ويعود - ﷺ - إلى سبب الغيرة وهو الشيطان .

الذى يحاول أن يغرى الشقاق بين الأزواج . . منطلقا من أسباب مشروعة . . مبالغا فيما حدث . . إلى الحد الذى يحدث فيه الخصام . . ثم الانفصام .

وعلى أى حال . . فقد كانت غيرة أم المؤمنين طبعية . . لأنها تعنى الاستئثار بمن تحبه . . فكما أنها له . . فيجب كذلك أن يكون هو لها !

وإذن فليست هى الغيرة التى تعيث فى البيت فسادا . .

ولكنها الغيرة المنطلقة من عاطفة الحب . . ؛

قال القاضى عياض تفسيرا لموقف آخر لأم المؤمنين :

«مغاضبة عائشة - رضى الله عنها - للنبى - ﷺ - .

هى مما سبق من الغيرة التى عفى عنها للنساء . فى كثير من الأحكام كما سبق . لعدم انفكاكهن منها حتى قال مالك وغيره من علماء المدينة :

يسقط - عن الزوجة - الحد إذا رمت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة . .»

والسؤال الآن :

هل كان لابد أن يحدث هذا . . وفى بيت الرسول - ﷺ - !

والجواب :

لقد كان من الحكمة أن يحدث هذا . . حتى إذا تعقدت الأمور من بعد بين الزوجين . . كان لهما فيما حدث مقياس يضبطون عليه الخطى . . بل كان لابد أن يحدث أشد من هذا حتى نقيس عليه حياتنا فيما يأتى من الزمان . .

عن أنس قال :

«كان النبى - ﷺ - عند بعض نسائه . فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين

بصحفة فيها طعام .

فضربت التى النبى - ﷺ - فى بيتها يد الخادم . فسقطت الصحفة . فانفلقت .

فجمع النبى - ﷺ - فلق الصحفة . ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول :

«غارت أمكم» .

ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها .

فدفع الصحفة الصحيحة إلى التى كسرت صحفتها .

وأمسك المكسورة فى بيت التى كسرت فيه»

وهكذا تجاوزت الغيرة «الأمانى» إلى كسر الأوانى . . وهنا مكمن الخطر . .

وهذا ما أحس به - ﷺ - . فعالج الموقف بالحكمة والصبر :

إن أم المؤمنين لم تضرب الصحفة ضربة مباشرة . .

وإنما ضربت يد الخادم . . ولذلك لم تتناثر أجزاؤها ، وإنما كانت بحيث يمكن جمعها . .

ويستوعب - ﷺ - العاصفة بهذه الدعابة :

غارت أمكم . .

ثم يكون هذا الحل الإسلامى المتمثل فى : حبس الخادم حتى لا يفجر المشكلة فى بيت من كسر إناؤها . . ثم كان رفيقا فى حله . . الذى طيب الخواطر . . لافتا الأنظار إلى خطر الغيرة التى تتجاوز الأمانى لتكسر الأوانى . إن الغيراء لا تدرى أعلى الوادى من أسفله . . ولقد تعزلها الغيرة عن الأرض التى تقلها . . والبيئة التى تنشب إليها . . ويبقى الحل فى يد الزوج الحكيم .

□ ● □

وفاء

لا تعكره الدلاء

نشرت الصحف أن أنثى الأسد «طارق» امتنعت عن الطعام ثلاثة أيام . بعد التحفظ على «زوجها» وعزله عنها .

وقد فشل الأطباء فى إنقاذ حياتها . . فماتت حزنا عليه .

وإلى جوار هذا الخبر نشرت الصحيفة نبأ تلك الزوجة التى قتلت زوجها بمساعدة صديقها . . ثم ألقت بجثته فى عرض الطريق !

وقال محدثى :

وهكذا ضاع الوفاء فى دنيا الناس . . ثم كان الحيوان أعمق وفاء لرفيقه . . فصار الحيوان أكثر تحضرا من الإنسان !

وقلت له : على رسلك . . فما يزال الوفاء فى دنيا الناس ظاهرة . . وإن تنكر له بعضهم . .

وهذا هو الإسلام يعمق مجراه فى القلوب . . بما شرع من نهى الرجل أن يباشر زوجته حال الرضاعة . . حتى لا يجور - لوحملت - على حق الرضيع . .

وهو لون من الوفاء لجيل المستقبل . . حين يقدم الإسلام حقه على حق الوالدين فى الاستمتاع . . وحتى لا تكون المباشرة اغتيالا للطفولة بغير سلاح !

أما على مستوى الزوجين . . فقد كان هناك من صور الوفاء بين الزوجين ما يجعل مما نشر استثناء من القاعدة . .

يقول «صريع الغوانى» يرثى زوجته :

دعانى وإفراط البكاء .. فإننى ∴ أرى اليوم فيه غير ما تريان

غدت والثرى أولى بها من وليها ∴ إلى منزل ناء بعينك دانى

فلا حزن حتـى تنزف العـين ماءهـا ∴ وتعـترف الأحشـاء للخفقان
وكيف بدفع اليأس .. والوجد بعدها ∴ وسهماهما فى القلب يعتلجان؟

إن الوفاء للزوجة فى حياتها .. ربما كان لونا من المقايضة أو التجارة : يضحى فيه طرف .. ليجنى ثمـار تضحيته، أما وقد رحل .. فـإن الوفاء عندئذ يكون أقرب إلى الإخلاص .. وهناك فى دول لا تدين بالإسلام :

«يقـدمون المرأة فى الحـفـلات . ويؤخرونهـا فى البيـوت، ويقـبلون يدها فى المجتمعات العامة .. ويصفعون وجهها فى بيوتهم الخاصة .

ويعترفون لها بحق المساواة .. وهم ينكرون هذا الحق فى قرارة أنفسهم.

ويحنون لها رءوسهم فى مواطن الهزل . ثم ينصرفون عنها فى مواطن الجد»

أما نحن .. فالوفاء لها دين .. فى الحياة وفى الممات يقول «ديك الجن» يرثى زوجته :

قل لمن كان وجهها كضياء الـ ∴ شمس فى حسنه وبدر منير
كنت زين الحياة إذ كـنت فيهم ∴ ولقد صـرت زين أهل القبور
بأبى أنت فى الحـياة وفى المو ∴ ت وتحت الثرى ويوم النشور

ومن مآثر معاذ بن جبل - رضى الله عنه - :

أنه كانت له زوجتان : فإذا كان عند إحداهما طبق قيمة العدل تطبيقا صارما..

إلى حد أنه إذا كانت نوبة إحداهما .. لم يشرب عند الأخرى . ولم يصل.

بل إنهـما لما ماتا مـعا .. لم تذهب الفـاجعـة بلبه .. وبقى العـدل شرعـته ومنهاجـه إلى حد أنه لم يقدم إحداهمـا فى القبر على الأخرى .. إلا بـعد أن أقرع بينهما .

وقد كانت الزوجات عند حسن الظن بهن وفاء وولاء :

حتى فى اللحظات الحرجة الملحة :

جاءت امرأة إلى عمر - رضى الله عنه - فقالت :

زوجى يقوم الليل . ويصوم النهار .

فقال عمر : لقد أحسنت الثناء على زوجها !!

فقال كعب بن سوار: لقد شكت !

فقال عمر : كيف ؟ قال :

تزعم أنها ليس لها من زوجها نصيب»

والشاهد هنا . . يعود بنا على بدء :

فكما كان هناك من تقتل زوجها . . من أجل صديقها . .

فهناك من تقتل رغبتها وفاء لزوجها . .

إن هذه الزوجة الوفية الأبية . . وبعد طول الانتظار . . ونفاذ الاصطبار . . تشكو زوجها ملتزمة بقيمة الوفاء . . واحترام الرفيق :

فهى تشكو إلى عمر . . بالذات . . لا إلى كل عابر سبيل لتجعل من سمعة زوجها مضغة فى الأفواه .

ثم تختار التلميح . . لا التصريح مدفوعة بحيائها . . وعفتها . .

وهى بهذا وذاك . . تظل حجة بالغة يقيمها الله تعالى على كل عاهرة فاجرة . . وحتى يظل إيماننا بوفائها مستقرا . . ومستمرا حتى يظل الوفاء بحرا زاخرا :

لن يضر البحر أمس زاخرا . . . إن رمى فيه غلام بحجر!

□ ○ □

□ ○ □ الزوجة المؤمنة □ ○ □ والمعادلة الصعبة

يضرب النساء مثلا للزوجة المطيعة .. تلك الزوجة فى اليابان :

والتى تتفانى فى خدمته وطاعته إلى الحد الذى «لا تجلس أمامه إلا إذا أذن لها بالجلوس .. وإذا خرج إلى عمله شيعته إلى باب الدار . وودعته وداعا حارا .. وإذا عادا استقبلته بخشوع وحفاوة»

وتليها فى الرتبة تلك **الفتاة فى الهند** : والتى بلغ من تقديسها لزوج المستقبل أنها تدخر من مصروفها . ما تقدمه لزوجها إذا عجز عن العمل .. عندما يبلغ من الكبر عتيا .

وإذ كان هذا ميراث الأمهات والجدات .. وإذا كنا نقدره قدره .. فإن من حق **الزوجة المسلمة** أن تنوه بدورها المرموق فى خدمة زوجها وطاعته :

إنها تشترك مع كل زوجات العالم فى الأصول العامة .. لكنها بحكم إسلامها ترتفع إلى الأعلى .. منطلقة من عقيدتها الإسلامية التى تجعل من طاعتها لزوجها عادة .. وعبادة فى نفس الوقت ..

وإذ تؤدى الزوجات هناك دورهن أداء رتيبا .. موروثا .. فإن الزوجة المسلمة تمارس طاعة زوجها .. شاعرة بأنها تطيع الله تعالى فى نفس الوقت : .

ذهب الجار الفقير إلى أسماء بنت عميس زوج الزبير قائلا لها :

دعينى أبع فى ظل دارك ..

فقالت : انتظر حتى يحضر الزبير .. وأعرض عليه قضيتك .

فلما حضر الزوج .. وعرض البائع مسألته .. قالت :

كأنما ليس فى الحى ظل إلا ظل دارى !

فقال لها الزبير : مالك والرجل .. ثم أذن له !

إن مجرد الجلوس في ظل الدار .. لن ينقص الظل من أطرافه ..

كما أن أهل القرية كلها لو أشعلوا مصابيحهم من مصباحك ما نقص شيئا !

ولكن المرأة تعرف من طبع زوجها أنه غيور .. من أجل ذلك أحالت القضية إلى صاحب الشأن فيها .. مع اقتناعها سلفا بأن المسألة ليس فيها ما يغيظ ..

وتأمل من ذكائها أنها تقول : كأنما ليس فى الحى إلا ظل دارى

وذلك لتقضى على ما يمكن أن يكون قد بقى من غيرته بهذا الإنكار !!

إن قصارى أمر المرأة اليابانية أنها خادمة .. مطيعة ..

وقصارى أمر الزوجة الهندية أنها تنفذ إرادة أمها أو جدتها بادخار شيء فى بيت هى مكفولة الرزق فيه ..

وإذن .. فمعنى التضحية غائب .. لا وجود له .. وإنما هو الأداء الآلى الرتيب..

أما «أسماء» - رضى الله عنها - فإنها تفاجأ بهذه المعادلة الصعبة .. ولكنها تحلها بذكائها .. منطلقة من إحساسها بأن الزوج هو صاحب القرار .. وفى غيبته .. فلا قرار !!

إنها لم تكن مجرد رفيق .. عبر الطريق ..

ولكنها كانت له نعم العون على أمر الله .. على ما يقول الشاعر :

وزوجة المرئ عون : يستعين بها ... على الحياة ونور فى دياجيها
مسلاة فكرته إن بات فى كدر ... مدت له لتواسيه أياديها
فى الحزن فرحته . تحنو فتجعله ... ينس بذلك آلاما يعانيها
كم زوجة ذات عقل غير مسرفة ... تدبر المدار تدبيرا ينجيها
تعامل الزوج فى أحوال عشرته ... وفى اليسار .. بما فى النفس يشفيها
والزوج يدأب فى تحصيل عيشته ... دأبا .. ويجهد منه النفس يشقيها

إن عاد للبيت يلقى ثغر زوجته يفتر عما يسر النفس .. يحييها

هذه القرينة .. هذا ما تحس لها نفس الأبى .. ولكن أين تلقيها

إن حفنة المال تقدمها الزوجة - مع تقديرنا لها- لن تغنى عن وقوفها إلى جانبه بشبكة من عواطفها الجياشة .. والتى تحميه ساعة غروب عمره ..

وحركة الزوجة فى البيت على قدم وساق .. لن تغنى عن إشعاره بأنها له أبدا .. إلى الحد الذى تنتزع فيها من نفسها جذور الأنانية، ستكون له كما كانت من قبل ..

إن يحس الزوج بأنه ما زال فى قلبها .. وأوامره ما زالت قضيتها .. كل [illegible] كل عصبية للأساس، والذى لا تنوب عنه كل مظاهر التكريم المصطنعة :

ذات يوم .. بحث عمر - رضى الله عنه- عن امرأة تجيد صناعة الوزن .. تزن له الطيب الوارد من الخارج ..

ثم عرضت زوجته نفسها لتقسمه .. رفض الخليفة ذلك حتى لا تمسح عنقها بشذى الطيب فى يدها !

وعلى ما فى الموقف من قيم العدل . والورع .. إلا أن صورة الزوجة المطيعة الوفية تظل واضحة جلية .. فى شخص زوجة الخليفة التى ألحت عليها طبيعتها أن تكون هى الوازنة .. لكنها آثرت أن تظل الزوجة المطيعة .. المؤمنة !

❑ ❁ ❑

معا .. ضد الشيطان

يقول الله تعالى :

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾[1].

إنها دعوة إلى نسيان ما بيننا .. لنوجه كل طاقاتنا صوب عدونا المشترك : الشيطان المريد ..

عن جابر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

«إن الشيطان ليضع عرشه على الماء . ثم يبعث سراياه في الناس : فأقربهم عنده منزلة : أعظمهم عنده فتنة :

يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته يقول كذا وكذا . فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئا !

ويجيء أحدهم فيقول :

ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال :

فيقربه ويدنيه . ويلتزمه ويقول : نعم أنت»[1]

وسائل إحباط كيد الشيطان :

نستعير هنا ريشة واحد من الأدباء وهو يقول :

«كان الزوجان يختلفان حول أمر من الأمور . وبدأ الخلاف يتطور إلى شجار . بسبب همس يسمعه الزوج ولا يرى صاحبه يقول له :

ألا ترى كيف تهين زوجتك كرامتك ؟

ألا ترى أنها تمس رجولتك ؟

كيف تسكت ؟ كيف ترضى ؟ أتغلبك امرأة ؟!

وكان هذا الهمس ينتقل إلى الزوجة .. ولا ترى صاحبه أيضا :

---

(١) رواه مسلم .

يقول لها :

لقد تمادى زوجك . .

صبرك عليه أطمعه فيك :

حلمك جعله يهينك ويجرح كرامتك . .

عليك أن تضعي حدا لهذه الإهانات المكرورة منه .

. وقد استمر الهمس في نفس كل من الزوجين . . يشعل فيهما نار الغضب . . ويؤجج جحر البغضاء . ويؤلب كلا منهما على الآخر .

وفيما الزوجان كذلك : ظهر صاحب الصوت الذى كان مختبئا خلف الستار . . بعد أن هبت ريح من النافذة . .

واكتشف الزوجان أن صاحب الصوت هو الذى أوقع بينهما . .

إنه الشيطان ! .

وعندئذ بدأت حملة مطاردته حتى خرج من الدار»

ثم تجيء السنة المباركة بعد هذه الصحوة الإيمانية . . بالتوجيهات الراشدة . . حتى لا تتكرر المأساة . .

ومن هذه التوجيهات ما رواه أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

«إن الرجل إذا نظر إلى امرأته . ونظرت إليه . نظر الله تعالى إليهما نظرة رحمة .. فإذا أخذ بكفها .. تساقطت ذنوبها من خلال أصابعها»[١] .

من فقه الحديث :

١- يبدأ الرجل بالنظر إليها . . فإن في ذلك اعتدادا بها . وتقديرا لها . واستدبارا لكل ما في الدنيا . . لتكون هى نعم البديل .

٢- ويكون طبعيا أن تبادله نظرة . . تعبر عن فيض من المودة لمن جعلها في بؤرة الشعور .

(١) الجامع الصحيح . حديث رقم ١٩٧٧ .

٣- وعندما يجمع الود هكذا بين القلوب الطاهرة .. النقـية .. فإن رحمة الله تعالى جزاء وفاقا ..

فإن الرحـمة : ظل . ونقاء .. ولا تتنزل شـآبيبهـا إلا على قلوب .. تعيش على نفس المستوى .

٤- فـإذا زاد وجـيب القلوب .. وأخـذ الزوج بيـد زوجـتـه .. ولـم يكتف بمصافحتها . ولكن الشوق جعله يسرع إليها .. ليأخذها .. مسرعا إليها . راغبا فيها .. فإن الجزاء يبلغ مداه حين يغفر الله لهما ذنوبهما ..

وبعد المغفرة يكون رخاء الأسرة :

رخاؤها المادى الذى هو ثمرة رخائها المعنوى ..

وإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا نضيع فرصا ذهبية فى حياتنا ..

ولماذا لا يضيف الزوج إلى ما سبق : ابتسامة عريضة ..

إنه التبسم .. وليس الضحك ! :

إن آلاف الابتسامات تتسابق ثم تنفجر قهقهة عند الفم ..

أما التبسم فهو أبلغ فى الإيناس من الضحك الذى قـد يكون استهزاء أو تعجبا .. التبسـم الذى يكون نسمات رقيـقة تنبع من القلب ولا تباع فى الأسـواق .. إنها ذلك السهل .. الممتنع !

وقديما عينوا للملكة من يحملها على الابتسام .. ثم بكى أخيرا

لأنه لم يستطيع أن يضحكها !!

❑ ● ❑

العصافير لا تعيش مع الأسماك

يموت الزرع فى الظل .. أو يكاد .. لماذا ؟

لأن النبات محتاج إلى الضوء .. وإلى الحرارة .. والظل مانع من ذلك .. حيث يحرم الزرع من البناء الضوئى .. ومن عملية التمثيل الغذائى المشتق من أشعة الشمس ..

ومثل ذلك فى تربية أبنائنا : فالطفل يموت فى «الرفاهية» أو يكاد ..

والرفاهية هى «الظل» البارد .. المريح .. والذى يحـذر الإحساس فى النهاية فلا يكون للنعمة طعم ..

وفى القصة مثال تشخيصى لما نقول :

وفيه ذلك القانون الإنسانى الذى يقول :

إذا استمر الإنسان على نعمة مرفها .. ملها .. بل وطلب غيرها، وإن كانت أدنى .. « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها »(١).

ومن إفرازات الملل : أنه بدل أن يشكر النعمة .. يطلب غيرها .

فهو : لا يشكر الخالق .. الذى خلق النعمة ..

ولا المخلوق .. الذى ساقها إليه ..

ثم كانت المعادلة الصعبة: أن الأبناء يعتمدون كليا على دخل الآباء والأمهات ..

وفى نفس الوقت يرفضون نصائحهم .. مع أنها :

أ – لمصلحتهم .

ب– وبالمجان .

جـ- وصادرة من إخلاص عميق .

والمعادلة الأصعب - كما يقول المربون هى :

أن يظل الآباء مصطبرين . . وإن ضاعف الأبناء جحودهم

بيت الداء :

ونقول أيضا : وتظل مسئولية الآباء عن هذا الانحراف لا تقبل الجدل . .

من حيث إنهم لم يأخذوا الأبناء بلون التقشف والمعاناة . .

أعنى : لم يشركوهم فى تحمل المسئولية صغارا . . فشقوا بهم كبارا :

لقد كان الوالد يأتى ولده فى المنام بعد موته . . فيأمره . . فيأتمر !

أما اليوم : فالولد يعيش فى نعم أبيه . . ثم لا يطيعه !

ولو أن الآباء فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وتثبيتا لأبنائهم :

لقد كان إبراهيم - عليه السلام - حريصا على تنمية قيمة المسئولية فى ولده إسماعيل فكان معه فى عمله . .وهو يبنى البيت الحرام . . فأنشأ فى كيانه الإحساس بالمسئولية منذ نعومة أظفاره فكان امتداد حياته من بعد مماته .

ولله آباء صدق . . كانوا قرآنيين فى تربيتهم أولادهم :

ومنهم عبد الملك بن مروان والذى وضع لمعلم أولاده خطة تربيتهم فقال له :

علمهم الصدق . . كما تعملهم القرآن .

وجنبهم السفلة . فإنهم أسوأ الناس رغبة فى الخير . وأقلهم أدبا .

وجنبهم الحشم . فإنهم لهم مفسدة .

وأحف شعورهم . تغلظ رقابهم .

وأطعمهم اللحم يقووا . .

وعلمهم الشعر : يمجدوا . . وينجدوا .

ومرهم يستاكوا عرضا . . ويمصوا الماء مصا . . ولا يعبوا عبا . .

وإذا احتجت أن تتناولهم . . فتناولهم بأدب . . وليكن ذلك في سر . لا يعلم

بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم»

وتأمل كيف خضع الأمراء فى القصر لمجموعة من القيود .. حتى باتوا مسئولين حتى عن كيفية استعمال السواك «عرضا» .

ومن شأن هذه الصرامة أن تصقل الشخصية .. حتى إذا مات الوالد .. خلف من بعده رجالا .. لا عيالا .!

إنه الإحساس بالمسئولية .. كقيمة لا يصيبها الكسل . ولا التراخى .. ولا الضمور وأين من هذه التربية الصارمة ما يحدث اليوم فى بلد «كأمريكا» يضرب بها المثل فى التحضر ؟

إن ملايين الأطفال هناك يعودون اليوم إلى مدارسهم ومع كل تلميذ قارورة دواء لعله أن يحميه من الاكتئاب ؟!

بل إن تلميذاً أمريكيا انتحر فعلا .. مما دعا أجهزة الإعلام هناك إلى التحذير من آثار ما حدث .. من حيث كان نذيرا بدمار المستقبل هناك ..

ولما كان والد الطفل المنتحر «مليونيرا» فقد كثفت الجهود لمعرفة السبب فكان هو : شغل الوالد بجمع الثروة .. ثم شغله فى نفس الوقت عن الاهتمام بولده، والذى كان مكفول الحاجات دون أن يدفع ثمنا من المعاناة وتحمل المسئولية ..

إنه لم يعرف ما هى المسئولية .. ولا ذاق طعمها .. فكان ما كان .. والذى كان هو : إن العصافير .. لا يمكن أن تتعايش مع السمك ..

إن العصافير ترفرف فى جو السماء .. ولا تعيش فى الماء ..

والسمك سابح هناك فى أعماق البحار .. ولا يعرف كيف يقف على الأشجار .

أما فى الإسلام .. فإن الأجيال .. تتواصل .. تتكامل ..

تتعانق التجربة .. مع الطاقة .. فإذا الأمة كيان واحد . وصف واحد .

□ ○ □

وهل أبوك عمر ؟!

كان المتوقع أن يكون «للحماة» من اسمها نصيب :

تحمى البيت من الشقاق .. تجعله حمى لا يقترب منه أحد .. ولا يجترئ إنسان عليه .

وتتم الصورة جمالا لو انضم إليهم «الحم» يعزز الله تعالى به نزعة الإصلاح :

ولكن .. أحيانا تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن !

والسفن هنا هو : الزوجان اللذان يقعان بين شقى الرحى .. حين يصير الوالدان«حمة» .. أعنى : سما يفسد النبع الرائق ..

ثم يشكلان جبهة الصمود والتصدى تحت سقف البيت على ما يقول الشاعر

ونرعى حمى الأقوام .. غير محرم ... علينا .. ولايرعى حمانا الذى نحمى !

إن كل الأباء وكل الأمهات يحببن أولادهم .. بلا شك ..

ولكن يبقى أن يوضع هذا الحب موضع التنفيذ .. بالتنازل عن بعض التطلعات .. إعانة للأسرة الجديدة على مواصلة المسير .

وإذا نجح الجميع فى الامتحان النظرى .. فقد سقط البعض فى الامتحان العملى .. وبعد زواج الأبناء .. ولكن هناك من نجحوا : ومن هؤلاء الذين نجحوا ذلك الفلاح التقى .. الذى أيقن استحالة الحياة .. حياة ابنته مع زوجها ..

ومع التسليم بصدق الطرفين .. لكنه صمم على أن يتكفل بنفقة ابنته وصغارها .. حيا .. وميتا ..

ثم لم يكن موقفه من زوج ابنته إلا أن يذكره دائما بإحسانه فيما مضى .. لعل ذلك أن يكفه عن التجريح .

وتبقى الحماة «حتى كتابة هذه السطور» تبقى شخصية غير مرغوب فيها . .

بل ربما كانت هى السبب الرئيسى فى المشكلات التى ربما وصلت بالزوجين إلى الطلاق !

وقد استفتينا المجربين . . ليفتونا فى هذه الظاهرة فقالوا ما ملخصه :

١- تدليل الطفل الصغير . . إلى الحد الذى تذوب فيه شخصيته فى شخص أمه . . والتى تنوب عنه من بعد إدارة شئون البيت .

٢- موت الوالد مبكرا :

وخاصة إذا ترك الأم شابة . . لأنها عندئذ تمثل الأب والأم معا . .

وكأنها بتفردها بالقرار تأخذ ثمن تفرغها لتربية أولادها .

٣- وربما كانت هناك عقد نفسية تكمن فى دهاليز النفس . .

تعبر عن نفسها بإثارة الغبار . . إلى الحد الذى رأينا فيه أمهات يمرضهن إذا لم يتعاركن . . ولو افتعالا !

ويترتب على ذلك خلل فى البناء الأسرى من مظاهره :

١- آلام نفسية بسبب الشجار الموصول . . والقلق الدائم، وكل ذلك مؤثر فى صحة الجسم على ما يقول سبحانه : «وابيضت عيناه من الحزن»

٢- وقد يترتب على هذا الهم الموصول : الكبت . .

٣- لا تستطيع زوجة الابن أن تأخذ قراراً مستقلا . . وإنها لتتردد قبل اتخاذه. . ظنا منها أن قرار حماتها سوف يلغى قرارها .

٤- وأخطر هذه الآثار جميعا هو سوء تربية الأبناء الذين يحتارون بين توجيهات الجدة . . والأم . .

ولا يصلح القدر بين طباخين !!

من تجاربى :

ولقد سمعت أذناى ورأت عيناى حموات متسلطات . . جريئات فى الدفاع عن أنفسهن وشرعية تدخلن بما يحكى التاريخ الإسلامى من مواقف تعطى الوالدين حق

طلب تطليق زوجة الابن . .

وكان لابد من وضع النقاط على الحروف . . لاسيما وإحدى الأمهات ضربت مثلا لذلك : أبابكر . . وعمر . . رضى الله عنهما : فقد كل منهما وراء تطليق ولده زوجته :

روى أن عبد الله بن أبى بكر - رضى الله عنهما - تزوج من «عاتكة بنت زيد» وكان حبهما شديدا منعه من الغزو يوما . فطلب منه أبوه أن يطلقها . فطلقها وقال:

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلـــــها .·. ولا مثلها مـــن غـــير جـــرم يطـــلق

ولما تأكد والـده من حبه الشـديد لها . . لما سـمع هذا البيت . سـمح له بردها . . فردها .

وفى ساعة احتضاره وصى لها بمال كـثير . . حتى لا تتزوج من بعده، وكانت تقول :

فآليت : لا تنفك نفـــس حزينـــة

عليــه . ولا ينفـك جلدى أغبرا

ولكن الفاروق - رضى الله عنه - استدعاها منبها إياها أنها بإضرابها عن الزواج قد حرمت ما أحل الله . . فردت المال إلى أهله ثم تزوجت من زيد بن الخطاب شقيق الفاروق - رضى الله عنه -[1].

وفيما يتعلق بابن عمر - رضى الله عنه - . فقد شكا إلى رسول الله - ﷺ - أن أباه يطلب منه تطليق زوجته . فقاله له : طلقها»

وأنت واجد في القـصتين مـجموعـة من القيم تحكم الآباء الذين يرفـضون أو يوافقــون طبق شرع الله تعالى . . وحاشاهم أن تتـلاعب بهم الأهواء . . كما يحدث اليوم من بعض الآباء والأمهات . .

وقد كفا ابن حنبل رحمه الله مئونة الرد هنا . . حين عرضت عليه نفس القضية

(١) من بحث للدكتور أحمد شلبى .

فقال للسائل : لا تطلقها ! فقال :

أليس الرسول قال لابن عمر : طلقها، لما طلب منه أبوه تطليقها ؟ فقال الإمام :

وهل أبوك عمر ؟!

□ ❀ □

الذين يحبون بعقولهم

بينما كانت الزوجة رائعة الجمال . . كان زوجها دميم الخلقة . .

وذات يوم . نظر إليها . . ثم ضحك .

أما هي : فقد نظرت إليه . . ثم عبست !

فلما عاتبها في ذلك قالت له : رأيت أنت ما يسرك . . فضحكت .

ورأيت أنا ما يسوءني . . فعبست !

وهكذا . . ودائما يتأكد لنا صدق أمره - ﷺ - بالظفر بذات الدين . .

لأنه إذا لم تكن المرأة ذات دين :

سيكون الجمال . . غرورا . .

والمال . . استبدادا

والحسب . . تكبرا واستعلاء

وموقف هذه الحسناء في المنبت السوء شاهد بذلك . . حين تحول جمالها إلى غرور . . حاولت به أن تحطم شخصية زوجها .

أما إذا وجد الدين فإن الموقف يتغير :

إن الجمال يتحول إلى نعمة تشكر ولا تبطر .

والمال سيكون في يدها عونا . .

ويصير الحسب تواضعا . .

وخذ هذه الزوجة المؤمنة مثلا على ذلك .

فقد كان زوجها يرقد على سرير . . ثم كانت منها نظرة إلى وجهها في المرآة . . فراعها جمالها الذي يتفجر حسنا . . بينما رفيق الحياة بين الموت والحياة . .

ولقد كان المتوقع في هذا الموقف «الدرامي» أن تبكي شبابها

وجمالها . . الذى لم يجد من يتغنى به . . لاسيما ولها من حولها جارات . . ولها كذلك زميلات فى بحبوحة النعيم . .

ولكن المرأة تخلف الظنون . . حين ابتسمت . . ثم نظرت إلى بعلها لتقول له:

الحمد لله !

وتسرى العافية فى الجسد الهامد الجامد لما يسمع . . وكأنما يقول بلسان حاله: وكيف ؟!!!

وتواصل الزوجة الوافية حديثها :

الحمد لله . . على أنى وإياك من أهل الجنة :

لأنك ابتليت بى . . فشكرت . .

وأنا ابتليت بك . . فصبرت . .

والجنة موعودة للشاكرين والصابرين .

لقد كانت عين الزوجة ترى الآمال تنحسر . . والشمس تجنح إلى مغيب . .

ولكن بصيرتها نفذت من القشرة البادية . . إلى الآخرة . .

إلى ما بعد هذه الحياة . . فرأت النعيم المقيم هناك . . فصغر فى عينها كل ما يرفل فيه زميلاتها وجاراتها من نعيم . . فتأكد لها أنه ما فاتها من الدنيا شئ تبكى عليه !

وقد تذبل أوراق الشجرة . . وتجف أعوادها . . ولكن الآمال فى الجنة لا تذبل أبدا . . وستظل مزدهرة إلى أن يجيء اليوم الممدود.. الموعود . . حافلا بعطاء غير محدود .

إنه إذا كان هناك من سقطن فى امتحان المروءة . . فهناك صالحات قانتات نجحن نجاحا باهرا كان ردا إلهيا على كل من تغتر بجمالها . . أو مالها . . معرضة عن منظومة القيم التى تجعل الإنسان إنسانا .

ومنهم تلك المرأة التى تقدم إليها خاطبان : موسر . . ومعسر . .

فآثرت المعسر راضية بثروته من الأخلاق . .

ولقد يكون الاختيار هنا صعبا . .

ولكن الأصعب أن يتقدم الدميم والوسيم . . فتختار الدميم !

وهذا هو الذى حدث . . وصار المستحيل ممكنا .

فقد رضيت الفتاة يوما بالدميم . . رافضة هذا الوسيم . .

وعندما تساءل خبراء النفوس يقولون لك : إنها تحبه :

١- بدافع من غريزة الأمومة .

٢- شفقة عليه .

٣- ضمانا لعدم الزواج من أخرى .

٤- تطلعا إلى مزيد من تقديره لها . .

وهكذا : تخلع عليه من خيالها : مقنعة نفسها بأنه إذا لم نستطع أن نحب الآخرين بقلوبنا . . فمن الممكن أن نحبهم بعقولنا . . وإذ نشم من هذا التعليل رائحة الأنانية . . فإن هناك من كانت أرقى وأنقى . .

وقد فوجئ الأصمعى بهذا النموذج الذى يفلسف هذه الظاهرة بما يحل أعضل المشكلات اليوم : قال الأصمعى :

رأيت بدوية من أحسن الناس وجها . . ولها زوج قبيح . . فقلت :

يا هذه أترضين أن تكونى تحت هذا ؟ فقالت :

ياهذا : لعله أحسن فيما بينه وبين ربه . . فجعلنى ثوابه . .

ولعلى أسأت فيما بينى وبين ربى . . فجعله عقابى . . أفلا أرضى بما رضى الله تعالى به ؟!!

ولقد سكت الأصمعى ولم يصمد أمام هذا المنطق الصارم . . الوفى الذى عناه الشاعر :

لقد كذب الوشاون .. ما فهت عندهم ∴ بشر .. ولا راسلتهم برسول

□ ○ □

العتاب سنة الأحباب

جاء فى «تهذيب ابن عساكر» قال ابن عباس - رضى الله عنه - :
نزلت الآية الكريمة ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ البقرة - ٢٢١. فى عبد الله بن رواحة .

كانت له أمة سوداء، فغضب عليها، فلطمها .
ثم إنه أخبر النبى ﷺ بما حدث . فقال - ﷺ - :
ما هى يا عبد الله ؟ قال :
إنها تصوم . وتصلى . وتحسن الوضوء . وتشهد أن لا إله إلا الله . وأنك رسول الله .
قال : يا عبد الله . . إنها مؤمنة . . فقال عبد الله :
والذى بعثك بالحق لأعتقنها . ولأتزوجنها»
وتزوجها الرجل فعلا . .
ولكن الأيام كانت تخبئ لابن رواحة مفاجأة لم تدر له فى خيال :
فلقد كان يستمتع بجاريته تلك سرا . خوفا من امرأته الحرة :
والتى فوجئت به يوما بما لم تكن تحتسب :
لقد رأته - رضى الله عنه - وقد خلا بهذه الجارية . . فعاتبته زوجته قائلة :
قد اخترت أمتك . . على حرتك ؟ . . وعلى فراشك ؟!
فلما جادلها فى ذلك، قالت له :
إن كنت صادقا . . فاقرأ أية من القرآن «لأن الجنب لا يقرأ القرآن»
فقال مرتجلا :

أحس بأن وعد الله حق ∴ وأن النار مثوى الكافرينا

قالت : زدنى آية أخرى فقال :

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

فقالت : زدنى آية أخرى . فقال :

وتحملهم ملائكة كرام ... ملائكة الكرام مقربينا

فقالت : آمنت بالله . وكذبت البصر»

وفى رواية :

«فأتى ابن رواحة رسول الله - ﷺ - فأخبره . فضحك - حتى رد يده على فيه - ولم يغير عليه .

ثم قال - ﷺ - :

«هذا لعمرى من المعارضين لك يغفر الله لك :

إن خياركم خيركم لنسائه. فأخبرنى ما الذى ردت عليك حيث قلت له ما قلت؟ قال : قالت :

الله بينى وبينك . أما إذا قرأت القرآن .. فإنى أتهم ظنى .. وأصدقك !

فقال - ﷺ - :

«لقد وجدت ذات فقه فى الدين»

تمهيد

فى مكان آخر .. علقنا على هذا الموقف كما جاء فى حياة الصحابة من رواية الدار قطنى عن عكرمة .

واليوم .. نتأمل الموقف نفسه كما جاء فى «تهذيب ابن عساكر»

وإذا كانوايقولون : إن تعدد اسم الشيء دليل على شرفه ..

فإنا نقول : إن تعدد الرواية من أمارات أهمية الموقف الذى يحتاج إلى الدوران حوله بالتأمل .. حتى نستنبط منه مزيدا من الدروس .. التى تضاف إلى أخت لها من قبل .. حتى تتضح الصورة تماما .

فماذا نحن قائلون . . ؟

نقول :

قد تغلق الزوجة عينها عن أخطاء زوجها اليومية الرتيبة . . لكنها بالتأكيد تراها بالعين الأخرى . .

أما إذا كانت القضية زواجه بأخرى تقاسمها رجلها . . فتلك قاصمة الظهر - في نظرها - ولسوق تظل مفتحة العينين . . موزعة القلب . . من هول ما ترى . .

فإذا كانت تلك الزوجة الجديدة . . أمتها أو خادمتها . . ثم تراه معها وعلى فرشها . . كزوجة له . . فتلك هي الطامة الكبرى . .

فإذا وجدنا من الزوجات ما أدارت مثل هذه الأمة بحكمة وتبصرة . . فنحن إذن أمام نموذج فريد للزوجة كما يجب أن تكون :

وكذلك كانت زوجة ابن رواحة - رضى الله عنهما - :

لقد كانت بحرا لا تعكره الدلاء . .

وكانت كما قال «بشار» في مدح الخنساء :

كانت امرأة . . فوق الرجال !

ومن مظاهر حكمتها ..وحسن تبعلها ما يلي :

لقد كان أمام الزوجة هناك القرار السهل . . والقرار الصعب :

أما السهل فهو أن تجمع ثيابها . . ثم تهرول غاضبة إلى أمها . . في محاولة لتفتيش عن غيظها . .

لكنها اتخذت القرار الصعب وهو : تحمل مسئولية الموقف . . ومواجهته بشجاعة عز نظيرها . .

شجاعة : لا تستهدف التشويش على الزوج . . ولا هزيمته في معركة تملك فيها وسائل النصر . .

وإنما هي معركة شريفة يصل فيها الزوجان معا إلى قرار . . منطلقة في ذلك من قاعدة هي :

أن الزوجة التى لا تغفر لزوجها زلته الوحيدة . . فلن تستطيع أن تستمتع بفضائله العديدة .

ولقد كان هذا الموقف «بيضة الديك» فى حياة ابن رواحه . . مع أنه فى ذاته ليس ذنبا .

أما هو فقد كان من الفضل فى القمة العالية : ومن سيرته الذاتية أنه :

كان يصر على الصوم . . فى الحر . . والناس من حوله مفطرون . .

وكان موصول القلب بالآخرة : كلما رأى صاحبا قال له :

اجلس نؤمن ساعة . .

وهو الذى بكى وهو ذاهب إلى مؤتة لما ذكر قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ مريم - ٧١ . . مع أن الآية تقول بعد ذلك (﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ مريم - ٧٢

ولقد تزوج رجل زوجته بعد وفاته وقال لها :

ما تزوجتك إلا لأعرف عبادة ابن رواحة فقالت له :

كان إذا دخل داره صلى ركعتين .

لقد وعت الزوجة المؤمنة هذه الفضائل . . ثم لم تشأ أن تخسرها من أجل زواج لم يكن بالقطع وليد طمع فى الدنيا !!

❑ ۞ ❑

يردمون البئر وهم بداخله

لا يزال حديثنا موصولا .. حول موقف زوجة عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - لما رأته مع جاريته .. على فراشها (كما جاء فى تهذيب ابن عساكر) :

لقد انطلقت الزوجة لتتعامل مع المشكلة بما يحلها بالحكمة ولا يعقدها بالتهور:

ومن ملامح هذه الحكمة :

أنها تتفادى الصدام .. حذر تصعيد المعركة .. وتفاقمها ..

ثم قررت حل المشكلة معه وديا .. دون إدخال الأم طرفا فى النزاع متحلية بسمة ضبط النفس .

وإذ كان هناك زوجات يصل حبهن لأزواجهن إلى درجة الموت ..

ثم يكرههن أيضا مثل هذا الظرف إلى درجة الموت .. فقد بقيت الزوجة هنا على وفائها القديم .. وحبها القديم :

هذا الحب الكبير .. الكبير الذى لا يبلى، وإن طال به المدى .. وإن واجه الأعاصير، والزوج هو هو ذلك الذى عناه الشاعر :

صديق صدوق . بل وأم شفيقة ... تفرق فى الأبرار ما هو جامع
سلوت به عن كل من كان قبله ... وأذهلنى عن كل ما هو تابع

عتاب المحبين :

وبدأ العتاب الودود بهذا المنطق المؤثر :

«قد اخترت أمتك على حرتك ؟! .. وعلى فراشى»؟!!

وبنفثة المصدور هذه أفرغت شحنة الغضب .. ولكن : بقى فى الأعماق هناك ..

فى قلب الزوجة بقية من اللهفة لمعرفة الحقيقة .. كى تطمئن على أنها ما زالت

تلك الملكة المتوجة على عرش الزوجة . . فطرحت سؤالها مرة . . ومرة... وثالثة . . ليطمئن قلبها . . ولقد كان الزوج أديباً . . بل أريبا . . حسن التخلص . .

بكاء الأوفياء :

وإنك لتحس من وراء السطور بالزوجة الوفية لا تغاضب . . وإنما فقط تعاتب . .

وقد لا تدمع عيناها . . ولكن قلبها ينزف دما . . وهكذا أصحاب القلوب الكبيرة دائما :

ينزفون لما يرونه من الواقع الكائن . . ثم يدركون فى نفس اللحظة ما يجب أن يكون . . ولكن ماذا يفعلون ؟!

عقل أكبر من العلم :

لقد تعجبت كيف قال - ﷺ - لابن رواحة :

لقد وجدت ذات دين . . مع أنها لم تكن تفرق بين الآية الكريمة وبيت الشعر؟! ولكن تعرف فقط أن الجنب لا يقرأ القرآن . . لقد كانت تملك عقلا كبيرا . . وإن كان حظها . من العلم يسيرا . .

وتلك وظيفة المرأة . . الزوجة التى حرمت من العلم . . من الشهادة العلمية لكنها لم تحرم من حسن الفقه والتدبير . . حيث رأت بعينى رأسها . . رأت ولم ينقل لها أحد . . ثم كذبت نظرها . . شكت فى يقينها . . ليبقى زوجها مرموق المكانة . . مرفوع الهامة بين صحابه . . لأنه على أى حال رجلها . . ووالد أبنائها، ومن مصلحة الأسرة - مع ما حدث- أن يظل دائما رمز البيت !

بيت القصيد :

ولاحظ من فقهها أنها تصدق زوجها على الفور :

«الله بينى وبينك : أما إذا قرأت القرآن فإنى أتهم ظنى وأصدقك»

ولعمرى ! إنه الدواء الناجح لمشكلات الأسر اليوم :

أن يجعل كل من الزوجين - الله تعالى - بينه وبين شريك حياته :

فلتستبعد الأم،ليخسأ النمامون الصائدون فى الماء العكر . .

ولتحل المشكلات فقط تحت سقف البيت . . وفى أضيق نطاق . . فرارا

من مضاعفات تدخل الغرباء :

وبهذه الروح الودود المتسامحة . . لا يكون فقط :

الخروج من المشكلة . . وإنما وظيفتها المثلى ألا تكون هناك مشكلات ابتداء !

القيادة المؤمنة وهموم الشعب :

ويحمل الزوج همومــه ذاهبا بها إلي الرائد الذى لا يكذب أهله . .والذى يقف إلى جانب الضعيف ليقوى . . وإلى القوى ليأخذ الحق منه . . ويبتسم - ﷺ . . بل ويبتسم ابتسامة عريضة رد يده فيها على «فيه» إعجابا . . وتقديرا . .

ونحن نضحك مـعه - ﷺ - لهذه الزوجة الوفـية الأبية . . ذات الدين . . ونستشعر دائما موقفه ذلك الخالد . .

ثم نضحك . . وبملء أفواهنا «على» تلك الزوجة التى قال لى زوجها :

لقد فرضت علي الظروف أن أتزوج ثانيـة . . فاشترطت على الأولى أن أتزوج ثالثة لأغيظ بها من أغاظها . . تفعل ذلك . . كما تفعل الجاهلة :

التى تريد أن تردم البئر . . بينما هى بداخله !

. . وطوبى لزوجة تضحك من نفسها . . أن اقـتحمت العقبة . . وبنجاح . . وبلا خسائر، ألا إن اليوم الذى تضحك فيه مـن نفسك - كما قيل - لهو اليوم الذى يتم فيه عقلك .



□ ○ □ الزواج العرفى □ ○ □

زمان . . كان فارس الأحلام يأتى :

ممتطيا صهوة جواده

فى ثوب أبيض .

شاهرا سيفه . .

وفى وضح النهار :

وكان يدخل من الباب . . لا من النافذة . . على مرأى ومسمع من الجيران .

أما اليوم . . فقد ابتلينا بالزواح العرفى :

وهو :

خروج على إرادة الأمة . . وتحد لها .

وينبغى التصدى له . . حماية للشباب . . ثم حماية للأطفال . .

الأطفال : الذين سيولدون أيتاما . . بينما آباؤهم على قيد الحياة !

اليوم التافه :

ولنتأمل واحدة من «بنات حواء» تنعى هذا اليوم التافه . .

أو هذا الزواج العابر . . إنها الشاعرة «نازك الملائكة»

تقول :

لا حت الظلمة فى الأفق السحيق

وانتهى اليوم الغريب .

ومضت أصداؤه نحو كهوف الذكريات

وغدا تمضى كما كانت حياتى .

شفة ظمأى وكوب .

عكست أعماقه لون الرحيق

وإذا ما لمسته شفتايا

لم تجد من لذة الذكرى بقايا

لم تجد حتى بقايا !

انتهى اليوم الغريب

انتهى . . وانتحبت . حتى الذنوب .

وبكت حتى حماقاتى التى سميتها ذكرياتى . .

انتهى . . لم يبق فى كفى منه غير ذكرى . .

نغم يصرخ فى أعماق ذاتى . .

رائيا كفى التى أفرغتها . .

من حياتى . . وادكاراتى . . ويوم من شبابى . .

ضاع فى وادى السراب . .

فى الضباب !!

كان يوما تافها . . حتى المساء

مرت الساعات فى شبه بكاء

كلها . . حتى المساء

عندما أيقظ سمعى صوته

صوته الحلو الذى ضيعته

عندما أحدقت الظلمة بالأفق الرهيب .

وامحى صوت حبيبى . .

حملت أصداء . . كف الغروب .

لمكان غاب عن أعين قلبى

غاب . . لم تبق سوى الذكرى وحبى

وصدى يوم غريب . .

كشحوبى . .

عبثا أضرع أن يرجع لى صوت حبيبى»

وهكذا تودع الشاعـرة هذه العلاقـة التى ولدت . . لتموت معبـرة عن شجن يعتصر القلب . . بعد فوات الأوان . .

من خلال تجربة : آلمت . . لكنها ماعملت !

وأين هذه الضراعـة وهذا الاستـخذاء؟ . . أين هى من «جريـس» هذه البدوية الشاعرة التى غارت على عرضها أن يدنس؟ . .

وعلى كرامة قومها أن تخدش؟ . . فصاغت هذه الأبيات تحرض قومها على أن يثأروا لها ممن حاول إذلالها : قالت :

أيجـمل مـايؤتـى إلى فـتـيـاتكم ..
وأنتم رجـال فـيكم عـدد النمـل؟

وتصـبح تمشـى فى الدمـاء عـفـيـرة
عـشـيـة زفت فـى النسـاء إلـى بعـل

ولو أننا كـنـا رجـالا .. وكـنتـمـو
نسـاء .. لـكنـا لا نقـر بذا الـفـعـل

فـمـوتوا كـرامـا أو أميـتـوا عـدوكم
ودبوا لنـار الحـرب بـالحطـب الجـزل

وإلا فـخلـوا بـطنهـا وتحـمـلوا
إلى بـلد قـفـر ومـوتوا مـن الهـزل

فـكلـبين خـيـر من تمـاد على أذى
ولـلمـوت خـيـر من مـقـام على الذل

وإن أنتـــمـــو لـم تـغـــضـــبـــوا بـعـــد هذه

فـكونـوا نســـــاء..لاتـعـــــاب من الـكحـل!

ويـالـلـرجـــــــال .. بـلا نـخـــــوة ..

ويـالـلنـســــــاء .. بـلا حـــــيـــــاء!

وأمتنا اليوم مدعو رجالها أن يستشعروا هذه النخوة . .

مدعوات بناتها إلى هذا الحياء . . في حركة مباركة

تغير بها النفوس حتى يغير الله تعالى حالنا:

من الفحولة . . إلى الرجولة

ومن البذاء . . إلى الحياء!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين